أبحاث علمية معاصرة

في كتب التفاسير

تأليف

أ.د. فخر الدين قباوة

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة



أبحاث علميا معاصرة

في كتب التفاسير

تأليف
أ.د. فخر الدين قباوة

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

الطبعة الأولى
١٤٤٠هـ/ ٢٠١٩م

قباوة، فخر الدين.
أبحاث عليا معاصرة في كتب التفاسير/ تأليف: فخر الدين قباوة. - القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ٢٠١٨م.
١٩٢ ص؛ ٢٤ سم.
تدمك ٨ - ٣٨٥ - ٧١٧ - ٩٧٧ - ٩٧٨
١ - القرآن - علوم.
٢ - القرآن - جمع وتدوين.
٣ - القرآن - تفسير.
٤ - القرآن - مباحث عامة.
أ - العنوان.
٢٢٠

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية - إدارة الشؤون الفنية

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
ش.م.م
تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م، ٢٠٠٠م، ٢٠٠١م هي عمر الجائزة تتويجًا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر

جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية
الإدارة: القاهرة: ٤٠ شارع أحمد أبو العلا - المتفرع من شارع نور الدين بهجت - الموازي لامتداد شارع مكرم عبيد - مدينة نصر
هاتف: ٢٢٨٧٣٢٤٦ - ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +)
فاكس: ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)
المكتبة: فرع الأزهر: ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف: ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)
المكتبة: فرع مدينة نصر: ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف: ٢٠٨٠٢٨٧٦ (٢٠٢ +)
فاكس: ٢٠٨٠٢٦٨٠ (٢٠٢ +)
المكتبة: فرع الإسكندرية: ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين
هاتف: ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس: ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +)
بريديًّا: القاهرة: ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩
البريد الإلكتروني: info@daralsalam.com
موقعنا على الإنترنت: www.daralsalam.com

بسم الله الرحمن الرحيم

تَمْهِيد

ألا كلّ الحمد لله أن أعزّني، ورقِيَ بي من لزوم الأدب الجاهلي إلى ميادين العلوم العربية الإسلامية، وحطّ رحالي في جنان القرآن الكريم والحديث الشريف لأكون خادمًا وفيًّا، أقدّم قبسات مباركات زاهيات، وأفضلُ الصلوات والسلامات والبركات على رسولنا الحبيب محمد ﷺ، أن كان مدينة العلم فتح لنا الأبواب على مصاريعها، وشجّعنا أن نكون من المتعلّمين والمعلّمين، وأطيبُ الرضا على الصحابة وتابعيهم إلى يوم الدين، يرعَون العلوم بالتنمية والإحسان إلى يوم الدين.

وبعد، فقد تحدّث العلماء الكرام عن علوم التفسير، وصنّفوا فيها أسفارًا ومؤلفات وكتبًا مشهورة، وقد جمع السيوطي أصناف هذه العلوم فتجاوز بها الخمسين،[1] ونحن في هذا العصر واقفون منها هنا على جوانب من بعضها بالبحث والنظر. فقد لمسنا في السنوات الماضية، ونحن ندرس كتب التفسير للتعلّم والفهم والتعليم والتأليف والإعراب، ميادين عامّة مشتركة تقتضي الوقوف والتلبّث إزاءها للبحث والتفصيل ووضع لمسات توضّح معالم الغموض وتسدّد الثغرات وتضيف إلى الجهود العظيمة ما ينير السبل للدارسين والباحثين والراغبين في متابعة تأليف تفسير للقرآن الكريم.

فلقد تابع علماء التفسير جميع الميادين التي تمسّ حاضرهم ومستقبل الأُمّة الإسلامية، وعالجوا فيها مسائل اللغة والبيان والتفسير والقراءات والنحو والبلاغة والأحكام والمذاهب والعلوم الإسلامية، وبسطوا في

---

(١) انظر الإتقان في علوم القرآن ١ : ١٦ - ٢١.

ذلك آراء ومسالك ووُجهات كثيرة متفقة ومختلفة، فملؤوا ساحة الاهتمامات الحضارية للواقع والمستقبل. ونحن نضع الآن إضاءات لطيفة تعالج ما كان من جهودهم العظيمة في حاجة إلى الترميم والتتميم والبيان، فنبحث ما يلي:

١ - الفوارقَ العُظمى بين الدستور القرآني والدساتير الوضعية المستوردة بالإكراه والنفاق والتهريب والرشوة والغباء، لنكتشف ما وقعنا فيه من البلاء بالخضوع للمستعمر الغاصب وطواغيت الحكام الخائنين المنافقين الجاهلين المستعبَدين.

٢ - تاريخَ الرسم العثماني للقرآن الكريم، وأساليب نقله التوقيفي بين الأمينينِ عليهما السلام وكَتَبة الوحي والصحابة رضي الله عنهم ولجان الجمع للمصاحف حتى صار في نسخ محدودة، رسْمُها سُنّة مؤكّدة لا تجوز مخالفتها فيما ينشر من المصاحف.

٣ - التوءمةَ بين القرآن الكريم واللغة العربية منذ الأزل، إذ كانت الكُتب المنزَّلة مسجّلة بهذه اللغة العَربانية المباركة، ثم ترجمها جبريل للرسل غير العرب، وبقيت تلازم القرآن الكريم حتّى الأبد، مهما حاول أعداؤنا الفصل بينهما.

٤ - اللغةَ العربية هي الوحيدة في القرآن الكريم، وفيها لغة قريش وبعض لهجات العرب، وما زعمه بعض العلماء من مفردات غير عربية فهو باطل لا أصل له، وتفسيره بتوارد اللغات أو أن اللغات الأعجمية نقلتْه عن العربية.

٥ - التمييزَ بين الأحرف السبعة والقراءات القرآنية، فالأحرف المباركة هي القراءات التوقيفية التي تلقّاها النبي من جبريل عليهما السلام في معارضاتهما الرمضانية للنص القرآني سنوات البعثة الشريفة، ونُقلت إلى كتَبة الوحي فالصحابة الكرام لتثبيت القراءات.

٦ - ما ذُكر في كتب التفسير من أسباب النزول للآيات الكريمة بعضه صحيح معتمد له أسانيد وروايات موثّقة، والباقي ضعيف لا يجوز الاعتماد عليه، وضعَه

المفسّرون والقصّاصون لبيان جوانب من المعاني دون أصل علمي موثّق.

٧ - وظيفةَ الأخبار الإسرائيلية في التفسير، والأحكامَ المعروفة في اعتماد ما يُقبل وإنكار ما يُدفع منها وروايةِ ما يجوز منها دون إقرار وقبول. وعلى ذلك جرى المفسّرون، وتركوا للعلماء الفصل في درجاته للدارسين والطُّلّاب، مع العلم أنها تشمل أباطيل الكافرين أبدًا.

٨ - وظيفةَ معاني الأدوات في التفسير وصلتها بحروف المعاني، وتاريخَ استخدامها بين المفسرين، ومكانةَ الزمخشري في الاهتمام بها، وتزايدَ ذلك الاهتمام بعده، دون أن يشمل الجزء اليسير من ذلك، حتى يسّر الله - تعالى - لنا استيعابها في التفسير والإعراب.

٩ - تجريدَ الرسم العثماني من علامات الإعراب والإعجام ليشمل القراءات الصحيحة في نسخ محدودة، وتجديدَ أبي الأسود لنقط الإعراب والصرف وتجديد نصر بن عاصم لنقط الإعجام، نبحث هذا كله لوجوب ضبط النص القرآني ونصوص التفسير بما يناسب كلًّا منهما. وهذا يقتضي في كتب التفسير تمييز الفقرات لكل منها وتوزيع علامات الترقيم لتيسير الفهم.

١٠ - النظرَ فيما حوته كتب التفسير من بيان وأخبار وأحكام، لتوسيع آفاق النصوص القرآنية بما تحتمله من المعاني الفيّاضة والعوالم المتنامية، ولتشريف مقامات النبوّات الكريمة عما رُوي من الأكاذيب والأباطيل، ولتكذيب الأباطيل والأوهام الخيالية التي تخلّلت كتب المفسّرين وصبغت التفكير بالمزاعم والدسائس والأكاذيب.

ولقد يسّر الله ﷻ لنا في الدراسات العليا لطلّاب العالِمية « الدكتوراة » من كلية العلوم الإسلامية بجامعة محمد الفاتح الوقفية - حفظها الله بالرعاية والتوفيق والحماية - يسّر لنا تناولَ هذه الموضوعات بالبحث وعرضَ الأباطيل والشُّبهات التي حولها أو ضمنها، ومناقشتها لكشف عواويرها بالأدلة العلمية المعتبرة والنصوص الموثّقة والتفكير الإسلامي الخالص، مع تكرار مقصود

لبعض المعلومات أحيانًا، بعيدًا عن المذهبية والطائفية ودسائس الثقافات الغربية التي أفسدت القلوب والنفوس والتفكير والألسنة والقِيم والأذواق والأخلاق والسلوك والأعمال، وزرعت في صفوفنا جهَلة الباحثين والناشرين والدارسين، وفتحت علينا أبواب الدسّ والتحريف والإفساد للتراث الإسلامي المبارك.

فإلى زملائي الأطايب وإخواني الأكارم وطلّابي الأحباب، أقدّمُ هذه الخلاصة من تجاربي في حقول العربية والعلوم الإسلامية ومنتهى ما يمثّلها في إطار علمي محبّب وغايات نبيلة مباركة، آملًا أن يزوّدوها بالسداد والتوفيق والوفاء. وعلى الله قصد السبيل، وله الحمد أوّلًا وآخرًا.

أ.د. فخر الدين قباوة

خادم القرآن الكريم والسُّنّة المطهّرة

١
دُستُورنا ودَساتيرهم[(١)]

الحمد لله العزيز القدير والصلاةُ والسلام على سيّدنا وحبيبنا المصطفى البشير النذير. وبعدُ، فإنّ أفضل ما يقوم به المؤمن في حياته العلمية من العمل هو خِدمة الكتاب العظيم الذي أنزله الله ﷻ هدًى ورحمةً للعالمين وماذا نقول في حقّ هذا الكتاب الربّاني المجيد؟

إنّه حبلُ اللّه المتينُ[(٢)] « وهُوَ النُّور المُبِينُ، والشِّفاءُ النّافِعُ، عِصمةٌ لِمَن تَمَسَّكَ بِهِ ونَجاةٌ لِمَن تَبِعَهُ، لا يَعوَجُّ فيُقَوَّمُ، ولا يَزِيغُ فيُستَعتِبُ،[(٣)] ولا تَنقَضِي عَجائبُهُ، ولا يَخلَقُ عَن كَثرةِ الرَّدِّ ».[(٤)] إنّه كلام اللّه، تلقّاه الأمين عن الأمين - صلّى اللّه عليهما وسلّم - وجاءنا بلفظه ومعناه على التمام والكمال، خلافًا لِما صارت عليه الكتب السماوية المتقدّمة، وتكون عليه الدساتير الوضعية المستوردة بالغشّ والإكراه والتهريب والرشوة والنفاق. فهو كما نزل على قلب الرسول العظيم ﷺ، يخاطبنا اللّه به ونخاطبُه كلّ يوم مرارًا في التلاوة والصلاة والدراسة والتعليم والتعلّم والدعاء والعبادة والعمل في كلِّ ميدانٍ. فأيُّ منزلة أرفعُ من هذه منزلةً، تصلك بربّ العالمين من دُون حاجب أو مُعِين؟

إنه دُستورنا مَنحَناه اللّه ﷻ رسمَ لنا سبيل الدين الحنيف محصَّنًا من التغيير والانحراف، بما فيه من عقيدةٍ للتوحيد خاصّة، وشريعةٍ سمحة شاملة لجميع مناحي الحياة، وأخلاقٍ كريمة فاضلة للأدب مع اللّه - تعالى - ورسوله ﷺ ومع نفس الإنسان ذاته والمجتمع مِن حوله والناس جميعًا والحيوان والنبات

---

(١) تأملات في كتب التفسير ص١ - ٤.

(٢) إتحاف الخيرة المهرة ٦ : ٣٢٨.

(٣) يُستعتب أي: يُطلب له الهداية والاستقامة. يعني: لا يكون منه ذلك الطلب لأنه لا يزيغ أبدًا.

(٤) أي: لا يبلى من كثرة التلاوة والتداول والدرس والتفهم.

والجماد والعالَم كله، وقوانينَ ضابطةٍ لحياة الاقتصاد والزراعة والصناعة والتجارة والعلم والتعليم والحضارة والقضاء والمال والاجتماع والحرب والسياسة الوطنية المؤمنة والدولية والعالمية والإنسانية. جَمعَ ذلك كله بالبيان الربّاني المَجيد.

إنه دُستورنا، حفظَ لنا تاريخ الكون منذ نشأته الأولى بما فيه من المخلوقات التي تُهِمّنا معرفتها، وما كان للبشرية من خلق وتكوين بيدَيِ اللّه – سبحانه – بَشرًا سويًّا تُنافِسُه الملائكة فيبُـزّها بإنسانيّته المكرّمة، ثم ما كان من رسالات ونُبوّات تهدي الناس وتُصلح أحوالهم، ومن جبابرة تقود الأُمم إلى الهلاك والدمار، وما ستؤول إليه الحياة الدنيا من فناء وما يلي ذلك من حساب وخلود في الجنّة أو النار.

إنه دُستورنا، حفظَ لنا أساليب الرسم الإملائي عند القبائل العربية في عهد النبوّة المباركة، على ما كان من خلافٍ بينها في أشكال الكتابة لبعض الكلمات وضبطٍ نحويّ ومُعجمي لبعض أيضًا، حفظَ ذلك في كتاب كريم كامل، وهو ما لا يَعرف التاريخ له مثيلًا في جميع حياة الأمم البائدة والحاضرة.

إنه دُستورنا، حفظَ لنا لُغتنا الغالية الحبيب على مدى القرون، وسيحفظها من الضعف والاختلال والزوال حتى يرث اللّه الأرض ومَن عليها. نعم لقد حفظ لفظَ الأصوات والحروف والصِّيَغ والتراكيب والأداء بصورتها اللفظية الدقيقة ومعانيها في جميع القراءات، لِتَـنَقُّله بين القُرّاء والعلماء والدارسين والأدباء أُذُنًا لِفم وفمًا لِأُذُن، لا تنخرم منه أدقّ الأصوات وأبعد الهمَسات وأعمق الدلالات والظِّلال، على كثرة التكرار وبُعد الأزمان والبلاد. وهذا ما لا تستطيع حملَه أدقُّ أجهزة التسجيل وأعظمُ آلات الكِبَار (الكمبيوتر) العالَمية للتلقّي والاحتفاظِ وأحدثُها في الكون والحياة. فإنّ ما تحمله هذه المستحدَثات يناله الخفاء والامّحاق بعد استعمال سنوات أو قرون، ولا

يبقى منه إلّا أشباح وطنطنات وأوهام، أو يذهب بدقائقه جملةً وتفصيلًا. فأيُّ بركة تضاهي وحيَ اللّٰه؟

إنه دُستورنا الربّانيُّ العظيم لخير الدنيا والآخرة، نُحبُّه ونحفظه في صميم فؤادنا ونور أعيُننا، ونقدّسه فوق الرؤوس والقلوب، ونفتديه بالروح والمال والأهل والوطن، ونستجيب لأمره ونهيه في كلّ نيّة وقول وفعل، بلا سُلطان قاهر ولا قرار سياسي ولا قاض ولا حاكم ولا شرطيّ ولا أمير، ونرجع إلى حُكمه المقدّس طاعة وعبادة وتُقًى في جميع مراحل حياتنا وأشكالها ومستوياتها، من عقيدة وعبادة وسلوك وعمل وسياسة واقتصاد وعلاقة بالمخلوقات جميعًا، ونتلوه ونرتّله ليل نهار بطهارة وتقديس ومحبّة.

يتلوه ويرتّله منّا الأطفال والشباب والكهول والشيوخ والعجائز المُبصرون والعُميان والمرضى والعرب والأعاجم في المساجد والمنازل والمدارس والمعامل والحفلات والمؤتمرات والندوات والحدائق والطرقات والحافلات والبواخر والسفن والطائرات، ويحفظون آياته العظيمة رجالًا ونساء بكل إجلال وإكبار، ويتابعون دراسته وتفسيره وتفهُّمه وإدراكَ توجيهاته للفكر والعمل والجهاد ومقاصدَه وأسراره.

فأيُّ دُستور في العالم صحيح البُنيان أبدًا، وله هذه المحبّةُ وهذه القُدسية وهذه الحماية وهذه الطاعة وهذا الانقياد؟ وأيُّ دُستور عندهم يحفظه بعض أصحابه أو يحفظ نِصفه أو رُبُعَه أو عُشُرَه أو يقرأ بعضه ليل نهار؟ ما أعظم دُستورَنا! وما أغنى بركاتِه وأفضالَه! وما أرفع مَقامَه في القلوب والعُيون والضمائر وميادين الحياة!

لقد كان العلماء في جميع الميادين وما يزالون يعتقدون أن كلًّا منهم سيكون سؤاله عسيرًا يوم الدِّين، إذا لقي حتفه ولم يكن له مساهمة في مَسيرة الخِدمة للكتاب العزيز. ولذلك انصبّت جهودهم المباركة منذ عهد النبوّة في تأسيس العلوم القرآنية وتنميتها هي وما يواكبها من المعارف والخِبرات

والأبحاث، حتى رأيتَ ما لا يُحصى من الكتب والرسائل والمصنّفات في حقول هذا النور الإلـهي الجليل.

وقد كان لميدان التفسير نصيب وافر في تلك الجهود الطيّبة، تفجّرت منابعه الأولى، تستوعب البيان الكامل على لسان محمد ﷺ وفي أعماله،[١] بالتوضيح والإجراءات العملية والتوجيه، حين كان يُبلّغ ويدعو ويجاهد ويعلّم ويمارس الحياة، ويبيّن مَعالم الهداية ومَقاصدها في العقيدة والعبادة والشريعة والدعوة والفقه والعمل والتصرّف والجهاد، لأنه كما قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: « كَانَ خُلُقُهُ القُرآنَ ».[٢]

ثمّ توالَتِ الأنظار والألسُن والأقلام بين الصحابة والتابعين الكرام حتى يومنا هذا، واتسعت رُقعة الخِدمات القرآنية، فشمَلَتِ الآلاف من العلماء الأفاضل والباحثين إلى عصرنا هذا، تصدر عنهم آثار مخلصة وفيّة، تزوّد الناس بما تُجدّده حاجات التفسير ومنجَزات العلومِ والمعارف والظروف والأحوال والتصرُّفات في جميع مناحي الحياة ومتطلّباتها.

وقد امتازت تلك الآثار المباركة بالتنوّع في علوم كثيرة متباينة المَشارب، تُستمدّ توجّهاتُها وأصولها من ينابيع الكتاب الربّاني، وتنطلق في مَسالكَ مختلفةٍ متكاثرة، ثم تلتقي روافدها في حياضه لتحقّق بعض بيانِه وعظيمِ خلودِه الأبدي، وكان لمصنّفات التفسير رُكن ظاهر في تلك الغرَسات الطيّبات، ينمو ويتّسع مع الأيّام وتتفرّع ظلاله بألوان من الإيجاز والتوسّط والتفصيل في نماذج غفيرة، تخدم جميع مستويات العِلم والتعليم والبحث والتأليف.

فالمواجهة للنصّ القرآني تفتح عوالم تستغرق الأبصارَ والأفئدة، وتصهر النفوس بمقاصدَ إلـهية غير متناهية. والحقُّ أن الرسول الأكرم ﷺ لولا

---

(١) من زعم أن القرآن الكريم لا يفسَّر فهو واهم فيما يقول والتاريخ شاهد عليه. انظر البرهان في علوم القرآن ١ : ٤٦٥ وتفسير الشعراوي ١ : ٩ والتفسير والمفسرون في العصر الحديث لعبد القادر محمد صالح ص٢١٩ - ٢٢٠.

(٢) مسند أحمد ٤١ : ١٤٨.

رعايةُ اللّٰه له وتحصينُه إيّاه بأعلى مراتب الإنسانية وعيًا واستلهامًا وبيانًا وتبلّغًا وقدرة على الاستيعاب والتحمّل والمُصابرة، لولا ذلك لما استطاع أن يتلقّى الآيات الكريمة وينهض بحَملها، وينقل إلى البشرية ما فيها من الهدْي والجلالة والإعجاز والخلود. فالرهبة الربّانية والعظمة الإلٰهية والحِكمة البالغة والروح العظيم والسلطان الكبير لِما يتضمّنه الوحي كلُّ هذا بل بعضُه كفيل بفرض الهيبة والتضعضع والانصهار. كيف لا، وهو الوحي الذي وصفه ربّ العزّة والجلال بقوله الكريم[١]: ﴿ لَو أنزَلْنا هذا القُرآنَ علَى جَبَلٍ لَرأيتَهُ خاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِن خَشْيـةِ اللّٰهِ ﴾؟

وإنك لتلتمس شيئًا من ذلك، إذا استحضرتَ ما كان يعانيه الرسول ﷺ حين يتلقّى آياتِ القرآن الكريم من جِبريل عليه السلام. لقد كان يناله الكرْب الشديد، فيَترَبَّد له وجهُه الشريف، ويُنكِّس له رأسَه الكريم هو ومن يكون حوله من الصحابة. وإنه ليوحَى إليه وهو على ناقته، فيَضرب حزامَها من ثِقَل ما يوحَى إليه. قال ﷺ: « أحيانًا يأتِيـنِي مِثلَ صَلصَلةِ الجَرَسِ، وهُوَ أشَدُّ علَيَّ »، وقالت السيدة عائشة رضي الله عنها: « ولَقَد رأيتُه يَنزل عليه الوحيُ في اليوم الشديد البرد فيَفصِم عنه، وإنّ جبينَه ليتفصّد عَـرَقًا ».[٢]

إذا كـان هذا شـأنَ النبي الأعظـم ﷺ، وقد أُعِدَّ إعـدادًا ربّانـيًّا لتحمّل الرسالة واستيـعاب ما تنطوي عليـه من المَهـامّ الجِسام، ثم تلـقّى ذلك وكابـده آلاف الأحيـان فألِفه واشتـدّ له عُوده، وتهيّأت له نفـسه روحًا وعقلًا وإدراكًا وإحساسًا وجسدًا، فكيف بأمثـالنا من العباد المُثقلِين بالضعف الإنساني والأُلفة لبسائط العيش ولبائن المُهمّـات؟ فلا غروَ أن تجد الكافرين عاجزين عن تحمّل بركاته، وبعضَ المسلمين ينساقون إلى النفاق والفسـوق والعصيان.

لقد تعالى النص الإلٰـهي العظيم أن يكون من النثر الذي نتلقّاه في ميادين

---

(١) الآية ٢١ من سورة الحشر. وانظر المفصل في تفسير القرآن الكريم ص٢١ - ٢٣ من خطبة التحقيق.

(٢) الأحاديث : ٢ في البخاري و٢٣٣٣ - ٢٣٣٥ في مسلم. وانظر فتح الباري ١ : ٢٣ - ٢٨.

الأدب، وتعاظَم أن يكون كالشِّعر الذي نستحضره في التغنّي والإنشاد، وفاق كلَّ نتاج لغوي أو علمي عرفه الوجود أو يعرفه حتى الأبد، وقد أدرك الجاحظ عين الصواب حين ذكر أن الله ﷻ جعل لكتابه اسمًا مخالِفًا لِـما سمَّى العربُ كلامَهم به على الإجمال والتفصيل: فقد سمَّى الله جُملته قُرآنًا بخلاف ما جعلوه دِيوانًا، وجعل بعضَه سُورة على غير ما جعلوه قصيدةً، وخصّ بعضَها باسم الآية خلاف ما عُرف عندهم بالبيت، وكان اسمُ آخر الآية فيه فاصلةً لتتميز من القافية المعهودة والسجع المعروف.(١)

فمهما أطال العالِـم النِّحرير وقوفه أمام النصّ القرآني يتحرّى دقائقه ويستجلي حقائقه، ثم استخلص منه زادًا عظيم القدر واسع المدى بعيد العمق دقيق السَّبر، يجدْ أن ما حول ذلك من العالَم الأكبر والأبعد والأعمق هو فوق ما تحصّل لديه، ولسانُ الحال يخاطب بكل بيان: هل لك في البحث والتنقيب من مزيد؟

ذلك لأنّ الباحث العالِم الكبير بينما هو في غمرة التفهّم للدلالات المعنوية القريبة إذ تشغله المَقاصد المتعدّدة من المعلومات والأحكام والأخبار والعِظات والإلزامات الحِوارية، ثم تَبهره الظلال الوارفة المترامية الأطرافِ من الإشارات والمناحي البعيدة، وتتوالَى عليه الصِّيَغ المتجدّدةُ المفاهيمِ والتوجُّهاتِ، والتراكيبُ المتعدّدةُ الأشكال في إطار موحَّد، والسياقاتُ المتميّزة بالأناقة والبلاغة والإعجاز، والصورُ البيانية الأخّاذة، والعلاقاتُ الفائقة العَقد والارتباط. ومع ذلك كلّه وفوقه أيضًا الحِكمةُ الربّانية المطلقة البالغة، في إلقاء التوجيهات والأحكام والآداب والمواعظ والعِبَر بالأساليب المختلفة الألوان، لحصر الماضي الغابرِ منذ الأزل والحاضرِ المديد والمستقبلِ البعيد غير المتناهي إلى الأبد في حيّز واحد وموضوع متجدّد.

وأنتَ مَهما تطاولتَ محاولًا سَبر شيء من أبعاد هذا النص الربّاني

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ١ : ١١١ وكشف الظنون ص١٩٦٤.

الكريم وجدتَ ما حصّلتَه بين يديك جدْولًا دقيقًا رقراقًا، بالنسبة إلى عوالم من المحيطات الربانية الغامرة، وأنّ بعض ما أُلِّف حوله من العلوم أكبر من أن يَدَّعي أحد أنه يوفّيه جانبًا من مقتضيات البحث والتحقيق أو الدرس والاستيعاب. لا شكّ أننا في الشواطئ نَشرع ونكرع، وسيبقى للتاريخ ما في اليمّ حافلًا بالمُعجزات الغامرة والعوالم الفيّاضة والآفاق المطلقة بلا حدود.

جاء عن بعض العلماء أنّه لكل آية ستّون ألفَ فهم.[1] ولهذا ترى أن تاريخ التصنيف عن النصوص القرآنية مرّ بمراحل متعدّدة من الطفولة واليُفوع والشباب المستمرّ أبدًا، فأصبح له مذاهب وتوجّهات ومدارس مختلفة بحسب البيئات العلمية والثقافية والحضارية والمذهبية والسياسية. وخلال ذلك كله تولّد اتجاهان متمايزان متقابلان: أحدهما يهتمّ بالموسوعية فيستوعب العلومَ المعاصرة له بالتفصيل والاستطراد والاحتجاج، والآخَر يستهدي البساطة والإيجاز فيكتفي بتفسير المعاني الدقيقة في إشارات واختصار.

وكانت مصنّفات التفسير تتوالى مع الأيّام والسنوات والعقود بأعداد وافرة ومُعطَيات مأثورة أو متجدّدة، تناسب العصور التي تملؤها والمستويات الجماهيرية المختلفة التي تخاطبها والمذاهب الدينية والعلمية والسياسية والمشارب والتوجّهات التي تحيط بها.[2] وعندما دخل القرن الماضي منتصفه أصبح في الساحة القرآنية نماذج غفيرة تستعصي على الحصر، وكلّ منها يقدّم خِدمات متنوعة لهذا النص السماوي العظيم، تمثّل الثقافات والحضارات والعلوم والتجارب التي مرّ بها المفسِّر ولامس منجزاتها وأصداءها وتفاعل وإيّاها في ميادين الحياة.

فلْننتقلْ إلى تلك الآفاق نُعيد النظر فيها من وجوه،
بعون اللّٰه تعالى:

---

(١) البرهان في علوم القرآن ١ : ٤٥٤ و٢ : ١٥٤.

(٢) مقدمة ابن خلدون ص٧٩٣ - ٧٩٥.

٢

جمع القرآن الكريم
والرسم العثمانيّ للمَصاحف

التمهيد: حمَلات عدوانية:

كان الإسلام وما يزال يتعرّض لهجمَات من أعدائه بالفكر واللسان والسلاح والضغوط السياسية والغزو الثقافي والتخريب والإفساد، للنيل من عقيدته وشريعته وعبادته ونهجه في الحياة. وهذه الحمَلات العدوانية هي سُنّة اللّٰه في تاريخ هذه الدعوة الحنيفة المباركة، لا تتخلّف مع تجدّد الأيام والأعوام والقرون، بل تزيد حِدّة كلّما ظهر للمسلمين نشاط في العمل والدعوة والالتزام.

ولقد بلّغَنا اللّٰهُ ﷻ أنّ ذلك أمر أبدي، لا تنقطع سيوله ولا تضعف وسائله وأحابيله، ما دام للمسلمين إيمان بهذا الدين العظيم وعمل بما يقتضيه من التقوى والجهاد والسعي الكريم، فبيّن لنا بكل وضوح وتأكيد استمرارَ الأعداء في معاركهم العدوانية[1]: ﴿ ولا يَزالُونَ يُقاتِلُونَكُم حَتَّى يَرُدُّوكُم عَن دِينِكُم، إنِ استَطاعُوا ﴾. ولهذا نرى السهام توجَّه إلينا صباح مساء، وتنقضّ على مبادئ الإسلام وأصوله وفروعه وأصحابه وكلِّ أمر يتعلق به، في وسائل الإعلام والتخريب والترهيب وأسلحة الدمار، واصطناع الفتن والحروب والبلايا والفواحش والأوبئة والجائحات.

وكان للقرآن الكريم نصيب وافر من ذلك الغزو العدواني، تُجنَّد له الأقلام والألسنة والإذاعات والقنوات الفضائية والكبتار (الكومبيوتر) والتواصل (الإنترنت) والمحمول (الموبايل) والكَترُون (الإيميل) وصفحة الكتاب (فسبُك) والمنافقون والمُرجِفون والروافض بكل حقد وإصرار، فتنهال عليه الهجَمات من كلّ حَدَب وصوب، محاولة النيل من قدسيته وبركاته.

---

(١) الآية ٢١٧ من سورة البقرة.

حتى لقد توجّه بعضها إلى رسم المصاحف الشريفة، وسمعنا محاضرة منذ عشرين سنة في بلد عربي لأحد المعارضين من الروافض المُرجفين عنوانها: « هل أصبح الرسم العثماني صَنمًا يُعبَد »؟ وقد تصدّى له العلماء يسفّهون رأيه وينعَون عليه عُنف القول ورُعونة التعبير.

وكذلك ما زالت تُصاغ عبارات العدوان وتُطرح، تَكشف عمق المعركة وسَعة أبعادها وعنف وسائلها الهدّامة، ﴿ ويأبَى اللّهُ إلّا أن يُتِمَّ نُورَه، ولَو كَرِهَ الكافِرُونَ ﴾،[١] وهو غالب على أمره وله جُند السماوات والأرض، ﴿ وما يَعلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إلّا هُوَ ﴾.[٢] فقد جَنّد لدفع تلك الهجمات رجالاتٍ مخلصين، يدرؤون الشُّبهات ويُنيرون سبل الحقائق للأبصار والأفئدة، ويدحرون كل معتد أثيم.

وهذا الرسم القرآني المتميّز بفضله وبركاته يقف أمام الزحف منذ عدّة قرون، رسّخته إرادة اللّه - جلّ وعلا - وأقرّته سُنّة النبي ﷺ، وحقّقته أيادٍ صحابية كريمة وأقلام طاهرة شريفة وعيون مُحبّة ثاقبة وقلوب مؤمنة تقية صالحة، بإشراف الخليفة الراشد عثمان رضي الله عنه وبتوجيه ربّاني كريم. والمراد به الأساليب الكتابية التي اعتمدتْها اللجنة المكرَّمة في تدوين المصحف الشريف، وأقرّها الصحابة الكرام رضي الله عنهم، وارتضاها أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه ثم نُسبت إليه.[٣]

تحقيق الأمينَين:

إذا رجعنا إلى تاريخ هذا الموضوع كان بين أيدينا في أوّل الأمر قول ابن عبّاس رضي الله عنهما: « ما أنزل اللّه عز وجل من السماء كتابًا إلّا بالعَربانيّة.[٤] وكان

---

(١) الآية ٣٢ من سورة التوبة.

(٢) الآية ٣١ من سورة المدثر.

(٣) انظر مباحث في علوم القرآن لمنّاع قطّان ص١٤٦.

(٤) كتاب اللغات في القرآن لابن عباس ص١٦، وكذلك جاء في بعض الكتب المنشورة. وانظر توجيه الصواب في البحر المحيط لأبي حيان ٥ : ٤٠٥ وروح المعاني للآلوسي ١٣ : ٢٦٨.

جبريل عليه السلام يترجم لكلّ نبيّ بلسان قومه ». والعَرَبانيّة هي العربيّة البالغة أعلى مراتب الفُصحى. لكنّ الناشر الكريم - وهو يدّعي أنه شيخ المحقّقين في الشام والعرب ويوصف أنه من شوامخهم - قد استغلق عليه هذا اللفظ، فصحّفه بأن جعله: « بالعِبرانيّة »، مع أن ما ذكره عن الأصل المخطوط في حاشية المطبوعة أشبهُ بما ذكرنا. وهذا منه خطأ فاحش وتشويه استشراقي يفسد الحقائق والتاريخ ويهوّد العالَمِين، ويؤرّث النقمة والعدوان على العروبة والإسلام.

وإنّما جاء هذا القول النصّيّ عن ابن عبّاس بيانًا لِما رَوى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ من القول: « والَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ، ما أنزَلَ اللّهُ وَحيًا قَطُّ عَلَى نَبِيٍّ بَينَهُ وبَينَهُ إلّا بالعَرَبِيّة، ثُمَّ يَكُونُ هُوَ بَعدُ يُبَلِّغُهُ قومَهُ بِلِسانِهِ ».[١] فالقرآن الكريم، شأن الكتب الربانيّة جميعِها، هو بعُروبة اللسان البالغة من الفُصحى في قِدَمه، نزلَ به رسولُ الوحي الأمينُ جبريل على قلب محمّد الأمينِ ﷺ.

وهذه العُروبة الكريمة العُليا للكتاب العزيز كانت بين الأمينَينِ وسيلة التبليغ والتلقّي خلال ثلاث وعشرين سنة، يتخلّلها في كلّ رمضان مقابلة بينهما لِما أُوحِيَ قبله. فقد أخرج الإمامان البخاري ومسلم واللفظ للأوّل، في رواية مُسندة موثّقة عن أُمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها قالت:[٢]

إنّ النبي ﷺ دعا السيدة فاطمة رضي الله عنها في مرضه الأخير، ثُمَّ أَسَرَّ إلَيها حَدِيثًا فبَكَتْ، فقالَ لَها: « لِمَ تَبكِينَ »؟ ثُمَّ أَسَرَّ إلَيها حَدِيثًا فضَحِكَتْ... حَتَّى إذا قُبِضَ النَّبِيُّ ﷺ فسألتُها فقالَت: أَسَرَّ إلَيَّ: « إنَّ جِبرِيلَ كانَ يُعارِضُنِي القُرآنَ كُلَّ سَنةٍ مَرّةً، وإنَّهُ عارَضَنِي العامَ مَرّتَينِ. ولا

(١) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي ١٠ : ٥٣ والمعجم الأوسط للطبراني ٥ : ٤٧ وأحاديث مختارة للذهبي ص٢٥ والدر المنثور للسيوطي ٤ : ٧٠ وعمدة القاري للعيني ١ : ١٣٥ و٣٩ : ٦٢.

(٢) صحيح البخاري ص١٣٢٦ - ١٣٢٧ في الحديث ذي الرقم ٣٤٢٦ وصحيح مسلم ص١٩٠٥ - ١٩٠٦ في الحديث ذي الرقم ٢٤٥٠. وانظر البحث الأدبي لشوقي ضيف ص١٥٠. والمعارضة هنا تعني المقابلة في القراءة عن ظهر قلب.

أُراهُ إلّا حَضَرَ أَجَلِي. وإنَّكِ أَوَّلُ أهلِ بَيتِي لَحاقًا بي »، فبَكَيتُ، فقالَ: « أما تَرضَينَ أن تَكُونِي سَيِّدَةَ نِساءِ أهلِ الجَنَّةِ، أو نِساءِ المُؤمِنِينَ »؟ فضَحِكتُ لِذلِكَ.

وفي هذا الحديث الشريف أحداث واقعية لأوّل تحقيق نادر المِثال في التاريخ الإنساني، إذ يَعرِض النبي الأمين على جبريلَ الملَكِ الأمين عليه السلام كلَّ رمضان ما كان أُنزل قبله من نصوص القرآن الكريم، لا ليتحقَّق صحةَ لفظ آياته الكريمة، إذ هي صحيحة محفوظة بدقة وإتقان وكفالة من الرحمن: ﴿ إنَّ علَينا جَمعَهُ وقُرآنَهُ ﴾،[1] بل لِيتبيَّن للناس أسلوبُ التوثيق والتحقيق المثالي عمليًّا بالمقابلة والعِراض مرارًا، ولِيتحقَّق لديهم كمالُ وحيِ الكتاب العظيم وتبليغِه، فلا يعرِضَ لأحد منهم شكٌّ في أنه قد بُولغتْ في تلقّيه وتقبُّله وحفظه مبالغاتٌ فائقة، ونُقل إلى البشرية بأعلى وسائل الرواية والتوثيق، ثم تمّ ترتيب سوره وآياته في العَرضة الأخيرة بمراعاة ما كان قد نُسخ أو بقي فيما مضى.

وليس قبل هذا الحدَث العظيم ولا بعده نصٌّ، عرَضَه فرد واحد أمين على ناقله الأمين بضع مرات بلفظه المحقَّق، بلهَ أن يكون عرَضه بضعًا وعشرين مرة.[2] ولذا جعلنا وقوع هذه العروض نموذجًا رائدًا، وشكلًا فريدًا في التاريخ الإنساني، يُطمْئنُ البشر إلى صحة التبليغ، ثم هو يُعلّمهم أساليب التحقيق الموثَّق المتقن بالغَ الإتقان. وقد كان في تلك المعارضات ما لا يعلمه إلّا اللّٰه - تعالى - من أحداث وأقوال، توجّه إلى صور من الضبط للقراءات الصحيحة التي عرفها تاريخ القرآن الكريم.

قال رسول اللّٰه ﷺ[3]: « أقرأنِي جِبرِيلُ علَى حَرفٍ واحِدٍ، فلَم أزَلْ

---

(١) الآية ١٧ من سورة القيامة.

(٢) إذا كانت المعارضة هنا تعني قراءة كلّ من الجانبين، كما هو معروف في العلوم الإسلامية، أصبح العدد ضعف ذلك.

(٣) صحيح البخاري في الحديث ذي الرقم ٣٠٤٧. وانظر جمال القراء وكمال الإقراء لعلم الدين =

أستَزِيدُهُ حَتَّى انتَهَى إلَى سَبعَةِ أحرُفٍ ». والمرادُ بالأحرف هنا ما ورد من قراءات صحيحة مختلِفة في اللفظ أو الصيغة أو التصويت أو التركيب، ولفظُ السبعة يعني التكثير للقراءات لا تعيين العدد. وهي توقيف أي: تعليم من جبريل للنبي عليه السلام في العرَضات المتعدّدة، وتوقيف من النبي ﷺ للصحابة الكرام رضي الله عنهم،[١] رُويت أُذُنًا لِفم بالتلقّي والضبط والعدالة والثقة التوامّ الكوامل.

وأصبحتْ هذه القراءات المذكورة كالنُّسخ المختلفة رواياتٍ متعدّدةً موثّقة، يمكن أن تكوِّن أوفاها متنًا للكتاب العظيم، والباقي منها ملحقًا له، بحيث تُستوفَى بمجموعها الصورةُ التامّة للأشكال القرائية التي ورد بها الوحي الكريم، ويكون بذلك تحقيق تامّ بالصورة التي وُضع عليها في جميع الأحوال. وهو تحقيق شفهي، كما ترى، متميّز بإجراء الأصول الأساسية لهذا العِلم الإسلامي العربي الشريف.

ثم إنّ هذا الحدث التاريخي الرائد غرس في نفوس الصحابة الكرام رضي الله عنهم السعيَ في متابعة الحقيقة من الأقوال، فصاروا إذا اختلفوا في قراءة رجعوا إلى النبي ﷺ يعرضون عليه ذلك، فيُقرّ ما هو صواب بأنه كذلك أُوحِيَ من عند اللّه، ويدفع ما كان من أوهام.[٢] وهذا أمر مشهور جدًّا، متداول في كتب تاريخ القرآن وعلومه، وهو تحقيق شفهي خالص أيضًا، ويكون فيه ما سُجّل بين أيدي الرسول ﷺ والصحابة، فيتحصّل مع الشفهية تحقيق كتابي كذلك.

وإذا تابعنا ذلك التاريخ المبارك رأينا أحداثًا أُخرى متوالية، للتحقيق العملي الموثَّق. فقد كان في عهد رسول اللّه ﷺ بضعة وأربعون كاتبًا للوحي يسجّلون ما

= السخاوي ص١٥٨ - ١٥٩.

(١) تفسير القرطبي ١ : ٤٢ - ٤٨ وروح المعاني ١ : ٣٨ - ٤٠ ومقالات في تاريخ القرآن لأبي عبد اللّه الزنجاني ص٥٠ و٥٧ وجمال القراء ص١٥٩ والمصاحف لابن أبي داود ص٣١ - ٣٢ والحديثان: ٣٠٨٦ في الترمذي و ٧٨٦ في أبي داود وفضائل القرآن ص٣٣ - ٣٤. وللعلماء بضعة وثلاثون قولًا في تفسير الأحرف السبعة، أصحُّها وأيسرها وأوفاها ما ذكرنا. واللّه أعلم بالصواب.

(٢) الحديث ذو الرقم ٦٥٣٧ في صحيح البخاري.

يوحَى كلٌّ بما تعلّم من الرسم في قبيلته مع حفظهم ذلك في الصدور. وأشهرهم الخلفاء الأربعة وسعيد بن العاصي والزُّبير بن العوّام وسعد بن أبي وقّاص وزيد ابن ثابت وعليٌّ بن أبي طالب وأبَيُّ بن كعب وحُذيفة بن اليمان ﷺ.[١] وكان أكثرَهم لزومًا للنبي ﷺ وكتابةً للوحي زيد بن ثابت والإمام عليٌّ ﵄.

قال زيد بن ثابت ﵁: « كنتُ أكتبُ الوحي عند رسول اللّٰه ﷺ وهو يُملي عليّ، فإذا فرغتُ قال: « اقرأْ »، أقـرَؤُه، فإن كان فيه سَقْط أقامَهُ ».[٢] وبذلك صار عنده - وهو أحفظ الصحابة للقرآن الكريم - مُصحف تامّ كتبه أخيرًا عن النبي ﷺ في العام الذي قُبض فيه، بعد العرضتَينِ الأخيرتَينِ اللتَينِ بُـيّـن فيهما ما نُسخ وما بقي، ثم قرأه عليه أيضًا وكان يقرؤه لنفسه حتى مات.[٣]

والمعروف في تاريخ القرآن الكريم أن كُتّاب الوحي كان كل منهم يسجّل القراءة التي تلقّاها بدقّة ووفاء، ويخطّها بالرسم الإملائي الذي يُتقنه من بيئته، وقد يكون فيه شيء نادر من علامات الإعراب والصرف والإعجام على غِرار ما في كتابات قومه، مع ما يمثّل بعض اللهجات العربية الخاصّة من القراءات الملقّنة. وبهذا تحصّل فيما سجّلوا تمثيل للقراءاتِ وتقاليدِ الكتابة واللهجاتِ والدلالات المختلفة، مع حفظهم ذلك في الصدور. وفي هذا أيضًا نُسَخ متعدّدة تُحيط بالنظم العظيم.

ثم إنّ هؤلاء الكَتَبة وآخرين كانوا، إذا أخذوا آية أو أكثر عن النبي ﷺ، يتردّدون عليه غيرَ مرّة ويتلون ما أخذوا أمامه، وقد يعرضون صوره عليه إطلاعًا وتبرُّكًا، ليقابلوا ما عندهم من المحفوظات في الصدور والسطور بما كان لديه من الوحي الكريم، حتى يزداد تثبُّتهم من تلقّيه وحفظه، ثم يسألونه: « هل حُفظ كما أُنزِل »؟ ليقرّهم عليه أو يصحّح لهم ما يقتضي التصويب. وبذلك تكون الإجازة الشرعية المقرّرة، وكل منهم ينشر ما حفظ، يعلّـمه

---

(١) مقالات في تاريخ القرآن ص٥٤.

(٢) أدب الكتاب للصولي ص١٦٥.

(٣) مقالات في تاريخ القرآن ص٥١ وتفسير القرطبي ١ : ٥٣.

الأولادَ وغيرهم ممّن لم يشهدوا النزول ساعة الوحي، فلا يمضي يوم أو يومان إلّا وما نَـزل مـحـفـوظ في صـدور الكثيرين وصُحفهم.

وكذلك كان يتوافد غيرهم إلى النبي الكريم ﷺ، يعرضون عليه ما حفظوا، أو يقرؤون القرآنَ بأمره،(١) وإذا اختلفوا في نصّ آية رجعوا إليه كما ذكرنا، يحتكمون ليتحقّق لديهم الصواب.(٢) وفي هذا صور متعدّدة قاطعة بالتحقيق الدقيق المتقَن شفهيًّا وكتابيًّا، لم نجد لـه نظيرًا في التاريخ أيضًا. وقد استـمـرّت هذه الإجراءات التطبيقية العملية خلال البِـعثة النبوية المشرَّفة، أي: عشرين سنة ونيّـفًـا.

وقد كان ممّن جمع القرآن مع حفظِه وعرضِه على النبي ﷺ أيضًا (٣) مُعاذ ابن جبل وأبو الدرداء وأبو زيد عمُّ أنس بن مالك وسعيد بن عُبيد ومجمّع بن جارية وأبو موسى الأشعري وقيس بن أبي صعصعة وسعيد بن المنذر وقيس ابن السكَن وسالم مولى أبي حُذيفة وعثمان بن عفّان وعُبيد بن معاوية بن زيد وعُقبة بن عامر وتميم الداري وعبد اللّٰه بن عَمرو ﷺ.

وقد تَثبّـتَ واستقرّ في هذه العمليات وما ذكرناه فيما مضى أصلٌ من أصول التحقيق، ولّدته الحضارة الإسلامية ونمّته حتى صار يعرف بـ« المُقابلة » المقرّرة أيضًا. وهي هنا أرفع مراتب المقابلات ممّا لا نظير له في حياة البشر كذلك، لأنه يُرجع فيه إلى عمل النبيّ الأمين الذي يحفظه عن جبريل الأمين أيضًا عليه السلام.

وقد حَفظ القرآنَ أيضًا النبيُّ ﷺ وأبو بكر وأُمّ ورقة بنت عبد اللّٰه ابن الحارث، وكان رسول اللّٰه ﷺ يزورها ويسمّيها الشهيدة رضي الله عنها. أمّا القُـرّاء وجامعُو المصاحف فكثيرون جدًّا يتعذّر إحصاؤهم، وإنّما يَعرف التاريخ

(١) مقالات في تاريخ القرآن ص٥٠.

(٢) الحديث ذو الرقم ٦٥٣٧ في صحيح البخاري وصحيح مسلم ٦ : ١٠٢ وتفسير القرطبي ١ : ٤٧ - ٤٩.

(٣) البرهان في علوم القرآن للزركشي ١ : ٢٤١ - ٢٤٣ والإتقان في علوم القرآن للسيوطي ١ : ١٥٤ - ١٦٠ والفهرست لابن النديم ص٣٠ ومقالات في تاريخ القرآن ص٥٣.

المدوَّن مَن كان مشهورًا منهم. فقد قُتل في حروب الرِّدّة يوم اليمامة سبعُمِائَة من القُـرّاء،[١] وكان قُتل في عهد النبي ﷺ ببئر معونةَ سبعون.

وقد جاء ما في مصاحف الصحابة الخاصّة من اجتهاد متفاوت في ضوابط التنسيق والرسم، خلال السنوات الثلاث والعشرين من حياة الوحي، يَـعرض الفرْقَ الكبير بين تلك الجهود الفردية الطيّبة للصحابة الأكارم[٢] وبين الجمع العلمي الجماعي المحقَّق الموثَّق الذي توجب أصوله الاعتمادَ على الإخراجة الأخيرة من الكتاب المقصود، والجمعَ في تضاعيفه أيضًا لـمـختـلِف القراءات الصحيحة. وإنّ صُوَر هذه المساعي الفردية المباركة ستبقى في نماذجها المتباينة أدلة علمية وشواهد مزكِّـية لِما خلَّده سجلّ العالَمِـين، من توثيق وتحقيق عمليَّين تاريخيَّين لأعظم كتاب عرفه الوجود الإنساني.

تحقيق الجمع الأوّل على عهد الصِّدّيق:

عندما استحرّ القتل في القُـرّاء والحُـفّـاظ يوم اليمامة واستُشهد منهم سبعمِائَة كما ذكرنا قبل، خشي الصحابة أن يذهب أشـيـاخ الـقـراءة، فنقل ذلك عمرُ بن الخطّاب إلى أمير المؤمنين أبي بكر رضي الله عنهما وطلب منه أن يَكتب القرآن، ولم يزل به حتّى أرى اللّهُ أبا بكر مثلَ ما رأى عمر، فاجتمع أمير المؤمنين بالـحَـفَـظَة في دار عمر وفيهم زيد بن ثابت رضي الله عنه يـتشـاورون في طريقة جمعه، ثم قال لـزيـد: « إنك رجل شابّ عاقل ولا نتّهمك. كنتَ تكتب الوحي لرسول اللّه ﷺ. فتتبّعِ القرآنَ فاجمعْه ».[٣]

كان زيد قد عرض القرآن على النبي العظيم ﷺ مرارًا ثم عرضه عليه بعد المُقابلتَين الأخيرتين مع جبريل عليه السلام ليأخذ الشكل النهائي للوحي، كما ذكرنا فيما مضى. ومن أجل هذا اختاره الخليفة الأوّل لجمع القرآن إذ ذاك، وقال

---

(١) تفسير القرطبي ١ : ٥٠.

(٢) انظر الفهرست ص٢٩ - ٣٠ وتاريخ اليعقوبي ٢ : ١٣٤ - ١٣٦ وتناسق الدرر في تناسب السور للسيوطي ص٦٨ - ٦٩ ومقالات في تاريخ القرآن ص٨٧ - ١٠٧.

(٣) المقنع ص٣.

لـه ولعمر بن الخطاب: اقعدا على باب المسجد. فمن جاءكما بشاهدَين على شيء من كتاب الله فاكتباه.[١]

ومن ثَمّ قام زيد مع عمر ﵄ يتتبّع الآيات، يجمعها مما سُجِّل في الصحف والجريد واللِّخاف والرِّقاع والأكتاف والأضلاع والعُسُب والظَّرر والخزف، وما حُفظ في صدور الرجال بالشهادات الشرعية، ليكون ما سيُجمع عينَ ما كُتبَ بين يدي النبي ﷺ لا مِن مجرّد الحفظ.[٢] وعلى هذا صار يُملي أبَيُّ ابن كعب ما يتلقّاه مُحققًا مشهودًا لـه ومُزكًّى، ويكتب زيدٌ الآيات الكريمة بالقراءات والرسوم والدلالات التي يتلقّاها مع ما فيها من الضبط، حتى صار لديه القرآن الكريم مُصْحَفًا منسّقًا في صُحف بين لوحَين.[٣] وقد بقيتْ هذه الصحف عند أبي بكر حتى تُوفِّي ثم عند عمر حتى وفاته، ثم صارت عند حفصة أُمّ المؤمنين ﵂.

أمّا منهج زيد في هذا التحقيق فهو أنّ الخليفة أمره بكتابته على الترتيب الذي تلقّاه هو ومن معه من الحفَظة عن الرسول الكريم، بنفس الألفاظ ونفس الصورة للآيات والسور في العرضة الأخيرة على جِبريل. ثم قام بلال ﵁ ينادي في المدينة بجمع الحافظِين والقِطَع التي فيها آيات كُتبت بمحضر رسول الله ﷺ وإملائه.

فصار زيد ومَن معه من الصحابة يتلقّون من الحافظ أو الكاتب أو مِن كِلَيهما ما يَرِد، مع شاهدَين عدلَين يشهدان بصحّته وأنه كُتب أو أُخذ عن

---

(١) الأحاديث: ٤٤٠ و٤٧٠٣ و٦٧٦٨ في البخاري و٣١٠٢ في الترمذي وتفسير القرطبي ١ : ٥٠ وروح المعاني ١ : ٤٠ - ٤١ وإكمال القراء ص١٦١ - ١٦٣.

(٢) فتح الباري لابن حجر ٩ : ١٧.

(٣) المقنع في معرفة مرسوم المصاحف للداني ص٢ - ٥ وتفسير القرطبي١ : ٥٠ والبرهان في علوم القرآن ١ : ٢٣٣ - ٢٣٤. والصواب أن المقنع فيه كتابان : الهجاء في المصاحف، والنقط. وكلاهما الآن بعنوان واحد هو: المقنع. انظر ص١٣ من مقدمته وص١٢٢ - ١٢٥ منه. واللخاف: جمع لَخْفة، حجارة بيض رقاق. والرقاع: جمع رُقعة. والأكتاف : جمع كتف. وهو عظم عريض. والعسب : جمع عَسيب. وهو جريد النخل نُزع عنه خوصه. والظرر : حجر لـه حد كحد السكين، جمعه ظِرار.

رسول الله ﷺ، ثم يشهد الصحابي أنه أخذه عن رسول الله ﷺ، بالإضافة إلى شهادة زيد ومن معه وهم حَفَظة أيضًا. وفي هذا نهاية في الضبط والتوثيق، مع التحقيق في صورتَيه الشفهية والكتابية: مُصحفِ زيد وشهادتِه وما جاء به الصحابي، بالإضافة إلى الشهادات منه ومن الآخرِينَ كذلك.(١)

وبهذا كله جُمعت في تاريخ القرآن العظيم أوّل نسخة تامّة كاملة، تضمّ النص الرباني مع أشكال متعددة من القراءات وأنماط الإملاء واللهجات العربية والضبوط المختلفة في الإعراب والصرف والإعجام. فهي نسخة كتابية محقَّقة موثَّقة، تتخلّلها تلك الأشكال والأنماط ضمن متنها، لا في الحواشي أو الهوامش كما اعتدنا في المخطوطات والمطبوعات، ثم بقيت آنذاك بعض القراءات محفوظة في الصدور بين القُرّاء، تُجمع في المرحلة التالية.

وبعد هذا نشطت كتابة المصاحف الفردية والجماعية في خلافة عمر ﷺ، فكان ابن مسعود يُملي على الناس في الكوفة ما عنده، ثم أصبح لأهل دمشق مُصحف عرضوه على حفَظة أهل المدينة، وكان لأحد المسلمين مُصحف بخط دقيق جدًّا لم يرضه أمير المؤمنين حينذاك.(٢)

تحقيق الجمع الثاني على عهد عثمان:

وفي عهد عثمان بن عفان ﷺ كثر الشُّهداء من القُـرّاء والحُفّاظ أيضًا، والمُصحف المتَّفق عليه وحيد في دار حفصة ﷺ، وظهر خلاف بين الناس في التلاوة، فجَمع الخليفةُ في المسجد اثني عشر صحابيًّا فيهم زيدُ بن ثابت وعبد الله بن عَمرو بن العاصي وعبد اللّـه بن الزُّبيـر وسعيـد بن العاصـي وعبد الله بن عبّـاس وعبد الرحمـن بن الحارث بن هشام ﷺ، ثم وَضـع بين أيديهم المُصحف الذي كان في حوزة حفصة ﷺ، وأمرهم أن ينسخوا منه

(١) العصر الإسلامي لشوقي ضيف ص٢٦ وكتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد ص٦ والبرهان ١ : ٢٣٧ وتناسق الدرر في تناسب السور ص٦٩ - ٧٣. وقد نشر هذا الكتاب الأخير باسم: أسرار ترتيب القرآن.

(٢) المصاحف لابن أبي داود ص١٣٧ و ١٥٥ - ١٥٧.

بشهادة الحُفّاظ والكَتَبة من الصحابة مَصاحفَ تجمع القراءاتِ الصحيحةَ، كما جاءت بتوقيف من رسول الله ﷺ في نسَق السُّوَر والآيات أيضًا.

وهكذا توافد الحُفّاظ والقُرّاء وكثروا، يُملي الآياتِ أفصحُ العرب سعيد ابن العاصي، ويكتبها أجودهم خطًّا زيد بن ثابت، والبقية شهود ضابطون، والخليفة مُشرِف على ذلك بنفسه يوجّه ويسدّد بإلهام الرحمن. وكانوا إذا اختلفوا في آية، وعلموا أنّ أحدًا قرأها أيضًا على الرسول الكريم ﷺ، أرسلوا إليه فيُجاء به ولو كان على بُعد ثلاثِ ليال، ويقال له: « كيف أقرأك رسول الله ﷺ آيةَ كذا وكذا »؟ فتكون شاهدةً موثِّقة ومحقِّقة، ويكتبون كما قال.

والقضية الجديدة بين أيدي القوم هي تعدُّد القراءات والرُّسوم واللهجات والدلالات. فكيف يكون استيفاء ذلك؟ لقد رأوا أن التحقيق الموثَّق يقتضي توزيعَ ذلك التعدُّد على أكثرَ من نسخة، وتجريدَ الحروف عمّا كان في بعضها من النَّقط والشكل،[١] للحِفاظ على جميع الصور والأنماط والقراءات.[٢] فكان لهم جُهد عظيم نقلَ إلينا الصُّوَر الخطّية المختلفة لِرسم الآيات بين بعض قبائل العربية حينذاك، فإذا هو وثيقة تاريخية لِكتاب الله ﷻ بقراءاته المتعدّدة ولِخلاف بعض اللهجات والإملاء والضبط.

وبذلك سجلوا بإجماع الأُمّة أربع نسخ، على الأشهَر، هي على غِرار ما كان في عهد النبوّة مفرّقًا وفي عهد أبي بكر مُصحَفًا وموزّعًا في الصدور والسطور، مع خلافات مخصوصة في الرسم بين النُّسخ تستوفي القراءات الصحيحة بلهَجاتها وصورها الإملائية ودلالاتها المعنوية، في أُسلوب من التحقيق الكتابي الجماعي. وإن كان خلاف بينهم في شيء من ذلك الرسم رجعوا فيه إلى لغة قريش، كما أمرهم الخليفة ﷺ. وهو شيء نادر جدًّا، نحوُ آخِر « التابوت »

---

(١) النشر في القراءات العشر ١ : ٧ والمحكم في رسم المصاحف للداني ص٣ وفتاوى ابن تيمية ١ : ٣١٩. وانظر رسم المصحف ص١٢٦.

(٢) النشر في القراءات ١ : ٧ و ٣١ - ٣٣. ولهذا كان من شروط القراءة الصحيحة موافقة الرسم لأحد المصاحف العثمانية.

بالتاء المبسوطة أو الهاء.[١]

قال أبو بكرِ بنُ العربي[٢]: « وكان نقل المُصحف إلى نُسَخه على النحو الذي كانوا يكتبونه لرسول الله ﷺ وكتابةِ عثمان وزيد وأُبَيّ وسواهم، من غير نقط ولا ضبطٍ [أي: إعرابيٍّ]، واعتمدوا هذا النقل ليبقى بعدَ جمعِ الناس على ما في المُصحف نوعٌ من الرِّفق في القراءة باختلاف الضبط ».

هكذا ألهمَ اللّٰه ﷻ الصحابة الكرام جمعَ القراءات الصحيحة المتعدّدة في نُسخ محدودة، بما وجّههم إليه من الرسم المبارك، فكان إعجازًا على إعجاز كما سنبيّن بعد، لا يتحصّل مثله لكتاب آخر، ثم وُزِّعت تلك المصاحف الشريفة، فأُرسلت إحداهنّ إلى الكوفة والثانية إلى البصرة والثالثة إلى الشام، والرابعة بقيت عند أمير المؤمنين عثمان ﷺ في المدينة المنوَّرة، ثم أُتلف ما بقي من متفرِّقات بين أيدي الناس مع مَصاحف للصحابة وغيرهم.[٣]

أضف إلى هذا أن النُّسخ المُرسلة كان مع كلّ منها قارئ مُتقِن، يعلّم الناس صحّة القراءة، مبالغةً في تحقيق القراءات وضبط الألفاظ والصيغ والتراكيب واستيضاح المعاني والمقاصد، إذ كانت المصاحف قد جُرّدت حروفها كما قلنا، فلم يبق فيها شيء من علاماتِ الإعراب والإعجام، أي: نَقطِ الإعراب الذي عمَّمه بعدُ فيها أبو الأسود الدؤلي (ت ٦٩)، ونَقطِ الإعجام الذي عمَّمه فيها نصر بن عاصم (ت ٩٠). وكان مُصحف عثمان بن عفان ﷺ

(١) المقنع ص٤ وأحكام القرآن لابن العربي ٤ : ٤٦٩ والبرهان ١ : ٣٧٦ وفضائل القرآن لابن كثير ص٣٩ ومناهل العرفان للزرقاني ١ : ٤٠١.

(٢) العواصم من القواصم مطبوعة الجزائر ٢ : ١٩٦ - ١٩٧. وانظر مناهل العرفان ١ : ٣٦٥ - ٣٧٣.

(٣) الأحاديث : ٣٣١٥ و ٣٦٥٢ و ٤٧٠٢ في البخاري والمقنع ص٧ - ٩ والمحكم في نقط المصاحف ص١٨ - ٢٣ وفضائل القرآن للقاسم بن سلّام ص٢٢ والبرهان ١ : ٢٤٠ والإتقان ١ : ٢٣٥ -٢٣٦ وجمال القراء ص١٦٤ - ١٦٥ ومناهل العرفان ١ : ٢٦٢ و٢٨٢ وتفسير القرطبي ١ : ٥١ - ٥٤ وروح المعاني ١ : ٤١ والفهرست ص٢٧ - ٢٨ ومقالات في تاريخ القرآن ص٧٧ - ٨٥ وكتاب السبعة لابن مجاهد ص٧ والعصر الإسلامي ص٢٧. وقيل : « إن المصاحف كانت خمسة، أو سبعة ». والله أعلم بالصواب.

بنُسخه الأربع يجمع صورةَ آخِرِ ما عُرض على النبيّ ﷺ عام وفاته، وعاش الخليفة الإمام يصلي بنسخته حتى استُشهد، وفيها وفي النسخ الثلاث الباقية ما يقرؤه الناس اليوم في المصاحف.(١)

وقد رُوي عن الإمام علي رضي الله عنه أنه كان يخاطب المُرجِفين الذين يتّهمون عُثمان رضي الله عنه فيما صنع، ويزجرهم بقوله: يا معشر الناس، اتّقوا اللّه، وإيّاكم والغلوَّ في عُثمان وقولَكم: « حرّاق المَصاحف ». فواللّه ما حرقها إلّا عن مَلأٍ منّا، أصحابَ رسول اللّه ﷺ. لو كنتُ الوالي وقت عُثمان لفعلتُ في المَصاحف مثل الذي فعل عُثمان.(٢)

وهكذا ثَبَتَتِ الصور النهائية للمصحف الشريف، بعد جهود عظيمة من الرسول الكريم والصحابة الأبرار، وانتهى أمر ما كان لدى بعضهم من مصاحف جُمعت على أنساق تخالف ما أقره النبي ﷺ في عامه الأخير. وقد وصف الإمام المُزَني هذا الإنجاز العظيم بقولـه: « أبى اللّه أن يكون كتاب كاملًا إلّا كتابُه ». وإنّما كان التحقيق في عهدَي أبي بكر وعُثمان رضي الله عنهما يعتمد ذلك الترتيب المقرَّر لأنه الصورة النهائية للقرآن الكريم، كما جاءت في العرضتَين الأخيرتَين بين الأمينَين: الرسول وجبريل عليهما السلام.

ومع هذا كله، فقد نقل إلينا التاريخ وصفَ صورِ بعضِ المصاحف المخالِفة عند الصحابة الكرام رضي الله عنهم. وهي تقدِّم نماذج من أحوال الخلافات التي كانت بحسب التلقي والكتابة، وتؤكّد أن ما جُمع في المصاحف العُثمانية هو الصورة المُثلى في التحقيق والتوثيق، لأنه اعتمد ما جاء في العرضتَين الأخيرتَين بين الأمينَين عليهما السلام، وهي جُمَّاع ما ثبتَ من التنسيق والترتيب واللفظ والمعنى، بعد ما كان في سنوات الوحي من نَسْخ أو تخصيص أو تعميم أو رُخَص ربانية كريمة.

---

(١) مقالات في تاريخ القرآن ص٥١.

(٢) تفسير القرطبي ١ : ٥٤ والمصاحف ص٢٢ ومناهل العرفان ١ : ٢٦٢ و٢٨٢ ومقالات في تاريخ القرآن ص٨٦.

وكان من محصِّلة تلك الجهود الكريمة في الرسم العثماني أن اصطلح علماء القراءات على لفظ يقابل مفهوم التحقيق، وجعلوه مِعيارًا للتقويم والتوثيق. ألا وهو القراءة الصحيحة، متواترة أو أحادية أو مشهورة. ومن شروطها أن توافق رسم أحد المصاحف العثمانية، وأن يكون سندها صحيحًا إلى منتهاه، أي: بنقل العدل الضابط الثقة المتقِن عن مثله في إسناد علمي مقرَّر، من غير شذوذ ولا علّة قادحة. وهذا يعني أن القراءة موثَّقة توثيقًا يقينيًّا، لا يَرِد فيه شيء من الاحتمال.

مسألة النَّقط للإعجام والإعراب:

زعم بعض العلماء والدارسين، خلافًا لِما ذكرناه من قبلُ فيما سجّله كتَبة الوحي، أن العرب ما كانوا يعرفون علامات الإعراب والإعجام قبل الإسلام،[1] وأن مسجَّلات القرآن الكريم في عهد النبوّة وصدر الإسلام بين أيدي الصحابة كانت خالية من ذلك. وحُجّة أكثرهم في هذا ما هو مشهور من أنّ الأُمّيّة التي عُرف بها العرب في سنوات الوحي وعَبّر عنها حديث شريف صحيح لا تَقبل تلك الظواهرَ الحضارية في الكتابة، وقد جاءت الكتابات الجاهلية والإسلامية خالية من ذلك، وأنّ العلاماتِ أنشأها أبو الأسود الدؤلي (ت ٦٩)، والنَّقطَ أنشأه نصر بن عاصم (ت ٩٠). ونحن نقف الآن إزاء هذه الشُّبَه، لنستعرض وجه الصواب فيها بعون الله – سبحانه – كما يلي:

١ – الأُمّيّة العربية:

الحقُّ أن هذا التعميم المذكور فيه نظر، ولم تكن الأُمّية التعليمية عامّة كما يتصوّرها الكثير من المؤرّخين والباحثين المفسدين: فلقد عُرف في

---

(١) انظر مناهل العرفان ص٤٠٨ وتاريخ القرآن الكريم ص١٧٩ ومباحث في علوم القرآن ص١٥٠ ورسم المصحف لغانم قدوري الحمد ص٢٣٣ – ٢٣٥ و٣٩١- ٤٨٣. ولقد زعم بعض المستشرقين والمستغربين أن القرآن كان خاليًا من الإعراب وأن النحاة هم الذين فرضوا ذلك فيه. فتأمّلْ.

الجاهلية من يتقن الكتابة والقراءة[1] بالعربية والفارسية واليونانية في دواوين الملوك وعند أمراء المناطق الحضرية،[2] وفي مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة والبادية دُوِّنت أشعار ومقولات وقصائد مطوَّلات،[3] وصل بعضها إلى بني أُميّة. وعندما[4] دخل خالد بن الوليد ﷺ الأنبارَ والحِيرة وعينَ التمر وجد فيها قومًا وصِبيانًا من العرب يتعلّمون الكتابة العربية، وفي الأديرة منهم من هو مشغول بالمخطوطات المدوَّنة. بل لقد كان في المدينة المنورة بالجاهلية كتاتيب، وبعض اليهود يعلّمون الصبيان فيها الكتابة، ولمّا جاء الإسلام كان فيها عدّة يتقنون ذلك.[5]

قال أحمد بن فارس، وهو عالم لغوي مشهور في أواخر القرن الرابع الهجري: « فإنّا لم نزعم أنّ العرب كلَّها مَدَرًا وحَضَرًا قد عرفوا الكتابة كلّها والحروف أجمعها. وما العرب في قديم الزمان إلّا كنحنُ اليومَ، فما كلٌّ يعرف الكتابة والخطّ والقراءة... وكان في أصحاب رسول الله ﷺ كاتبون، منهم أمير المؤمنين عليٌّ... ومن الدليل على عِرفان القدماء من الصحابة وغيرهم بالعربية كتابتُهم المُصحفَ على الذي يعلّله النحويون في ذوات الواو والياء والهمز والمدّ والقصر، فكتبوا ذوات الياء بالياء وذوات الواو بالواو، ولم يصوّروا الهمزة إذا كان ما قبلها ساكنًا ».[6]

هذا مع العلم أنّ العشرات والمئات، من الصحابة في المدينة المنورة وما

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه ٤ : ١٥٧ وصبح الأعشى للقلقشندي ٣ : ١٥.

(٢) دراسة في أدب المخطوطات العربية لنبيهة عبود ص٦ ودلائل التوثيق المبكر للسنة والحديث لامتياز أحمد ص١٥٥.

(٣) الخصائص لابن جني ١ : ٣٨٧ والاقتراح للسيوطي ص١٧١ والطبقات الكبرى لابن سعد ١ : ٦٨ وتاريخ الطبري ٢ : ٢٥٠ – ٢٥١ والفهرست ص٨ والفائق للزمخشري ١ : ٦٧٧ وسنن الدارمي ١ : ١١٥ – ١١٦. وانظر مصادر الشعر الجاهلي ص٦٨ – ٦٩.

(٤) تاريخ الطبري ٣ : ٣٧٥ ومعجم البلدان لياقوت رسم (نقيرة) و مصادر الشعر الجاهلي ص٥١.

(٥) فتوح البلدان للبلاذري ص٤٥٩ وتاريخ الطبري ٥ : ٤٢. وانظر رسم المصحف ص١٨ – ٤٧.

(٦) الصاحبي ص٣٦ – ٣٩. وانظر المفصل في تاريخ العرب لجواد علي ٨ : ١٠٨ – ٣٠١ والطبقات الكبرى ٤ : ٢٦٢.

حولها، قد جاؤوا إلى لَجنتَي تدوين المصاحف في عهدَي أبي بكر وعثمان بآلاف النصوص المسجّلة من الآيات الكريمة، إضافة إلى ما كانوا يحفظون في الصدور. وما قِصّةُ كتابة المعلَّقات على الكعبة في عهد كانت الجاهلية هي السائدة بين العرب وقِصّةُ صحيفة مقاطعة المشركين للمسلمين في مكّة بالأمر المجهول، كما أنّ الواحد من الكَمَلة في ذلك الحين هو الذي يتقن الكتابة والقراءة والعوم والرمي.

والحقّ أيضًا أن الكتابة العربية كانت معروفة من عهد عاد إذ كان لِهُودٍ ﷺ كاتب للوحي، وفي آثارهم الباقية شماليَّ حضْرَموت كتابات بالخط المِسماريّ.[١] وقد نَقل كاتبُ وحيِ النبيِّ هودٍ ذلك إلى اليمن مع هود عليه السلام والمؤمنين المهاجرين،[٢] فصار للكتابة هناك ضروب من التجويد والتحسين. ومن ثَمّ عرض ابن خلدونٍ لِما بعد ذلك من الأحقاب بعشرات آلاف السنوات قائلًا:[٣]

« كان الخطّ العربي بالغًا مَبالِغَه من الإحكام والإتقان والجَودة في دولة التبابعة، لِما بلغت من الحضارة والترف - وهو المسمَّى بالخط الحِمْيَري - وانتقل منها إلى الحِيرة لِما كان بها من دولة آل المنذر نُسَباءِ التبابعة في العصبية والمجدِّدين لمُلك العرب بأرض العراق. ولم يكن الخطّ عندهم من الإجادة كما كان عند التبابعة لِقصور ما بين الدولتين. ومن الحِيرة لُقِّنَه أهلُ الطائف وقريش، ومن حِمْيَرَ تعلمتْ مضرُ الكتابة العربية. إلّا أنهم لم يكونوا مُجِيدين لها، شأن الصنائع إذا وقعت في البدو، فكان الخط العربي لأوّل عهد الإسلام غير بالغ إلى الغاية من الإحكام والإتقان والإجادة ولا إلى التوسّط، لمكان العرب من البداوة والتوحّش وبُعدهم من الصنائع ».

فثَمّ إذًا في الجاهلية تعلّم للقراءة والكتابة ومعلّمون ومتعلّمون ومجيدون

(١) قصص الأنبياء للنجار ص٥١. وانظر الألفاظ لابن السكيت ص٤٨٩.

(٢) المحكم في نقط المصاحف ص٢٦ وخطوط المصاحف عند المشارقة والمغاربة ص١٣.

(٣) المقدمة ص٥٥٧ - ٥٥٨. وانظر بلوغ الأرب للآلوسي ٣ : ٣٧٦ - ٣٧٩.

مجوّدون وغير مُحسنين، وثمّة أيضًا وسائل وآلات كثيرة للتسجيل، وخطٌّ للنساء متميّز عن خطوط الرجال،[١] والأمر ليس بالغرابة والنُّـدرة كما زعم كثير من المؤرّخين والباحثين المفسدين.

وفي حَـجَرٍ ظهر بمَسجد السّور عند قبر المَرِيِّين بعد سَيل جارف، رأى الناس كتابة قديمة جدًّا، نصها: « أنا أُسَيْد بن أبي العِيص، ترحّم اللّه على بني عبد مناف ». وهذا قُصيٌّ بن كلاب يرسِل في قديم الزمان خطابًا إلى أخيه من قِبل أُمّه - وهو رِزاح بن ربيعة - يدعوه إلى نُصرته على خُـزاعة وبني بكر في أمرِ ولاية مكّة،[٢] وذاك عبد المطلب بن هاشم يدعو عِدّة رجال من خُـزاعة إلى الكعبة الشريفة ليكتبوا كتابًا إلى أقاربَ له من قِبل أُمّه أيضًا بالمدينة، يطلب منهم المساعدة له في الحصول على ميراثه من أبيه. وقد وُجدت وثيقة بخطّه في جلد أدَم بخزانة المأمون، فيها حقُّ عبد المطلب بألف درهم فضّة كيلًا بالحديدة على رجلٍ حِمْيَري من صنعاءَ متى دعاه بها أجابه، كما ظهر في قصور الحِيرة ديوانٌ كان أمرَ النُّعمان بجمع أشعار الجاهلية فيه[٣] وقد رضي النبي ﷺ من أسرى بدر افتداءَ من يُحسن الكتابة نفسَه بأن يعلّمها عشَرةً من أولاد المسلمين.[٤]

والمعروف أن القراءة تردِف الكتابة وجوبًا، وكانت مرافقة لقرينتها هذه قبل الإسلام، ثم جاء الوحي الكريم بتعلّم القراءة مَن لا يكتب ولا يقرأ ما هو مكتوب أيضًا. وهو ظاهرة حضارية أنشأها الدين الحنيف فتُسجَّل له في التاريخ، وكان الرسول ﷺ أول من قام بها عندما أُمر أن يقرأ وقال: « ما أنا بقارِئٍ »، فكُرّر عليه الأمر حتى قرأ بإلهام من اللّه - تعالى - ثم جاءت بعده

(١) الفهرست ص٨.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١ : ١١٨ وتاريخ الطبري ٢ : ٢٥٦ والفهرست ص٨.

(٣) الخصائص ١ : ٣٨٧ والاقتراح للسيوطي ص١٧١ والطبقات الكبرى ١ : ٦٨ وتاريخ الطبري ٢ : ٢٥٠ - ٢٥١ والفهرست ص٨ والفائق ١ : ٦٧٧ وسنن الدارمي ١ : ١١٥ - ١١٦. وانظر مصادر الشعر الجاهلي ص٦٨ - ٦٩.

(٤) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى ٢ : ٢٢ من ثلاث طرق عن عامر الشعبي مرسلًا، وفي كل منها ضعف، لكنها بالتعدُّد تنجبر.

آلاف مؤلّفة من القرّاء الذين لا يُحسنون الكتابة ولا يعرفونها، وأشهرهم العُميان وهم أكثر من أن يحصَوا عددًا.

ثم انتشر نور الإسلام بين الناس، وأصبح تعليم الأجيال الكتابةَ حقًّا تربويًّا شرعيًّا على الآباء، إذ رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: « حَقُّ الوَلَدِ على الوالِدِ أن يُعَلِّمَهُ الكِتابةَ والسِّباحةَ والرِّمايةَ ».[1] ومِن ثَمّ تداعت أسوار الأُمّيّة واحدًا بعد الآخَر، وصار للتعليم مجالات مختلفة، تهيّئ سُبل الدرس والتحصيل. وما شياع الكتابة في أحكام التجارة والدَّين والعهود والعِتق بالأمر اليسير أو المجهول.

ولهذا ترى أن موضوع الكتابة من أفعال وأسماء ورد في القرآن الكريم أكثر من ثلاثمِائَةِ مرة مع ورود الأمر بها أحيانًا، للإشعار بأهمّيتها ووجوب استعمالها. وكان عمر ﷺ قد انتسخ بخطّه كتابًا من التوراة في عهد النبي ﷺ وأُمِر بإتلافه، ثم وقع يومَ اليرموك في يدَي عبد اللّٰه بن عَمرو بن العاصي زامِلتان أو عِدلان، فيهما نصوص من آثار ما حول التوراة والإنجيل، وكان يروي بعض ذلك في الأخبار المُسندة إليه.[2]

---

(١) الحديث رواه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول وأبو الشيخ بن حبان في كتاب الثواب وابن أبي الدنيا في كتاب الرمي، وفي سنده ضعف. وانظر السنن الكبرى ١٠ : ١٥ وشعب الإيمان ٦ : ٤٠١ وتلخيص الحبير لابن حجر ٤ : ١٦٦ ومختصر شرح الجامع الصغير للمناوي ١ : ٢٥٥ والتراتيب الإدارية ٢ : ٢٣٩ - ٢٤٠.

(٢) حديث كتاب عمر في سنده ضعف، أخرجه أبو يعلى الموصلي في مسنده وابن أبي حاتم في تفسيره والضياء المقدسي في مختاراته والهيثمي في الزوائد ١ : ١٨٢. وانظر فتح الباري ١٣ : ٦٤٢ - ٦٤٣. وقصة عبد اللّٰه بن عمرو أخرجها الإمام أحمد في فضائل الصحابة ١ : ١٠٣ ونعيم بن حماد في الفتن ١ : ١١٠ و ١١٥ وابن أبي عاصم في السنّة ٢ : ٥٤٨ - ٥٤٩ وفي الآحاد والمثاني ١ : ٧١ - ٧٢ و٩٦ وأبو عمرو الداني في السنن الواردة في الفتن ٥ : ٩٦١ - ٩٦٢ وابن أبي شيبة في المسند ١ : ٣٦٣ والطبراني في الكبير ١ : ٩٠ والهيثمي في الزوائد أيضًا ٩ : ٨٩ والحميدي في سننه ٢ : ٢٧١ وابن عمر العدني في كتاب الإيمان ص١٣١ والخليلي في كتاب الإرشاد ٢ : ٥٥٣ وابن منده في الإيمان ١ : ٤٥٠ والبخاري في الأدب المفرد ص٣٩١ ومسند أحمد ٢ : ١٦٢ و١٩٢ و١٩٤ و٢٠٢ و٢٠٩ والحديث ٣٥٠٠ في البخاري وفتح الباري ٦ : ٦٦١ - ٦٦٣ وعبد اللّٰه بن أحمد في كتاب السنة ١ : ٣٣٠ والمروزي في تعظيم قدر الصلاة والقضاعي في مسند الشهاب ١ : ١٣٢ وتفسير ابن كثير ١ :=

أضف إلى هذا أنه كان لدى العرب في الجاهلية ثلاثة أنواع من مجاميع الأزلام:[١] أحدُها يتكوّن من ثلاثة أزلام يتّخذها المرء لنفسه، مكتوبٌ على واحد منها: « افعلْ » وعلى الثاني: « لا تفعلْ » والثالث غُفلٌ بلا كتابة، والآخَرُ يتكوّن من عشَرة للمَيسِر، مكتوبٍ على كل منها القِسم الذي يجب على المرء ممّا نُحر لذلك، والآخرُ يتكوّن من سبعة في جوف الكعبة عند هُبل وعند كل كاهن من كهان العرب، يُحتكم إليها عند الكُهّان في الدِّيات والأنساب وأُمور المياه...

فهذه الأخبار والأحداث المشهورة، إضافة إلى تعلُّم زيد بن ثابت الكتابةَ والقراءة بالسُّريانية والعِبرية ووجود مترجمين عند النجاشي وملوك الفرس والروم يكتبون بالعربية وأمثالُ ذلك كثيرة في الكتب أو ذاكرة التاريخ، تجعل شيوع الكتابة في العصر الجاهلي ثم في عهد النبوّة أمرًا حقيقيًّا، يدفع ما انتشر بين الدارسين والباحثين المعاصرين من أُمّيّة ضاربة حينذاك.

وقد ظهرتْ آثار ذلك في العدد الغفير من كُتّاب الوحي المشهورين - وهم أكثر من ٤٠ - والمغمورين لا يَعلم عددَهم إلّا اللّهُ،[٢] وفي كَتَبة العهود والمواثيق والرسائل النبوية كأُبيّ بن كعب ومعاصرِيه، وهي أكثر من مِائَةِ كتاب[٣] منشورة في ثلاثة مجلدات تحت عنوان: « مَكاتيب الرسول ». وهذا يعني أن الصحابة كان منهم كثير ممّن يمارس الكتابة والقراءة، حتى إنّ بعض النساء - رضي الله عنهنّ - كُنَّ كذلك،[٤] ومنهنّ السيدات الكريمات: حفصة وأُمّ كُلثوم والشفاء بنت عبد الله - وهي معلّمة لحفصة - وعائشة بنت سعد وأُمّ سلمى وفاطمة بنت الخطّاب وخديجة وكريمة بنت المقداد... الأمر

= ٣٦٢ ودلائل التوثيق ص١٥٦ - ١٧٩. وفي هذه القصة تفصيلات بأخبار غيبية لا تصح.

(١) انظر تفسير البحر ٣ : ٤٢٤ - ٤٢٥ والمفصل في تفسير القرآن الكريم لفخر الدين قباوة ص٣٦٦.

(٢) انظر التنبيه والإشراف للمسعودي ص٢٤٦.

(٣) انظر الطبقات الكبرى ١ : ٢٥٨ - ٢٩١.

(٤) انظر الفهرست ص٨.

الذي يسّر لهم ولهنّ تقييد الأحاديث الشريفة كتابة بالمداد الأسود، مع حفظها في الصدور بالمداد الأبيض.(١)

ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أنه قد صار للمرأة أن تكون متعلّمة ومعلّمة. نعم كان قبل الإسلام في النساء سيّدات وأميرات وملكات وشواعر وفَوارس وراويات للشعر بين الناس. أمّا المرأة العالمة تجالس الناس لتتعلّم وتعلّم فشيء جديد عرفه تاريخ البشرية بظهور الإسلام، حتى أصبح منهنّ حافظات للقرآن الكريم كما رأينا من قبلُ وسنرى بعد، وفقيهات وراويات للحديث والعلم وشيخات يتلقّى عنهنّ العلماء والعالمات في المجالس الكريمة. وهذا الحافظ ابن عساكر له في العلوم الإسلامية ألف وثلاثمِائَة شيخ وثمانون شيخة.(٢)

٢ - حديث الأُمّيّة:

أمّا قول النبي ﷺ: « إنّا أُمّـةٌ أُمِّيّـةٌ، لا نَكتُبُ ولا نَحسُبُ. الشَّهرُ هكَذا وهكَذا وهكَذا » - وأشار بأصابعه - « والشَّهرُ هكَذا وهكَذا وهكَذا » يعني تمام ثلاثين،(٣) وقد فَتحَ كفَّيه الكريمتين بأصابعه العشر مرّتين حين ذكر القول الأوّل ثم عقد إبهامه في الثالثة، يشير بذلك إلى أن المراد ٢٩، ثم فتحهما ثلاثًا في القول الثاني دون أن يعقد الإبهام مشيرًا إلى العدد ٣٠، فقوله الشريف هذا يبيّن للمخاطَبين أن الشهر يكون كذلك في عدد أيامه، أي: إمّا ٢٩ يومًا وإمّا ٣٠.

ولقد اختلف العلماء في تفسير « نحنُ » من هذا القول الكريم، مع وضوح دلالة الأُمّيّة على الفَقر في الكتابة والقراءة والحساب، ولم يكن في ذلك

---

(١) تذكرة الحفاظ ١ : ٥ والسنة قبل التدوين ص٣٠٩ وسنن الدارمي ١ : ١٢٧ وتهذيب التهذيب ٣ : ٤٣٠. وانظر دلائل التوثيق المبكر ص١٦٨ و ٣٠٣ - ٣٠٧.

(٢) معجم الأدباء ١٣ : ٧٦.

(٣) الحديث ذو الرقم ١٠٨٠ في صحيح مسلم عن ابن عمر. وهو في صحيح البخاري تحت الرقم ١٨١٤. وانظر فتح الباري ٤: ١٥٩ وعمدة القاري ٩ : ٤٠ وصحيح مسلم بشرح النووي ٤ : ٢٠٧ ومسند أحمد ٢ : ٤٣ و٥٢ و١٢٢ و١٢٩.

الخلافِ ما يفيد الاحتجاج بالتعميم المشهور، ليتحصّل امّحاق العرب في المَيدان التعليمي. فقد ورد عن علماء الحديث، وهم أَولى بالفهم للنصوص النبوية، أنّ المراد بضمير الجماعة هنا هو شخصُ النبيّ ﷺ للتعظيم، أو جماعةُ قريشٍ أو العربِ، أو أهلُ الإسلام الذين بحضرته عند تلك المقالة وهو محمول على أكثرهم بالتغليب في التعبير.

ثم قيل في تفسير الأُمّيّة هنا أيضًا: إن العرب أُمّة لم تأخذ عن كُتب الأُمم قبلها، وإنما أخذتْ عمّا جاء به الوحي من الله ﷻ. وقيل: المراد أن العرب منسوبون إلى أُمّ القُرى. وقيل وقيل. ونحن قد جزمنا بالدلالة الظاهرة كما فسّرها القول الشريف بعبارة « لا نكتُب ولا نحسُب »، وبإشارات الأصابع لتحديد العدد، وسنرى تفسير ذلك فيما يلي.

فما دام في النص النبوي المشرَّف مثلُ هذا الخلاف في الفهم للَـفظين بين علماء الحديث وغيرهم فليس لنا أن نتخذ منه الرضى بالقول الشائع لتسويغِ تعميم الأُمّيّة على جميع العرب أو الإقرارِ بندرة القراءة والكتابة والحساب بينهم حينذاك، بل لا بد من بحث مستفيض يحرّر المسألة ويحقّق وصف حالة العرب حينذاك.

فلقد كان في إصرار بعض الباحثين والمؤرّخين على هذه التعميمات نظر من جهات، ولا يجوز أن يُقبل على عِلّاته، بل إنك لتجد في الواقع التاريخي من الأدلة ما ينقض محتواه أصلًا، ويقيّد كثيرًا من أبعاده ومداه، ويعيّن لك من دون شكّ أن المقصود هنا بالأُمّة الأُمّية: أهل الإسلام الذين بحضرة النبي ﷺ عندما ألقى قوله المطهّر ذلك. وهو مراد به عدم انتشار القراءة والكتابة للكلام والحساب، ومحمول على أكثرهم أيضًا لا على العموم لجميع المخاطَبين، ولا على أبناء العروبة قاطبة آنئذٍ في كل مكان.

والثابت أن الكتابة كانت معروفة بين العرب العاربة من عهد عاد، كما ذكرنا قبل. وقد نقل كاتبُ وحيِ النبيِّ هودٍ ذلك العِلم المعروف بين قومه قُبيل

نزول الهلاك بأكثرهم الكافرين، نقله إلى بلاد اليمن مع هود عليه السلام والمؤمنين المهاجرين،[١] ثم رحلت الكتابة مع أجيالهم بعد مئات القرون والعشرات إلى الشام والعراق وشماليّ إفريقية وشرقيّها في الهِجرات المعروفة من الجاهلية القديمة، وانتشرت بأشكال مختلفة من الخطوط، ثم كان لها توزّع في درجات متفاوتة بين المجموعات العربية، **ويمكنك أن ترسم خريطة لذلك تجعله في ثلاثة مستويات:**

أوّلها: شيوع الكتابة والقراءة في المدن والقرى والمناطق الحضرية، كمكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة وحواضر الشام والحِيرة واليمن والحبشة وشماليّ إفريقية، لدواعي التجارة والزراعة والعهود والرسائل وصكوك البيع والشراء والديون والرهن.

والثاني: قلّة ذلك في المناطق المحيطة بالمستوى الأوّل، وهي تضم البدو المقيمين في تلك البقاع والمخالِطين للحواضر في كثير من المعاملات.

والثالث: نُدرة ذلك في الصحارَى التي تضمّ الأعراب، يُكثرون التنقل والترحال طلبًا للماء والكلأ والغزو.

والدليل على ما ذهبنا إليه من هذا التوزّع أحداث تاريخية في عهد النبوة والراشدين. فالكتَبة للوحي الكريم هم من أهل مكة والمدينة أعانهم في ذلك مسجّلاتٌ كتابية قرآنية لأمثالهم من رجال القريتين والحواضر القريبة، وهم بالعشرات والمئات،[٢] جاؤوا بما كان عندهم في عهد النبوّة ليُجمع منه مُصحف أبي بكر وتُدوَّن المصاحف العثمانية رضي الله عنهما.

ثم ترى مجموعة كريمة من الصحابة والصحابيّات، عُرفت بكتابة الحديث أو العهود والمواثيق في عهد النبوّة أيضًا من تلك البقاع المذكورة،

---

(١) المحكم في نقط المصاحف ص٢٦ وخطوط المصاحف عند المشارقة والمغاربة ص١٣ وتاريخ الاحتجاج النحوي بالحديث الشريف لفخر الدين قباوة ص٦٩ - ٧٠.

(٢) تاريخ الاحتجاج بالحديث الشريف ص٦٩.

وعائشة الصِّدّيقة وفاطمـة الزهراء والإمام عليّ وذُرّيّتـه الشريفة وفاطمة بنت قيس وأسماء بنت عُميس وأبو هريرة وأُبيّ بن كعب وعبد اللّٰه بن مسعـود وأبو موسى الأشعـري وسلمـان الفارسـي وأسلم أبو رافع ومُعاذ بن جبل وسعد بن عُبادة وعبـد اللّٰه بن عبّـاس وجابـر بن عبد اللّٰه ورافـع بن خَدِيـج وكعب بن عَمرو وأنس بن مالك وعبد اللّٰه بن الأرقم وعبد اللّٰه بن عمرو ﷺ. ومن هؤلاء من كانت له صحائف وقراطيس حديثية مشهورة، تضم كلٌّ منها عشرات الأحاديث أو المئات.[١]

وهذا أبو شاهٍ اليمنيُّ، بعد أن سمع خُطبة النبي ﷺ عام الفتح في حُرمة مكّة المكرّمة، قال « اكتبوا لي، يا رسول اللّٰه » - يعني الخُطبةَ المذكورة - فقال الرسول الكريم لأصحابه مِن حوله: « اكتبُوا لأبي فُلانٍ ».[٢] وفي هذا ما يعني أنّ أبا شاهٍ وقومَه على صلة بالقراءة والكتابة. ولذلك طلب تقييد النص النبوي المشرَّف يحتفظ به لنفسه، ويبلّغ به من يلقاه.

ثم لا شكّ أن كُهّان العرب وأمثالهم من السَّدنة والموجِّهين حينذاك كانوا على خبرة وممارسة للقراءة والكتابة، وما يتعلّق بهما من توجيه وتعليم لمن حولهم أو يقرُب منهم. فلقد انتهى إلى أيدينا، من آثار العرب الأكّاديّين في العراق بعد السُّومريِّين الحاميِّين بقرون وقرون، تعويذةٌ يرجع تاريخها إلى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد، كما قيل، سَجّـلها كاهن وثنيّ ليعطّف امرأة ويُميل قلبها ويصرف جمالها إلى رجل يهـواهـا، مِن مدينة « كُوثَـى ».[٣] وهذه التعويذة محفورة في وَجهَـي رَقِيم من الفخّـار بالخطّ المِسماري،

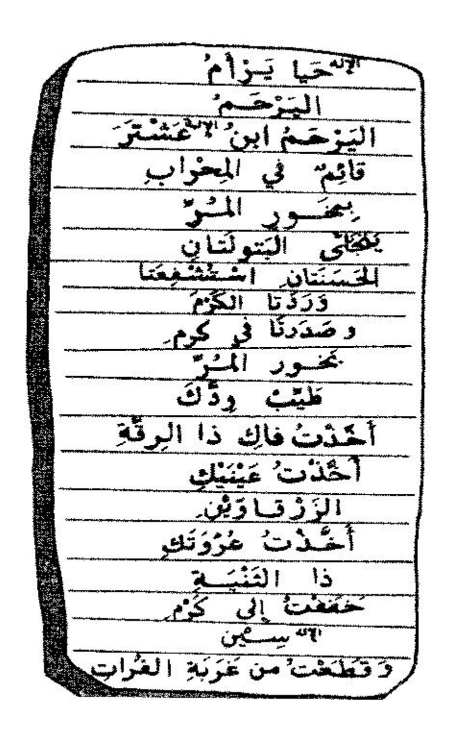
---

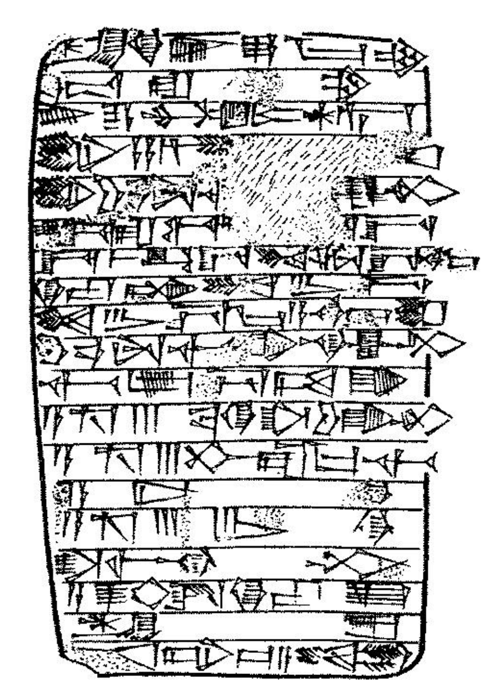
(١) انظر تاريخ الاستشهاد النحوي ص٧٣ - ٨٠.

(٢) الحديث ذو الرقم ١١٢ في صحيح البخاري. وانظر الإصابة ٧ : ٢٠٢ والاستيعاب ص١٦٨٧.

(٣) المدينة هي في العراق قربَ بابل، سمّاها المستشرقون : كِش أو كِيش. والظاهر أنها هي مدينة « كوثى » التي وُلد فيـها سيدنا إبراهيم ﵇ من السُّومريِّين الحاميِّين، قبل تاريخ هذه التعويذة الإرَمية بقرون وقرون. انظر أُخذة كش ص٧ - ٩٣. والأخذة : التأخيذة، أي: الـعُوذة أو التعويذة والرُّقْية والتَّميمة، شعبذة يضعها الكاهن أو الساحر برسوم وكتابات ليعطّف بين قلبين، أو لتَمنع بها المرأةُ الرجلَ عن غيرها، ويقال لها أيضًا: اليَنجلِب.

كتابته من اليسار إلى اليمين. وإليك صورتين لوجهه الأوّل أُولاهما بالكتابة المِسمارية المَقطعية، والثانية مقرَّبة استشراقية بخط الجزم العربي:





والنص المقطعي بحسب أسطره التسعةَ عشرَ هو: إل آنْ كِ إِرْ أ مَ أمْ / رَ أمْ / إِرْ أ مُ أُمْ دُمُ إل إنِّن / إنْ زَ ج إمْ أُشَ أ بْ / إنْ رُ أُخْ تِ جَ نَ أكْ تِمْ / أُ دَ رَ وَ أ رْ دَ دَ / دَ م إقْ دَ تُ أُخْ دَ نَ مَ / كِ رِ شُمْ تُ أُرْ دَ / تُ أُرْ دَ م أ نَ جِشْ كِـر / ر أُخْ تِ جَ نَ أكْ تِمْ / تِ إبْ دَ أدْ كِ / أ خُ أُزْ بَ كِ شَ رُ جَ تِمْ / أ خُ أُزْ بِ رَ مَ تِ / أ نِ كِ / أ خُ أُزْ أُرْ كِ / شَ شِ نَ تِمْ / أ أشْ خِ إبْ تُكِ رِ إشْ / آنْ زُ / أبْ دُجْ جِشْ أ تُ جَبْ لِشْ.

ومضمون هذه الكتابات المقطعية ما يلي:

اللّٰه الحيّ الرحمن الرحيم ابن السَّتّــار المُقيم في المِحراب يتجلّى بَبَـخُورِ صمغ المُرّ، ويحنّن العينين الجميلتين، لتَرِدا وُرودًا يطيّب عِشقكِ – في كرمِ بَخُورِ المُرّ. ملّـكتُ فاكِ ذا الرِّقّـة وعينيكِ الزرقاوَين وفَرجَكِ ذا

الثَّـنْية، وخففتُ إلى كرم ربّ القمر، وقطعتُ من غَـرَبةِ الفرات...

هذا مثال نقرّب به المسألة إلى الأذهان، يضاف إليه نظائره من مكتشفات آثارٍ كتابية بالخطوط العربية المختلفة، تضم مئات الألوف من النصوص[١] في الرُّقم وأوراق البَرْدي بالمدن العربية القديمة، من الجزيرة والشام والعراق ومصر والمغرب والحبشة، مثل: عَبلة أو إبلة « إبلا » وأغاريد « أُوغاريت » ومارية « ماري »، وكتابات الفراعنة والبربر وغيرهم، ثم ما خفي من نحو ذلك فهو أعظم. وليس من المعقول أن تصدر تلك النصوص الخطّية الوافرة عن شعب موسوم بالأُمّيّة، أو لا يعرف القراءة والكتابة منه إلّا ما ندر.

وهذه أيضًا بعض النصوص القصيرة، من لهجات عربية محلّية مستعجِمة مختلفة،[٢] نورد ما يقابلها في اللهجة العدنانية، لتتضح دلالات محتوياتها على ما نحن في صدده. ولا بدّ من الإشارة إلى أن تحديد القرون المذكورة هنا وفيما قبله لمثل هذه القضايا هو دسائس إسرائيلية فيها تقزيم للتاريخ العربي، فيجب مدّ تاريخها إلى ما قبل ذلك بعهود سحيقة.

فقد اكتُشف في شماليّ مدينة حلب أثرٌ إرَمي « آراميّ »، قيل: « إنه يعود إلى منتصف القرن التاسع قبل الميلاد »، وأُطلق عليه « نقش البريج »، ومضمون عبارته: النُّصُب هذا بناه ابن هدد ابن عتر ملك آرام، لسيّده لملك القرية الذي نذر له وسمع لقوله.

وعُثر في جزيرة سَردينية على نقش كنعاني قيل: « إن تاريخه القرن الثامن قبل الميلاد »، وجاء فيه: « العاصمة بيت رأس، رأسها بجزيرة سَردينية، سلامها سلام مدينة صور أُمّ مملكة نورى، ننسبها ونجيرها لفمي ». ومن نفس هذا القرن المذكور، اكتُشف قربَ مدينة حماة في الشام أثرٌ عُرف باسم

---

(١) انظر كتابنا علم التحقيق للمخطوطات العربية ص١٥٤.

(٢) انظر ملامح في فقه اللهجات العربيات لمحمد بهجت قبيسي ص٣٢٧ - ٣٢٩ و٢٨٠ - ٢٨٦ و ٣٣٧ و ٣٣٢ و٣٨٥ و ٣٧٨ و ٣٩١ و٣١٧ - ٣١٨ و ٣٧٧ وخط الجزم ابن الخط المسند لمحمد علي ما دون ص١٢١ - ١٢٧.

« نقش زكّور »، وأوّله: النُّصب هذا بناه زكّـور ملك حماة، ولعش لإلـٰه ورّ. أنا زكّـور ملك حماة.

وفي نقش بالبرازيل تاريخه ١٢٥ قبل الميلاد، جاء باللهجة البربرية الشلحية المغربية ما معناه: « ها نحن - بني كنعان - من مدينة فرنيم حملنا الحضارة. أليس حرامًا أن يحصل بنا هكذا »؟ وفي جنوب البتراء شمالَ شرقيِّ العقبة، حيث يقع جبل رمّ، ظهر من المستحاثات نقش بخطَّـيِ المسند والجزم، وبأبجدية نبطية تدمرية جاهلية، محتوى لفظه: قادَ عليٌّ جيشه، وانتهى بأرض تراض لكلاب، جيشُه عدا إلى مصر شطر الكوم، راعِ الرب.

واكتُشف سنة ١٩٦٥ ميلادية في تل أسيس، شرقيّ دمشق بمنطقة ديرة التلول، حجر منقوش بالخط النبطي يعود تاريخه إلى القرن الثاني قبل الميلاد، جاء فيه: « إبراهيم بن المغيرة الأوسي، أرسلني الحارث الملك على بني اليمن مسلحة سنة أوطس ». وقريب منه النقش المشهور باسم « شاهدة قبر امرئ القيس » في النمّارة، تاريخه سنة ٣٢٨ ميلادية، وجاء في مضمونه: هذا قبر امرئ القيس بن عمرو، ملك العرب كلها، الذي حاز التاج وملك الأسديِّين ونزارًا وملوكهم، وهرّب مذحج الرئيس، وجاء يزجي في حجج نجران مدينة شمر، وملك معدًّا ونزّل بنيه أرض الشعوب، ووكّـله الفرسُ والروم فلم يبلغ ملك مبلغه. هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ بكانون الأول. ليسعد الذي ولَـدَه.

فهذه الكتابات، وأمثالها كثيرة جدًّا غيرُ مكتشفة، تسجّلها العامّة والخاصّة بلهجاتها العربية المحلّية المستعجِمة، مضافةً إلى ما ذكرنا من النصوص العلمية والتاريخية في المستحاثات والأوابد الرَّقيمية والبَرْدي، تغيّر كثيرًا ممّا شاع وانتشر عن أُمّية العرب، وتوجب إعادة النظر في تلك المقولات عن مفهوم الجاهلية.

فقد حَصرتْ هذه الادّعاءات ذلك الفهم في الجهل العلمي، ثم دخل فيها

عموم الأُمّية، وتابعها على ذلك المستشرقون وأنصارهم، يجمعون الأدلّة الضعيفة المحدودة، ليثبتوا تلك المزاعم. ولو فُسِّرت الأُمّية على أنها الطيش والنـزق والجهل الديني كما ذكرتُ منذ عشرات السنين لكان الأمر أقرب إلى الواقع، وفيه شيء من الأُمّية العلمية طبعًا.

ثم هؤلاء أصول العرب العاربة قوم عاد وسلالاتهم فيما اتفق عليه المؤرخون شرقًا وغربًا بعد أن ثبَت بطلان تشكيك المستشرقين في ذلك[١] وآثارُهم في جنوبيّ الجزيرة العربية وغربيّها تمثل الدمار الذي أصابهم بالعذاب الرباني وفي بعضها كتابات بالخط المسماري.[٢] وقد كان أبناء المسلمين في عهد بني أُميّة يزورون تلك المناطق وينقلون منها بقايا الآثار، ويتخذون الثمينة منها للزينة.[٣] وفي القرن الماضي اكتُشفت آثار مدائن صالح وفيها الكتابات الثمودية مسجّلة بالخط المُسند الذي هو طور جديد للخط المِسماري وأُخرى بالخط النَّبطي وغيره.[٤]

ولـمّا مرّ المسلمون بديار ثمود في الحِجر وهم متوجّهون إلى الشام لغزوة تبوك نبّههم النبي ﷺ بقوله: « لا تَدخُـلُوا مَساكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أنفُسَهُم إلّا أن تَكُونُوا باكِينَ أن يُصِيبَكُم ما أصابَهُم »، ثم تقـنَّعَ بردائه وهو على الرَّحل. ولـمّا علم أنهم استقَوا، أي: أخذوا ماء، من بئر القوم واعتجنوا به أمَرَهم أن يُهَريقوا ما استقَوا وأن يَعلفوا الإبلَ العجينَ، وأن يستقوا من البئر التي كانت

---

(١) مروج الذهب للمسعودي ٢: ١١ - ١٦والمحبر لابن حبيب ص٣٨٤ و٣٩٥ والسيرة النبوية لابن هشام ١ : ٧ والكامل في التاريخ ١ : ٧٨ - ٨١ وتاريخ الطبري ١ : ٢٠٣ - ٢١٠ وتاريخ العرب القديم لتوفيق برو ص٦٤ - ٦٥ وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان ١ : ٤١.

(٢) قصص الأنبياء ص٥١. وقد خلّف من ذلك كلكامش ملحمتَه المشهورة في نص مديد، وحمورابي تشريعَه بهذا الخط في ٣٦٠٠ سطر.

(٣) انظر تهذيب الألفاظ للتبريزي ص٦٥٨ مطبوعة بيروت سنة ٢٠٠٥ وكتابنا مشكلة العامل النحوي ص٣٥ - ٣٦.

(٤) تاريخ العرب القديم ص٦٤ وخط الجزم ص٤٧ و١٣٨ و١٨٧ودائرة معارف القرن العشرين ٦ : ٢٢٧.

تَرِدُها الناقة.[١]

هذه وثائق تاريخية ثابتة، لا تحتمل الجدال والنظر، عن تلك القبائل القديمة التي هي كما ذكرنا من العرب العاربة، كانت قبل إبراهيم عليه السلام بألوف وآلاف من السنوات، لا يعلم عددها إلّا اللّٰه تعالى. ثم كان بعدهم ممن أُهلكوا بالدمار أيضًا أمثال قبائل: عَبلة أو إبلة (إبلا) وأغاريد (أوغاريت) ومارية (ماري).

فهؤلاء جاؤوا في عصور متأخّرة، وأولئك كانوا في العهود السحيقة قبل عصر التاريخ، وكلهم من العرب الأقحاح وآثار لغاتهم العربية مسجلة بأقلامهم في مئات ألوف النصوص والرُّقم الباقية حتى الآن. فقد نُشر بعض ما اكتُشف من ذلك فكان فيه مثلًا ٣٠٠٠٠ بالخط المِسماري مضى عليها ٥ آلاف سنة، و ١٥٦٩٧ نص بابلي مضى عليه ٤ آلاف سنة، و١٠٠٠٠٠ بابلي آخر تالية في الزمن. بلهَ ما اكتُشف في تلك المناطق المذكورة قبل.[٢]

على أنه قد ورد ذكر بعض تلك الأقوام العربية أيضًا منذ عشرات القرون والعشرات المتقدّمة على الميلاد، في آثار تاريخية مُعرقة في القِدم: أحدها أنه كان للنبي هود ﷺ كاتب وحي، وأن سرجون - وهو أول من أسس مُلكًا كبيرًا في بابل - كان قد حارب السُّومريِّين غيرَ العرب، ثم حارب بعض القبائل العربية، من ملوكة ومَجان ومَعان.[٣]

٣ - نصوص المُستحاثات:

أمّا النصوص التراثية العربية القديمة التي اكتُشفت في المناطق المختلفة من

---

(١) الأحاديث : ٣١٩٨ - ٣٢٠١ في البخاري و٢٩٨٠ و٢٩٨١ في مسلم. والعجيب حقًّا أن هذه الشواهد على نقمة اللّٰه واستئصاله للعصاة الكافرين تصبح الآن عند العرب والمسلمين مرتعًا للحفلات الداعرة وإشاعة الفواحش والمنكرات. أفليس في هذا تعريض الأمّة للبلاء والمحن والنكبات ونقمة اللّٰه أيضًا؟ ألا فليَتّعظ الغافلون.

(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ١ : ١٦ - ١٧ وملامح في فقه اللهجات العربيات ص١٣٣ وفقه اللغات السامية ص٦٧ - ٨١ وعدد حزيران لمجلة المختار عام ١٩٧٧. وانظر حقيقة السومريين ص٩٩ و١٠١ و١٠٣.

(٣) تاريخ اللغات السامية ص٢٤ وملامح في فقه اللهجات العربيات ص٧٠ - ٧١.

بلاد العرب وقد ذكرنا بعضها فهي كثيرة جدًّا، وغالبيتها باللهجات المستعجِمة كالنَّبطية وغيرها، وحروفها المتشابهة في الخط العدناني يختلف رسم بعضها عن بعض اختلافًا يمنع اللبس والاختلاط، بحيث لا تُحْوِج إلى نِقاط مميِّزة، وتُشير إلى أن ما كان معجَمًا في العدنانية مع نِقاط الإعجام منذ نشاته.[١]

وبما أن تلك النصوص المستحاثات جاءت على صخور أو حجارة أو ألواح فخّارية، فقد كان العرب يختصرون ما فيها من الكتابة لتيسير الحفر والرسم، فيحذفون منها المدود والحركات الإعرابية ونَقط الإعجام، لأن الدلالات البيانية بالرسوم المحدَّدة واضحة في السياق التعبيري، من نصوص يسيرة المقاصد لا تحتمل توجّهات متعددة. وهذا نراه بوضوح في رسالة النبي ﷺ إلى المنذر بن ساوَى العبدي عامل كسرى على البحرين:[٢]

ويمكنك أن تلاحظ فيها ضروبًا من إغفالِ كثير المدود والهمَزات وغيابِ بعض أحرف بعوامل النحت خلال القرون والسنوات والأيّام.

ثم إن ما كُتب على ورق البَرْدي جاء منه وثيقة يرجع تاريخها إلى سنة ٢٢ على

(١) انظر مصادر الشعر الجاهلي ص٢٥.

(٢) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ص١١٤ - ١١٥.

عهد عمر بن الخطاب ﷺ قبلَ ما ذُكر من عمل نصر بن عاصم في النقط، وهي مكتوبة باللغتين العربية واليونانية، وبعض حروفها العربية منقوط معجم كالخاء والذال والزاي والشين والنون. وقريب من هذا ما جاء في نقشين: أحدهما بقرب الطائف تاريخه سنة ٥٨ على عهد معاوية ﷺ، والآخر في حفنة الأُبَيِّض غربَ الفرات من العراق. فإن أكثر حروفهما التي تحتاج إلى نقط منقوطة معجمة كذلك،[١] الأمرُ الذي يعني تشابه الحالين قبلَ ما نُسب إلى نصر أيضًا.

والظاهر من بعض أقوال المؤرّخين القدماء والمتأخّرين اطمئنانهم إلى أن الحرف العربي كان مُعجَمًا منذ وجوده، كما ذكرنا فيما مضى قبل. يؤنسك بهذا أنه قيل لابن عبّاس ﷺ: « مِن أين تعلّمتم الهجاء والكِتاب والشَّكل »؟ فقال: « علّمَناه حرب بن أُميّة »، فقيل: « مِن أين عَلِمه حرب بن أُميّة »؟ قال: طارئٌ طرأ من اليمن.[٢]

فقد كان ذلك قديمًا في اليمن، ثم انتشر عن بني بَولان الطائيِّين الذين هاجروا إلى الأنبار. رُوي عن ابن عبّاس أيضًا: « أن أوّل من كتب بالعربية ثلاثة رجال من بَولان - وهي قبيلة سكنَتِ الأنبار - اجتمعوا فوضعوا حروفًا مقطّعة وموصولة، وهم: مُرامر بن مُرّة، وأسلم بن سِدرة، وعامر بن جَدرة. فأمّا مُرامر فوضع الصور، وأمّا أسلم ففصل ووصل، وأمّا عامر فوضع الإعجام »، أي: النَّقط المعروف.[٣]

على أن ما ذُكر هنا من روايتَي ابن عباس هو مؤنسٌ لا قاطعٌ في الحُكم، ولكنّ ثمة ما يشهد لصحّة مضمونه ويزكّيه في نصوص التاريخ. ومن ذلك أنه رُوِي عن ابن مسعود ﷺ (ت ٣٢) قولُه: « جَرِّدوا القرآنَ ليَربوَ فيه صغيركم

---

(١) مصادر الشعر الجاهلي ص٤٠ ورسم المصحف ص٤٥٩ - ٤٦٦.

(٢) مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم لأحمد بن مصطفى ١ : ٨٢. وينظر المزهر ٢ : ٣٤٩ وفتوح البلدان ص٤٧٦.

(٣) المصاحف للسجستاني ص٤٩ و ١١٧ ومفتاح السعادة ١ : ٨٢.

ولا ينأى عنه كبيركم »،[١] وقريب منه ما رُوي عن أمير المؤمنين الفاروق رضي الله عنه. وقد ذكر الزمخشري وغيره في تفسير ذلك أنه: « أراد تجريده عن النَّقط ». وهو يعني علامات الإعراب والإعجام معًا. وقد علّق الحاجّ خليفة على ذِكر النَّقط في تلك العبارات بقوله: « ولو لم يوجد في زمانهم لما صحّ التجريد منه ».[٢] أضف إلى هذا كله ما ذكره الفرّاء عن سُفيان بن عُيينة (ت ٩٨) من أنّ زيد بن ثابت (ت ٤٥) نقطَ على الشين والزاي من « ننشزها » أربعًا وكتب « يتسنّه » بالهاء،[٣] فكان مراده بالنَّقط علامات الإعجام. وكل هذا كان قبل ما ذُكر من صنيع أبي الأسود ونصر كذلك.

ولمّا عرض القلقشندي لِنَقط أبي الأسود المُصحفَ بالإعراب رجّح ما كان رَوى قبلُ عن ابن عبّاس، في صنيع البَولانيّين الثلاثة مع الإعجام أيضًا، ثم قال: « والظاهر ما تقدّم إذ يَبعد أنّ الحروف، قبل ذلك [يعني قبل زمن أبي الأسود ونصر] مع تشابه صورها، كانت عَرِيّة عن النَّقط إلى حين نقط المصحف ».[٤]

وهذا أبو عمرٍو الدانيُّ (ت ٤٤٤) يتحدّث عن نَقط المصاحف فيقول: « وإنّما أخلَى الصدرُ منهم [يعني الصحابة] المصاحفَ من ذلك ومن الشكل، من حيث أرادوا الدلالة على بقاء السَّعة في اللغات، والفُسحة في القراءاتِ التي أذِنَ اللّهُ – تعالى – لعباده في الأخذ بها، والقراءةِ بما شاءت منها. فكان الأمر على ذلك إلى أن حدث في الناس ما أوجب نقطها وشكلها ».[٥] أمّا ذِكرُه في مكان آخر أنّ العرب لم يكونوا أصحاب شكل ونَقط [٦] فمراد به

(١) غريب الحديث لأبي عبيد ٤ : ٤٦ – ٤٩ والفائق في غريب الحديث للزمخشري ١ : ٢٠٥.
(٢) كشف الظنون ص٧١٢.
(٣) معاني القرآن للفراء ١ : ١٧٢ – ١٧٣.
(٤) صبح الأعشى ٣: – ١٤٩. وانظر كذلك كتاب مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم ١ : ٨٠ والاقتضاب في شرح أدب الكتاب للبطليوسي ص٩٣ والمحكم ص٢٠ من المقدمة.
(٥) المحكم ص٣.
(٦) المحكم ص١٧٦ – ١٧٧. وانظر رسم المصحف ص٣٩٨.

عدم ملازمتهم لذلك، لا أنهم لا يعرفونه ليُتَّخذ حُجّة في تناقض مقولاته.

ثم ترى الإمام ابن تيمية (ت ٧٢٨) يذكر ما سُوِّغ للمسلمين من قراءات في الكتاب العظيم ويُتبعه بقوله: « إذا كان قد سُوِّغ لهم أن يقرؤوه على سبعة أحرف، كلُّها شافٍ كافٍ مع تنوّع الأحرف في الرسم، فلأن يُسوَّغ ذلك مع اتفاق ذلك في الرسم وتنوّعه في اللفظ أولى وأحرى. وهذا من أسباب تركهم المصاحفَ أول ما كُتبت غيرَ مشكولة ولا منقوطة، لتكون صورة الرسم محتمِلة للأمرين... وتكون دلالةُ الخط الواحد على كلا اللفظَين المنقولين المسموعين المتلوَّين شبيهةً بدلالة اللفظ الواحد على كلا المعنيَين المعقولين المفهومين. فإن أصحاب رسول اللّٰه ﷺ تلقَّوا عنه ما أمره اللّٰه بتبليغه إليهم من القرآن: لفظه ومعناه جميعًا ».[١]

بل إن ابن الجَزَري، وهو من جَهابذة عُلوم القرآن أيضًا، يقطع الشكّ باليقين فيقول في رسم المصاحف العثمانية: « وجُرِّدت هذه المَصاحفُ جميعُها من النَّقط والشكل، ليحتملها ما صحّ نقله وثبَتَ تلاوته عن النبي ﷺ، إذ كان الاعتماد على الحفظ لا على مجرّد الخطّ ».[٢]

وإنما أضاف قوله: « ليحتملها ما صحّ نقله وثبَت تلاوته عن النبي ﷺ... مجرّد الخطّ » لِيدفع احتمال التفسيرات الواهمة لعبارته الأُولى كما زعم مَن ذكَرْنا قبل ومن في عصرنا هذا من جَهَلة الأساتذة المدرّسين والدارسين، ولِيحدّد قصد الصحابة لاستيعاب القراءات الصحيحة بتجريد المصاحف الشريفة من النَّقط والشكل.

ولقد فصّل ذلك بكلام آخر حين قال: « ثم إنّ الصحابة ﷺ لمّا كتبوا تلك المصاحف جرّدوها من النَّقط والشكل، ليحتمله ما لم يكن في العرضة الأخيرة ممّا صحّ عن النبي ﷺ. وإنما أخلَوُا المصاحفَ من النَّقط والشكل لتكون

(١) الفتاوى ١ : ٣١٩.
(٢) النشر في القراءات العشر ١ : ١٦.

دلالةُ الخطّ الواحد على كلا اللفظَين المنقولين المسموعين المتلوَّين شبيهةً بدلالة اللفظ الواحد على كلا المعنيَين المعقولين المفهومين. فإن الصحابة - رضوان الله عليهم - تلقَّوا عن رسول الله ﷺ ما أمر الله - تعالى - بتبليغه إليهم من القرآن لفظه ومعناه جميعًا، ولم يكونوا ليُسقطوا شيئًا من القرآن الثابت عنه ﷺ ولا يمنعوا مِن القراءة به ».[1] وبهذا يكون قد حُقِّق كلامُ الإمام ابن تيمية، وقَطعتْ جَهيزةُ قول كل خطيب، وبقي النظر في شأن أبي الأسود ونصر.

أمّا نصر بن عاصم فإنما ذكر عنه المؤرّخون[2]: « أنه أوّل من نقط المصاحف »، وزعم حمزة الأصفهاني (ت ٣٦٠) أنّ الناس[3] قرؤوا المصاحف العثمانية « نيّفًا وأربعين سنة من زمان عُثمان إلى أيّام عبد الملك، فكثر التصحيف على ألسنتهم... فلمّا انتشر التصحيف بالعراق فَزِع الحَجّاج إلى كُتّابه وسألهم أن يضعوا لهذه الحروف المُشتبِهة علاماتٍ، فوضعوا النَّقط أفرادًا وأزواجًا وخالفوا بين أماكنها، بتوقيع بعضها فوق الحروف وبعضها تحت الحروف، فغَبَرَ الناس بعد حدوث النَّقط زمانًا طويلًا لا يكتبون دفترًا ولا كتابًا إلّا منقوطًا، فكان مع استعمالهم النَّقطَ يقع التصحيف، فأحدثوا الإعجام، فكانوا يُتبعون ما يكتبون بالنَّقط مع الإعجام. فإذا أُغفِل الاستقصاء على الكلمة، فلم تُوَفَّ الحقوقَ كلها من النَّقط والإعجام، اعتراها التصحيفُ »، وزاد الحسن ابن عبد الله العسكري بعد هذا: فالتمسوا حيلة فلم يقدروا فيها إلّا على الأخذ من أفواه الرجال.

---

(١) النشر في القراءات العشر ١ : ٤٥.

(٢) نور القبس المختصر من المقتبس لليغموري ص٢٣ وغاية النهاية ١ : ٤٥٤ والبلغة في تاريخ أئمة اللغة للفيروزابادي ص٢٧٤. وقيل : كان النقط من نصر ويحيى بن يعمر. نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة ص٥٨.

(٣) التنبيه على حدوث التصحيف ص٢٧ - ٢٨ وشرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف للحسن ابن عبد الله العسكري ص١٣. وانظر وفيات الأعيان ٢ : ٣٢ ورسم المصحف ص٤٥٤ - ٤٥٥.

والمراد بالإعجام هنا: إعجام الخط بالشَّكل، من باب العَضّ على الشيء لأنه فيه، فسُمّي إعجامًا لأنه تأثير فيه يدل على المعنى.[١] وأنت ترى هنا اضطراب الأصفهاني والعسكري في التفصيل، إذ جعلا علامات الإعراب محدَثة بعد نسبة نقط الحروف إلى نصر بن عاصم، وعبّر العسكري عن ذلك كله بلفظ التمريض: « يقال ». وهو ما لم يَقل به أحد فيما نعلم، فلا يؤخذ بما ذكرا جملة وتفصيلًا.

وأمّا جهود أبي الأسود في هذا الميدان فعبارات المصادر مُجمعة على نقل ذلك إلى رسم المصحف الشريف، ولا ترى فيها ما يدل على الإنشاء من دون سابق مثال في الكتابة العربية. وأنت تقرأ أنه لمّا شاع اللحن في القراءة قال أبو الأسود[٢]: « رأيت أن أبدأ بالقرآن »، وطلب من زياد بن أبيه (ت ٥٣) كاتبًا ذكيًّا يَعقل ما يقال، فأُتِيَ إليه به فقال له: « خُذِ المُصحفَ وصِبغًا يخالف لون المِداد، فإذا فتحتُ شفتَيَّ فانقطْ واحدة فوق الحرف، وإذا ضممتُهما فاجعلِ النقطة إلى جانب الحرف، وإذا كسرتُهما فاجعلِ النقطة في أسفله، فإن أتبعتُ شيئًا من هذه الحركات غُنّةً فانقط نَقطَين». فابتدأ بالمصحف من أوله حتى أتى على آخره بذلك.

ولا بدّ من الإشارة ههنا إلى أنّ الإعراب الذي أجراه أبو الأسود في المُصحف الشريف لم يكن مقصورًا على أواخر الكلمات المُعرَبة كما قَرّر وأشاع كثير من الدارسين للنحو واللغة وعلوم القرآن في العصر

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٤ : ٢٤١.

(٢) إيضاح الوقف والابتداء لابن الأنباري ص٢١ والمحكم في نقط المصاحف ص٧ و ٤٢ - ٤٣ ونور القبس المختصر من المقتبس ص٥ وأخبار النحويين البصريين للسيرافي ص١٢ ونزهة الألباء في طبقات الأدباء لأبي البركات بن الأنباري ص٩ ووفيات الأعيان لابن خلكان ٢ : ٥٣٧. وانظر كتابنا وظيفة المصدر في الاشتقاق والإعراب ص١٦٠ - ١٦١. وفي المقنع ص١٢٥ : ورَوينا أن المبتدئ بذلك كان نصر بن عاصم وأنه الذي خمّسها وعشّرها، وروينا أن ابن سيرين كان عنده مصحف نقطه يحيى بن يعمر وأن يحيى أول من نقطها. وأكثر العلماء على أن المبتدئ بذلك أبو الأسود، جعل الحركات والتنوين لا غير.

الحديث حتى الآن بما فهموا من عبارة المتقدّمين،[١] وكما صرحوا في كتب ومقالات ومحاضرات ومؤتمرات وندوات، تقليدًا لشيخهم[٢] في مقاصد تهديم النحو، وإنما شمل ذلك الإعرابُ ما هو معروف الآن بالصرف، أي: جمهورَ الحروف المكوِّنة للكلمات، من دون تمييز بين معرَب ومبنيّ، فضبطَها كما قال، وكان فيه أيضًا تحقيق لِـما يُعرف بإعراب الصِّيغة.

ولقد أوضح ذلك أبو عـمـرٍو الداني، حين عرض لنَقط أبي الأسود فقال: « فإذا ضبطـتَ قوله ﷻ: ﴿ الحَمدُ لِلّهِ ﴾ جعلتَ الفتحة نقطة بالحمراء فوق الحاء، وجعلت الضمة نقطة بالحمراء أمام الدال، وجعلت الكسرة نقطة بالحمراء تحت اللام وتحت الهاء. وكذلك تفعل بسائر الحروف المتحرّكة بالحركات الثلاث ».[٣]

فكل ما نصّ عليه العلماء في شأن أبي الأسود أنه « أوّل مَن نَقط المُصحف » أي: ضبطَه بالشكل،[٤] وليس فيه كما ترى ما يشير إلى إنشائه النَّقطَ من دون سابق مثال. هذا في حين أن ما ذكرناه، عن ابن عبّاس وابن مسعود وسُفيان بن عُيينة والفرّاء والزمخشري وابن العربي وابن الجزري والقلقشندي، صريحٌ في قِدم النَّقط والإعجام وحضورهما قبل صنيع أبي الأسود ونصر.

وكان هشام الكلبي (ت ١٥٠) قد أكّد ذلك بقوله: « أسلم بن خدرة أول من وضع الإعجام والنَّقط ».[٥] ولهذا كنتُ أذكر فيما صنّفتُه منذ سنوات أن أبا الأسود ونصر بن عاصم كان عملهما هو نقل النَّقط والإعجام وتعميمهما في ضبط المصاحف. أمّا ما جاء عن بعض العلماء من أن علامات الإعراب

(١) قال المرزباني في ختام ضبط أبي الأسود : وعمل الرفع والنصب والجرّ.
(٢) إحياء النحو لإبراهيم مصطفى ص٢١.
(٣) المقنع في معرفة مرسوم مصاحف أهل الأمصار مع كتاب النقط ص١٢٦.
(٤) إنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي ١ : ١٦ وبغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي ٢ : ٢٢ ونشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة ص٥٦.
(٥) المحكم في نقط المصاحف ص٣٥.

والإعجام كانت بعد عُثمان رضي الله عنه فهو صحيح لا يخالف ما ذكرنا، لأنّ المراد به حصوله في المصاحف بتجديد أبي الأسود ونصر وتعميمهما لِما كان معروفًا بين العرب، لا اختراعه وابتكاره في تاريخ اللغة.

بيد أن أحد المتأخّرين من الباحثين - وهو محمد عبد العظيم الزرقاني (ت ١٣٦٧) - فهم الموضوع على غير حقيقته متأثرًا قولَي الأصفهاني والعسكري، فذكر اختلاف المؤرّخين في الإعجام ثم زعم قوله: « واتفق المؤرّخون على أن العرب في عهدهم الأوّل لم يكونوا يعرفون شكل الحروف والكلمات فضلًا عن أن يَشكلوها. ذلك لأن سلامة لغتهم وصفاء سليقتهم وذلاقة ألسنتهم كل أولئك كان يغنيهم عن الشكل. ولكن حين دخلت الإسلامَ أُممٌ جديدة، منهم العَجم الذين لا يعرفون العربية، بدأت العُجمة تحيف على لغة القرآن. بل قيل: إن أبا الأسود الدُّؤَلي سمع قارئًا يقرأ قوله تعالى: ﴿ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾[١]، فقرأها بجرّ اللام من كلمة « رسوله »، فأفزع هذا اللحنُ الشنيع أبا الأسود وقال: عزّ وجهُ اللّٰهِ أن يبرأ من رسوله.

ثم ذهب إلى زياد والي البصرة حينئذ وقال له: « قد أجبتُك إلى ما سألتَ ». وكان زياد قد سأله أن يجعل للناس علامات يعرفون بها كتاب اللّٰه فتباطأ في الجواب حتى راعه هذا الحادث. وهنا جدَّ جِدُّه وانتهى به اجتهاده إلى أن جعل علامة الفتحة نقطة فوق الحرف، وجعل علامة الكسر نقطة أسفله، وجعل علامة الضمة نقطة بين أجزاء الحرف، وجعل علامة التنوين نقطتين ».[٢]

ولعل هذا الزعم هو الذي أوهم شيخَ المعاصرين لنا مِن دارس وباحث أن ينقل إلينا ما هو شائع اليوم بين الناس من التقوّل على أبي الأسود في موضوع نَقط الإعراب، ثم على نصر في نَقط الإعجام،[٣] دُون أن يبحث الموضوع

---

(١) الآية ٣ من سورة التوبة.

(٢) مناهل العرفان ص٤٠٦ - ٤٠٨.

(٣) بحوث في اللغة ص٣٥ ودور البصرة في نشأة الدراسة النحوية لزهير غازي زاهر ومجلة مجمع =

بتفصيلاته وما قيل فيه باستيعاب وتدقيق.

والحقّ أن قِدَم النَّقط كان مألوفًا قبل الإسلام، وحاضرًا في نفوس الجاهليِّين والإسلاميّين، فبدا في شعر الأوّلِين وحقّقه المتأخّرون في فهم تلك الأشعار. وهذا ما تراه في قول طَرَفة بن العبد وهو يُشبّه آثارَ الديار بما يُكتَب من الكلام تُزيِّنه نِقاط الإعجام، فتُحدّد كثيرًا من معالمه:[١]

كَسُطُورِ الرَّقِّ، رَقَّشَهُ ... بالضُّحَى، مُرَقِّشٌ يَشِمُهْ

ثم تراه في قول الأعلم الشَّنتَمَري (ت ٤٧٦) وهو يفسر البيت: « شبّهَ رسوم الرَّبع بسطور الكتاب. ومعنى: رقّشَه: زيّنه وحسّنه بالنَّقط ». وكذلك ذكر القالي أنه « يقال: رقَشتُ الكتابَ رَقْشًا ورقَّشتُه، إذا كتبتَه ونَقطتَه »، مستشهدًا ببيت طرفة وبيت لمرقّش الأكبر.[٢]

وهذا المعنى الذي يشمل الإعراب والإعجام تجده في تفسير العلماء للشعر القديم بمثل ذلك،[٣] الأمر الذي يحقّق وجوده في حياة العرب القُدمى بصورة مألوفة يستخدمها الشعراء كسائر المعلومات الاجتماعية الشائعة، ويفهمها جمهور العرب ثم علماؤهم بعدُ على حقيقتها. وإلّا كانت مقاصد الشعراء غريبة عن الناس أو تُفهم على غير ما أراد أصحابها، وهذا لا يقول به أحد.

بين الإعجاز والتوقيف والسُّنّة:

نخلص مما تقدّم إلى أنّ رسم المَصاحف العثمانية أخذ شكله التفصيلي باتفاق الصحابة الكرام وإقرار أمير المؤمنين عثمان ﷺ، وأصبح واجبًا على المسلمين اتِّباعه فيما يكتبون من مُصحَف بما كان من الاتفاق والإقرار. ولذلك أجمع العلماء على هذا الوجوب، وجاء عن الجمهور قولهم به كما

= اللغة العربية بالقاهرة ٢٣٣ : ٤ - ٥ ومباحث في علوم القرآن ص١٥٠.

(١) ديوان طرفة بن العبد شرح الأعلم الشنتمري ص٧٤. والرق: الجلد الرقيق يكتب فيه. ويشمه أي: يزيّنه ويجعله كالوشم في المعصم.

(٢) الأمالي ٢ : ٢٤٦.

(٣) الاقتضاب في شرح أدب الكتاب لابن السِّيد البطليوسي ص٩٣ - ٩٤ واللسان والتاج (رقش).

سنذكر بعد قليل.

وقد وصف بعض العلماء رسم المصحف بأنه مُعجِزٌ كلفظه،[١] وآخرون أنه توقيفي من النبي ﷺ وإجماعِ الصحابة، إذ كان للرسول ﷺ كتّاب يكتبون الوحي وقد سجّلوا القرآن بهذا الرسم وأقرّهم عليه.[٢] ومن ثَمّ فإن قول مَن قال: « إنّ الصحابة اصطلحوا على أمر الرسم المذكور » باطلٌ، لأن القرآن الكريم كُتِبت آياته في زمان النبي ﷺ وبين يديه، واطّلع على كثير منها بالسماع أو العِيان للمباركة كما ذكرنا.[٣]

أمّا إعجاز رسمه ففيه نظر، لأنه قد جاء النص القرآني بأكثرَ من آية في إعجاز لفظه وبيانه وما تضمّن من العقيدة والشريعة والعبادة والمعاملات والعلوم والمعارف الحقيقية عن أحوال الدنيا والآخرة، ولم يَرِد شيء من ذلك فيه ولا في السنّة المشرّفة بإعجاز الرسم، فالحُكم بهذا الإعجاز الربّاني يحتاج إلى دليل. نعم لك أن تقول: إنه إعجاز إنساني كما سترى، لأنّ الصحابة الكرام رضي الله عنهم جمعوا في بِضع نسخ من كتاب واحد كلَّ القراءات الصحيحة، حين جرّدوا الرسم من علامات الإعجام والإعراب، وهو جمع ليس له ولن يكون له نظير في تاريخ البشرية.

وأمّا التوقيف فقد عرض له العلماء، ونصّ عليه أبو عمرو الداني بقوله[٤]: « فإن سأل سائل عن السبب الموجِب لاختلاف مرسوم هذه الحروف الزوائد في المصاحف قلتُ: السبب في ذلك عندنا أن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه لمّا جمع القرآن في المصاحف ونَسَخها على صورة واحدة، وآثر في رسمها لغة قريش دون غيرها ممّا لا يصحّ ولا يثبت، نظرًا للأُمّة واحتياطًا على أهل

---

(١) الإبريز لأحمد بن المبارك ص٥٥ - ٥٦. وانظر مباحث في علوم القرآن ص١٤٧.

(٢) مناهل العرفان ١ : ٣٧٠ وتاريخ القرآن لمحمد طاهر الكردي ص١٠١ وسِجِلّ (أرشيف) ملتقى أهل التفسير ٦ : ١ : ١٠ و١٣٣.

(٣) سِجِلّ ملتقى أهل التفسير ٦ : ١ : ١٣٣.

(٤) المقنع ص١١٥.

المِلّة، وثبت عنده أنّ هذه الحروف من عند الله ﷻ كذلك منزلةٌ ومن رسول الله ﷺ مسموعةٌ، وعلم أنّ جمعها في مصحف واحد على تلك الحال غير متمكّن إلّا بإعادة الكلمة مرتّين، وفي رسم ذلك كذلك من التخليط والتغيير للمرسوم ما لا خفاء به، ففرّقها[1] في المصاحف لذلك فجاءت مثبتة في بعضها ومحذوفة في بعضها، لكي تحفظها الأُمّة كما نزلتْ من عند الله ﷻ وعلى ما سُمعت من رسول الله ﷺ ». ومن ثَمّ فالرسم العثماني أمر توقيفي، بوحيٍ من الله - تعالى - وسماعٍ وتوجيه من رسوله ﷺ.

روى البيهقي عن زيد بن ثابت في رسم القرآن أنّ ما جُمع في الصُّحف ثم في مصاحفَ بإشارة عثمان بن عفّان كان على ما رَسم المصطفى ﷺ،[2] ونقل ابن المبارك عن شيخه عبد العزيز الدبّاغ أنه قال له: « ما للصحابةِ ولا لغيرهم في رسم القرآن ولا شعرةٌ واحدة، وإنما هو توقيف من النبيّ، وهو الذي أمرهم أن يكتبوه على الهيئة المعروفة بزيادة الألف ونقصانها لأسرار لا تهتدي إليها العقول، وهو سرّ من الأسرار خصّ اللّهُ به كتابه العزيز دون سائر الكتب السماوية. وكما أنّ نظم القرآن مُعجِز فرسمه أيضًا مُعجِز ».[3] وعلى هذا ترى أن النظم مُعجِز رباني، والرسم مُعجِز إنساني بتوجيه النبوّة وتسجيل الصحابة الأكارم، كما ذكرنا من قبل.

ولذا صار في النفوس وجوب اتّباع الرسم العثماني. قال أشهب بن عبد العزيز المصري: سُئل مالكٌ عن كتابة المُصحف: أترى أن يُكتب على ما أحدث الناس من الهجاء اليوم؟ فقال: « لا أرى ذلك. ولكن يُكتب على الكِتْبة الأُولى». رَوى ذلك أبو عمرٍو الداني،[4] ثم قال: « ولا مُخالف له في

(١) هذه الجملة هي جواب الشرط « لمّا » اقترنت بالفاء لبُعده.

(٢) شعب الإيمان ١ : ١٩٥. ومع هذا فقد أنكر بعض الباحثين التوقيف. سِجلّ ملتقى أهل التفسير ٦ : ١ : ١٣.

(٣) مباحث في علوم القرآن ص١٤٧.

(٤) المقنع ص٩ - ١٠ و ٢٨ ومباحث في علوم القرآن ص١٤٨.

ذلك من علماء الأُمّة »، وقال في موضع آخر: « سُئل مالك عن الحروف تكون في القرآن مثل الواو والألف، أترى أن تُغيَّر من المُصحف إذا وُجِدت فيه كذلك؟ قال: لا ». قال أبو عمرو: « يعني الواو والألف المزيدتين في الرسم لمعنًى المعدومتين في اللفظ نحو الواو في: أولئك... ونحو الألف في: لن ندْعوَا... وكذلك الياء في نحو: نَبإِي المُرسَلين ».

وقال الإمام أحمد: « تحرُم مخالفة خطّ مصحف عُثمان في واو أو ياء أو ألف أو غير ذلك »،[1] وقال أبو بكر البيهقي (ت ٤٥٨): « مَن كتب مُصحفًا فينبغي له أن يحافظَ على الهجاء التي[2] كتبوا بها تلك المَصاحف، ولا يخالفَهم فيها ولا يغيّرَ ممّا كتبوه شيئًا. فإنهم كانوا أكثر علمًا وأصدق قلبًا ولسانًا وأعظم أمانة منّا. فلا ينبغي لنا أن نظنّ بأنفسنا استدراكًا عليهم ولا سَقَطًا لهم ».[3] هذا مذهب علماء الشريعة، وكذلك قول جماعة من أهل اللغة. قال أبو البقاء العُكبَري (ت ٦١٦): « وقد ذهب جماعة من أهل اللغة إلى كِتاب الكلمة على لفظها إلّا في خط المُصحف. فإنهم اتّبعوا في ذلك ما وجدوه في الإمام ».[4]

ثم إنّ ما ذكرنا قبلُ، من أن كَتَبة الوحي كانوا إذا أخذوا آية أو أكثر عن النبي ﷺ يعرضون عليه بعض ذلك قراءة أو إراءة لتحقيق ما سجّلوا، ويتردّدون عليه أحيانًا ويتلون ما أخذوا أمامه ويعرضون صوره عليه تبرّكًا واطمئنانًا، ليقابلوا ما عندهم من المحفوظات في الصدور أو السطور بما كان لديه من الوحي الكريم، حتى يزداد تثبّتهم من تلقّيه وحفظه، ثم هم يسألونه: « هل حُفظ كما أُنزل »؟ فيجيبهم بما هو يناسب عرضَهم ذلك، إنّ هذا كلّه نصٌّ على أن رسول الله ﷺ كان قد رأى مرارًا تلك الرسوم وسمعها وأقرّها،

---

(١) البرهان ١ : ٣٧٩ ومناهل العرفان ١ : ٣٧٩.

(٢) كذا بالتأنيث على جعل الهجاء بمعنى التهجية.

(٣) شعب الإيمان ٢ : ٥٤٧. وانظر البرهان ١ : ٣٩٧.

(٤) اللباب في علل البناء والإعراب ٢ : ٤٨١. وانظر البرهان ١ : ٣٧٦.

وإقرارُه الشيءَ بالتكرار الكثير حُكمه السنّة كما هو معلوم. ولا يُشترط في ذلك معرفته للجزئيات وتفصيلاتها ليُدَّعَى أنه لا يَعلم القراءة للمسجّلات أو الكتابة. ثم لو كان فيما أطلعوه عليه شيء غير مناسب للحقيقة لألهمه اللّٰه ما فيه، أو بلّغه بالوحي ما يلزم من الصواب.

فإذا أضفتَ إلى ذلك أنّه جاء في الحديث الشريف قوله ﷺ: « مَن يَعِشْ مِنكُم فسيَرَي اختِلافًا كَثِيرًا. فعلَيكُم بسُنّتِي وسُنّةِ الخُلَفاءِ الرّاشِدِينَ المَهدِيِّينَ، عَضُّوا علَيها بالنَّواجِذِ »،[١] وأنّ عمل الصحابة ﷺ هو جزء من السُّـنّـة أيضًا كما ذكر بعض العلماء، تحقّق عندك الحكم بسنّيّة الرسم أيضًا ملحَقًا بالعبادات، لأنه وسيلة عبادة التلاوة، والوسائل لها حكم المقاصد. ولذا قال الشيخ محمد العاقب الشِّنقيطي في نظمه « كشف العمَى »:[٢]

رَسـمُ الـكِتـابِ سُـنّـةٌ مُـتَّـبَـعَـهْ كَمـا نَحا أهلُ المَناحِي الأربَعَـهْ
لأنَّـهُ إمّـا بـأمـرِ الـمُـصـطَـفَـى أو باجتِماعِ الرّاشِـدِيـنَ الـخُلَـفا

وجاء في حواشي « المنهج في فقه الشافعية » أن كلمة « الرِّبَوا » تكتب بالواو والألف كما جاء في الرسم العثماني ولا تكتب في القرآن بالياء أو الألف لأن رسمه سُنّة متَّبعة.[٣] وعبّر عن ذلك آخرون بأن الرسم العثماني اصطلاح ارتضاه عثمان وإجماع الصحابة وتلقّته الأُمّة بالقبول، فيجب التزامه والأخذ به ولا تجوز مخالفته.

هذا ما كان من رأي الجمهور، وذهب أبو بكر الباقلّاني (ت ٤٠٣) إلى أنه لا مانع من مخالفة الرسم، إذا اتّفق الناس على ضربٍ خاصّ للإملاء وأصبح شائعًا بينهم. قال في نُكَت الانتصار:[٤] « وأمّا الكتابة فلم يَفرضِ اللّٰهُ على الأُمّة فيها شيئًا، أو لم يأخذ على كُـتّاب القرآن وخُطّاط المصاحف رسمًا بعينه

(١) رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح.
(٢) تاريخ القرآن الكريم ١ : ١٠٨.
(٣) البرهان في علوم القرآن ١ : ٣٧٩. وانظر مفتاح السعادة ١ : ٨١.
(٤) انظر مناهل العرفان ١ : ٣٧٣ - ٣٧٤ ومباحث في علوم القرآن ص١٤٨.

دون غيره أوجبه عليهم وتركَ ما عداه، إذ وجوبُ ذلك لا يُدرِك إلّا بالسمع والتوقيف، وليس في نصوص الكتاب ولا مفهومه أنّ رسم القرآن وضبطه لا يجوز إلّا على وجه مخصوص وحدٍّ محدود لا يجوز تجاوُزه، ولا في نص السُّنَّة ما يوجب ذلك ويدل عليه، ولا في إجماع الأُمّة ما يوجب ذلك، ولا دلّت عليه القياسات الشرعية... وبالجملة فكلُّ من ادّعى أنه يجب على الناس رسم مخصوص وجب عليه أن يقيم الحُجّة على دعواه. وأنّى له ذلك »؟

وأجاز آخَر أن تُرسم المصاحف بالإملاء المعاصر مع بقاء بعض النسخ بالرسم العثماني للرجوع إليها عند الحاجة.[1] بل لقد أوجب الإمام العزّ بن عبد السلام (ت ٦٦٠) خلاف الرسم، فقال « لا تجوز كتابة المُصحف الآن على الرسوم الأُولى باصطلاح الأئمّة، لئلّا يُوقِع [ذلك] في تغيير الجهّال ».[2] وعندما عرض الإمام الشوكاني (ت ١٢٥٥) في تفسيره « القرآن الكريم » لهذا الرسم قال:

« وهذا مجرّد اصطلاح لا يَلزم المشيُ عليه. فإنّ هذه النقوش الكتابية أمور اصطلاحية... فرسم الكلمة وجعل نقشها الكتابي على ما يقتضيه اللفظ بها هو الأَولى، فما كان في النطق ألفًا كالصلاة والزكاة ونحوهما كان الأَولى في رسمه أن يكون كذلك... وهذه النقوش ليست إلّا لفهم اللفظ الذي يُدلّ بها عليه: كيف هو في نطقِ مَن ينطق به؟ لا لتفهيم أنّ أصل الكلمة كذا ممّا لا يجري به النطق... فعليك بأن ترسم هذه النقوش على ما يَلفظ به اللافظ عند قراءتها. فإنه الأمر المطلوب من وضعها والتواضع عليها، وليس الأمر المطلوب منها أن تكون دالة على ما هو أصل الكلمة التي يتلفظ بها المتلفظ، مما لا يجري في لفظه الآن ».[3]

وإذا جاز الأخذ بهذه الآراء المخالفة للجماعة، ورَسَم الناس القرآنَ

(١) نسب أحد المعاصرين هذا القول خطأً إلى العز بن عبد السلام والزركشي.

(٢) البرهان في علوم القرآن ١ : ٣٧٩.

(٣) فتح القدير ١ : ٤٣٩ - ٤٤٠. وانظر كتابنا المفصل في تفسير القرآن الكريم ص٢٦ من المقدمة.

الكريم وفق القواعد الإملائية الشائعة، اختلفَتِ المصاحف بين الأقطار في زمن واحد، وفي البلد الواحد من زمن إلى آخر، وربّما رُسم بالحروف اللاتينية والمِسمارية والرموز الصينية واليابانية والفهلوية والسِّنسكريتية، وضاعت الوحدة القرآنية بين المسلمين. فلا بدّ مِن وجوب الكتابة بالرسم العثماني المعهود في المصاحف.

إنه الرسم الاصطلاحي الذي توارثته الأئمّة منذ صدر الإسلام، والحفاظُ عليه ضمان قوي لصيانة القرآن العظيم من التغيير والتبديل في حروفه، ولا قيمة لما جاء من خلافه عن أفراد العلماء. ولو أُبيحَتِ الكتابة بالاصطلاح الإملائي لكلّ عصر، كما قال هؤلاء الأفراد، لأدّى ذلك إلى توالي تغيير الخط. فقواعد الإملاء نفسها تختلف فيها وِجهات النظر في العصر الواحد في القطر الواحد وبين الأقطار والأفراد، وتتفاوت في بعض الكلمات من بلد إلى آخر. ثم إن اختلافَ الخطوط الذي ذكره القاضي أبو بكر الباقلّاني شيء والرسمَ الإملائي شيء آخر. فاختلاف الخطّ تغيُّر في صورة الحرف لا في رسم الكلمة.[١]

أَضِفْ إلى هذا أنّ الرسم الكريم وثيقة حضارية عظيمة، بما تحمله من صُوَر الخلاف الإملائي لبعض قبائل العرب في صدر الإسلام. وهو يقدّم ستمِائَةِ صفحةٍ ونيّفًا لنصّ معجز واحد يحمل تلك السِّمات الإملائية، ويمثّل واقعًا كتابيًّا لتلك الحِقبة، ويبقى نموذجًا عِلميًّا لبحث تاريخ رسم العربية. وهذا ما لا تجد له نظيرًا في تاريخ الأمم جمعاء. فالحِفاظ عليه بين أيدي الناس أمر علمي توجبه صيانة الحقائق من مطامح التبديل وعوامل الاستبعاد والطيّ والنسيان. وقول ابن دُرُستُويه[٢]: « خطّان لا يُقاس عليهما خطُّ المُصحف وخط تقطيع العروض » يعني أيضًا أنهما لا يُقاسان على غيرهما، إذ لكلٍّ مبادئُه وأصوله وتطبيقاته.

---

(١) انظر مباحث في علوم القرآن ص١٤٧ - ١٤٨.

(٢) البرهان ١ : ٣٧٦.

أمّا احتجاج المخالفين بصعوبة الرسم العثماني على جمهور الناس فمردود لأن جميع اللغات فيها من الرسم ما يخالف اللفظ، وهؤلاء هم المستعمَرون في بلادنا يعلّمون اللغات الأجنبية في المراحل الدراسية الأولى عَنْوة، ويكتبون باللهجات المحلّية والفصيحة والأجنبية معًا، وكل الجاليات الغريبة في العالم تدرس لغاتها الخاصة مع اللغات الوطنية بالرسوم المختلفة، من دون صعوبة أو تحرّج أو شكوى. فالأمر إذًا أهون مما يدّعيه هؤلاء الأفراد المخالفون، ولا مناص من التزام الرسم الشريف. هذا ما يجب في رسم المصاحف. أمّا إن كان إيراد الآيات الكريمة في كتاب أو بحث أو محاضرة... فقد أجاز العلماء رسمها بالإملاء المعاصر.

وأمّا النَّقط الذي عمّمه أبو الأسود ونصر في المصاحف فقد كان له بعض الحضور فيما جُمع من المسجّلات القرآنية لدى كَـتَبَة الوحي كما ذكرنا قبل، وليس إغفاله مخالفة لرسم المصاحف إذ كان ذلك الإغفال فيها بغية استيعاب القراءات، ولا يمكن أن يَستوعبها كل مُصحف مضبوط مشكول. ولهذا لم ينتشر تعميم النَّقط بين الناس، واختلفت مصاحف ذلك العهد في نقله، فكان بعض النُّسّاخ يتخفّفون فيه وآخرون يتوسّطون، وربما أغفل ذلك بعض آخر، لأنه متقن للقراءة بدونه ولم يكن ثمة لدى الجميع إقرار كامل بوروده في جميع نصوص القرآن الكريم.

بل لقد جاءت الكراهة بنقط المصاحف عن عبد اللّٰه بن عُمر (ت ٧٣)، وقال بذلك جماعة من التابعين،[١] وكان الحسن البصري وابن سِيرين يكرهان أن ينقط المُصحف بالنحو،[٢] ويُشيعان بين الناس ذلك. وقال الإمام مالك: « أمّا هذه الصِّغار [يعني الأجزاء الصغيرة المتفرّقة من المصاحف] التي يتعلّم بها الصِّبيان فلا بأس بذلك [أي: النَّقط] فيها، وأمّا الأُمّهات فلا أرى

(١) المقنع ص١٢٥.
(٢) المقنع ص١٢٦. وانظر وظيفة المصدر في الاشتقاق والتصريف ص١٦١ - ١٦٥.

ذلك فيها ».[١]

وقال أبو عبد الله الحَلِيمي[٢]: « ولأن النُّقطة ليست بمقروؤة فيُتوهَّمَ لأجلها ما ليس بقرآن قرآنًا، وإنّما هي دلالات على هيئة المقروء، فلا يضرّ إثباتها لمن يحتاج إليها. والله أعلم ». والحكم يشمل الإعجام والإعراب. ولهذا كان بعض العلماء يقتصر على حركات أواخر الكلمات وما أشكل من الصيغ،[٣] ثم جرى الناس في جميع الأمصار على رُخصة النَّقط بشكليه من عهد التابعين في الأُمّهات وغيرها.[٤]

أما النُّسّاخ والخطّاطون فقد ساروا بعدُ على التزام الرسم العثماني مع النَّقط المعهود في المصاحف الشريفة، وحاول ذلك الالتزامَ بعضُ الناشرين في عصرنا لنصوص التفسير وكتابة البحوث والتآليف تجنّبًا للخطأ الطباعي، فكان في عملهم سَداد وتوجُّه كريم، لولا أنه أوقعهم في خلاف للقراءات الخاصة الواردة في النص المقصود، مما يشعر بالجهل والتناقض ويقتضي التنبّه لتجنب الأوهام.[٥]

فعلى سبيل المثال، غالبًا ما ترى في منشورات « تفسير الجلالين » الرسمَ للآيات الكريمة تبعًا لقراءة حفص بالرسم العُثماني، وجمهورُ القِراءة التي اختارها هذان المفسّران يعتمد على حرف إمام البصرة ومقرئها أبي عمرِو بن العلاء (ت ١٥٤)، وما خالف ذلك كان فيه أشياء من حرف إمام مكّة المكرّمة ومقرئها عبد الله بن كثير (ت ١٢٠)، ثم من حرف إمام المدينة المنوّرة ومقرئها نافع بن عبد الرحمن (ت ١٦٩)، ثم من حرف إمام أهل الشام ومقرئهم عبد الله بن عامر (ت ١١٨)، وما جاء مخالفًا لهذه

---

(١) المقنع ص١٢٥. وانظر مفتاح السعادة ومصباح السيادة ١ : ٨١.

(٢) شعب الإيمان ٢ : ٥٤٧.

(٣) المحكم ص١١ و١٣ و١٧ و٢١٠.

(٤) المقنع ص١٢٥.

(٥) انظر المفصل في تفسير القرآن الكريم ص١٤ و١٧ من المقدمة.

التفصيلات في مواقع فهو قليل ومعظمه عند الجلال المَحلّي.[١]

ولقد غفل بعض الناشرين عن هذا النهج في قراءة الجلالين الإمامين فكان منهم، تجنبًا لخطأ في الرسم الطباعي للآيات، أن لجؤوا أيضًا إلى إثبات ألفاظها مما جاء في أجهزة الكِبتار « الكمبيوتر »، منقولًا من رسوم المصاحف، وغاب عنهم ما في الكتاب الذي بين أيديهم من قراءات خاصّة تخالف ذلك الرسم، فإذا هم يقعون في مفارقاتٍ أكثر من أخطاء غيرهم في الرسم الطباعي، وهم يظنّون أنهم بما قدّموا يُحسنون صُنعًا.[٢]

---

(١) انظر المفصل في تفسير القرآن الكريم ص٢٥ من المقدمة.

(٢) انظر مثلًا مطبوعات دار ابن كثير بدمشق لعام ١٤١٩ ومكتبة لبنان ببيروت لعام ٢٠٠٠ ودار القلم بحلب لعام ٢٠٠١. فكثيرًا ما ترى فيها من خلط للقراءات، وتناقض بين نصوص التفسير وألفاظ الآيات الواردة. لقد سبب هؤلاء الناشرون لـلنصوص وللناس مشكلات لا تُحصى، بالإضافة إلى مخالفة قراءة الجلالين في مئات المواضع، وهم فرحون بما أتوا. وقد يكون الرسم الإملائي لديهم مترجّحًا بين المصحفي أو المعاصر وبين القراءات المختلفة أو الاعتباطي، مع أوهام كثيرة فيما لحقه ضبط.

ومن ذلك مثلًا في مطبوعة دار العلوم الإنسانية بدمشق تجد أمثال : هدى، العفوُ، يُبشرك، يَبشرك (والخطاب لزكرياء)، كلّه مرفوع، ندخلُه، وإن كلًا، وُريّ، وريَ، عِتِيًّا، خُلق، لَيْكَة، بشرًا، يَصدرَ، فكلًا، يُجازي، فزّعَ بالبناء للفاعل، مختلفـا ألوانه، نُنْكسه، يُنْزِفون بفتح الزاي، رزقًا مهيئًا، أسَنَ، أُملي، وكلًا، متمٌّ نورَه بالإضافة، وطأً، أبُول. يضاف إلى هذا أن النص القرآني جُعل غُفلًا من الضبط، فاستبهمت معاني الآيات، وضاع مراد الجلالين من القراءات التي اختاراها. وهي كثيرة جدًّا في مفرداتها تتجاوز المئات. انظر المفصل ص١٦.

وفي « قُرّة العينَين على تفسير الجلالين » أراد الناشر أن يرسم ألفاظ القرآن الكريم بالإملاء المعاصر، فأخفق في كثير من الأحيان. نحو: فائتوا، فائت، فائتوهن، وائتوا، فائذنوا، أنّ ما نملي لهم خير، فائتنا، تبرئ، استهزئ، أإنا، أإذا، فائووا، وائتوني، ومَلَئه، فائتيا، امرئ، فائتياه، فائذنْ، فائتونا، السيئات، السُّؤى، تَظهَّرون، السيِّئ، أإنك، ائتوا، مثلما أنكم، إلـه. فكثيرًا ما جاء نحو هذا على غير ما أثبتنا هنا. ولمّا عجز عن ضبط النص القرآني أغفله في هذا التفسير، فخفي على القارئ تعرّف المعاني والدلالات، ولا سيما القراءات المخالفة لما في المصحف المطبوع مع ذلك التفسير. وهي كثيرة جدًّا كما ذكرنا قبل. انظر المفصل ص١٤ من المقدمة.

ومثل هذه الأوهام كثير في مطبوعات التفسير. ولو تيسر لأحد العلماء أن يتعقّب ذلك فيما صدر حتى الآن لاجتمع لديه منه مجلّد ضخم. فليتق اللّه رجال النشر ومدّعو الأمانة والتحقيق والتفيقه. =

بل لقد صرح واحد منهم بأنه تصرّف في قراءة الجلالين، ليُثبتها على قراءة حفص،[١] فإذا هو يسيء مرتين: أُولاهما: حين أقحم نفسه في النص فأزال منه كثيرًا من القراءات التي أدّاها الجلالان، وأدخل فيه ما ليس منه زورًا وبهتانًا، والثانية: أنه جمع في التفسير بين القراءات وعبارات الشرح المخالفة لها. فقد بنى الجلالان تفسيرهما على ما أدّيا من لفظ قرآني خاصّ بما كان لديهما في التلقّي والنقل، فجاء هذا المتنطّع يقدّم متناقضات متنافيات في كتاب له حرمته وقيمته في العلم والتاريخ.

ولو رجع هو وأمثاله إلى ما نُشر من « تفسير الجلالين » في مكتبة البابي الحلبي[٢] لوجدوا في مستهلّه نصًّا صريحًا بأن قراءة الشيخين تخالف ما جاء عن حفص. فقد وجب اتّباعها في الرسم أداء للأمانة، وتمثيلًا للتوافق والانسجام بين الآيات وتفسيرها. ولكن غفل عن ذلك سائر الناشرين لهذا الكتاب الكريم، فكان في كل طبعة ممّا قدموه للناس مئات الأوهام والأخطاء والتصرُّفات الشخصية في إيراد الآيات الكريمة. ولذلك وتنفيذًا لأصول التحقيق، وجدتُني ألتزم واجبات الأمانة والعلم فيما نشرتُ من: تفسير الجلالين الميسّر، والمفصّل في تفسير القرآن العظيم.

وأخيرًا فإنه إذا كان العلماء، مع احتفاظهم بالرسم الكريم في حروفه العثمانية المقرَّرة وما فيه من وصل وفصل وقلب وهمز، قد أجازوا تحلية

= هذه مطبوعة دمشقية وقفت عليها مصادفة، فيها من ذلك ما يخص الآيات: ١٠٨ و١٧٧ و١٨٧ و٢٠٤ و٢٥٩ و٢٨٣ من سورة البقرة و٧٣ من آل عمران و٣٣ و٥٢ و٨٦ و٩٢ من النساء و٣٠ و٨٧ و١٣٦ و١٥٦ من الأنعام و١٥١ و١٥٧ من الأعراف و٣٠ من التوبة و١٠٢ من يونس و٢٩ من يوسف و٣٤ من الإسراء و٧١ من الحج و١٦ من لقمان و٢ من الأحزاب و٤٨ من الزخرف و٢٥ من الجاثية و٢٧ من الفتح و١٠ من الحديد و٢ من المجادلة و٣ من الجمعة و٢٢ من الملك و٥٠ من ن و١٩ من الحاقة و٥٢ من المدثر و٢٠ من النازعات و٩ من القارعة. المفصل ص١٧ من المقدمة.

(١) انظر تفسير الجلالين ص٥ – ٦ من مطبوعة دار العلم للملايين و ص(ي و س) من مقدمة تفسير الجلالين الميسر.

(٢) علم التحقيق للمخطوطات العربية ص٢٣٩ – ٢٤٤.

النص المصحفي بتنقيط أبي الأسود وعلامات الخليل ومن جاء بعده، وبإعجام الحروف لتمييز بعضها من بعض، وبتحسين صورة الخط وتنويع أشكال الخطوط في الرسم، وبترقيم الآيات، وبالتحزيب والتجزئة والتربيع والتعشير والتخميس، وبالإشارة إلى مواقع الأجزاء والأرباع والسجَدات والإمالة والإشمام وتخفيف الهمز وأنواع المدود والتنوين والسكَتات والإدغام والوقف والأحرف غير المحقّقة في الرسم والأحرف المزيدة فيه، وبتفسير معاني الآيات وترجمتها لمن هم في حاجة إلى ذلك، إذا كانوا قد أجازوا هذا كله ممّا لا تدخّل له في الرسم العثماني، لأسباب اضطرارية تخدم النص الربّاني، أفلا يجيزون استخدام علامات الترقيم بين عباراته التوقيفية، وهي تساعد على تسديد القراءة وتوضيح كثير من دقائق معاني النظم الكريم؟[١]

لقد طُرح هذا الموضوع على لجنة الفتوى في الجامع الأزهر منذ ٨٠ سنة، حين كان للأزهر رجال يتكلّمون من قلوبهم عن علم وتقوى وصلاح وجهاد، فصدر عنها الجواب بأنّ اللجنة لا ترى مانعًا منه،[٢] شريطة ألّا يسبّب لبسًا على القارئ. واحتجّت لذلك بما أُضيف إلى المصاحف من علامات التجويد والإعراب والإعجام والوقف والتعشير، وبقول الزّيلعي من علماء الحنفية عنه: « هو وإن كان مُحدَثًا فمُستحسن. وكم من شيء يختلف باختلاف الزمان والمكان »! والله - تعالى - أعلم بالصواب.

* * *
* *
*

(١) تفسير الجلالين الميسر ص (ف) من المقدمة.

(٢) مجلة الرسالة المصرية ٢١٦ : ١٣٩٥، في ٢٣ آب ١٩٣٧.

٣

اللغة العربية والقرآن الكريم
تَوءمَانِ مُتلازِمانِ

هذه العبارة اللطيفة عنوان طريف، وهي خفيفة على اللسان ثقيلة في الميزان، تُعيد إلى الأذهان عَراقة التوءمةِ العظيمة، أي: الصِّلاتِ الوُثقى بين العربية والوحي الكريم، تلك الصِّلات الوشيجة التي غفل عنها كثير من المسلمين والعرب، فكان لديهم انفصام في الشخصيتين الإنسانية والحضارية المعاصرتين. ولهذا تراهم عندما يبحثون كلًّا من هذين العنصرين يعتمدون وسائل بعيدة لوصله بالآخر، وربّما اصطنعوا في ذلك منطلقات العاطفة والخيال، مع أنّ القضية الجوهرية شاخصة بين أيديهم قريبة المَنال.

فقد أعلمنا الرسول العظيم ﷺ أن طرفَيْ هذه العبارة الطيّبة تَوءَمان[1] شقيقان منذ الأزل، ولهما الخلود في ذلك إلى ما شاء الله من الأبد. وذلك فيما رواه أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، ما أنزَلَ اللَّهُ وَحْيًا قَطُّ علَى نَبِيٍّ بَينَهُ وبَينَـهُ إلّا بالعَرَبِيّةِ، ثُمَّ يَكُونُ هُوَ بَعدُ يُبَلِّغُهُ قَومَهُ بِلِسانِهِ ».[2]

وهذا يعني أنّ عُروبة اللسان هي أقدم بكثير ممّا علّمنا التاريخ، إذ بها سُجّلت الكتب السماوية كلها، ثم تُرجمت إلى لغة الأقوام الذين نزلت إليهم، ثم فُرض على هذه النبتة الكريمة أن يكون لها حضور في الأرض بما عرفنا من ملازمتها للنص القرآني العظيم. وقد فسّر ابن عبّاس رضي الله عنهما هذه الحقيقة الكُبرى في ذلك الحديث الشريف بقوله: « ما أنزلَ اللّهُ عز وجل مِنَ السَّماءِ كِتابًا

---

(١) التوءم: ما يُولد مع شقيقه في بطن واحد، وهما توءمان.

(٢) رواه الطبراني في الأوسط ٥ : ٤٧، وفي إسناده ضعف لا يمس مضمونه. انظر مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ١٠ : ٥٣ والكامل في ضعفاء الرجال ٣ : ٢٥١ والضعفاء الكبير ٢ : ١٢١.

إلّا بالعَـرَبانِـيّـةِ،[١] وكانَ جِبرِيلُ عليه السلام يُـتَرجِمُ لِكُلِّ نَبيٍّ بِلِسانِ قَومِهِ ».

فاللغة العربية الحبيب إذًا هي المادّة التعبيرية التي سُجّلت بها الكتب السماوية منذ القدم، حين أمر اللّه - تعالى - القلمَ أن يكتب ما هو كائن من خلقه، ثم فارقتْها كتب الرُّسل إلى لغة أقوامهم، وبقيتْ مع القُرآن الكريم تلازمه إلى الأبد ممّا شاء اللّه، وإن تُرجمت مَعانيه إلى لغات أخرى. وبهذه التَّوءَمة اكتسبتْ عُروبةُ اللسان قُدسية خالدة مباركة لا تعرفها سائر لغات العالم. وقد جاء الوعد الكريم من اللّهِ يبشّر بخلود هذه القدسية، في حيوية ونشاط وعطاء واستيعاب لكل واقع وأمل.

ذلك أنّ المولى عزّ وجلّ حين تكفّل حفظَ القُرآن العظيم بقوله[٢]: ﴿ إنّـا نَحـنُ نَـزَّلْنا الـذِّكـرَ، وإنّـا لَهُ لَحافِـظُونَ ﴾، أعلمَـنا أيضًا بوضوح وتوكيد محقَّقَين أنه ببركة هذا الكتاب الكريم قد تكفّل بخلود لغة العُروبة التي وسِعتْ كتابه لفظًا وغاية، لتعيش وسيلة ربانية مقدّسة، تحمل ذلك الواجب النبيل وتبلّغه من تنفعه الذِّكرى، على الرغم من سعْي المستعمرين والمفسدين من عملائهم لنشر اللهجات العامّية واللغات الاستعمارية الخبيثة.

على أنّ الأزلية والخلود لهذه الشجرة الربّانيّة المباركة بكفالة من اللّه - جلّ ثناؤه - لا يعنيان الحفاظ عليها في المصادر التراثية عاديّاتٍ

---

(١) كتاب اللغات في القرآن ص١٦. والعَرَبانيّة: مبالغة في النسبة إلى العرب للتفخيم، كما تقول: « ربّانيّ ونفْسانيّ ورُوحانيّ وعِلمانيّ » في النسبة إلى: ربّ ونفس ورُوح وعِلم. وقد صحّف ناشر الكتاب المذكور هذا اللفظ تصحيفًا شنيعًا - لا سامحَه اللّه - وهو من شوامخ المحقّقين العرب كما يقال، فكان بين يديه « العِبْرانيّة ». وانظر البحر المحيط لأبي حيان ٥ : ٤٠٥ والدر المنثور ١ : ٦ و٤ : ٧٠ وصنيع من يزعم أنه من المحقّقين العرب.

(٢) الآية ٩ من سورة الحِجر. ومع حفظ العربية ترى فيها من باب لزوم المفهوم أيضًا حفظَ الدين الإسلامي والمسلمين والعرب الذين يحملون رسالة القرآن الكريم. أمّا الذين يتجاهلون ذلك أو يتنكّرون له فهم في بؤس وشقاء وفناء كما ترى وتسمع في بلاد المسلمين اليوم. وانظر تفسير الجلالين الميسر ص٢٦٢ والمهارات اللغوية وعروبة اللسان ص١٤٤.

مُتحفيةً للاعتزاز والمفاخرة، كما يفهم[1] بعض المعاصرين، بل إنهما ليُثيران فينا لهيبَ الحماسة، لنكون مع الرحمة الكريمة في حربِ اللهجات العامّية وعَـولمة التبويش،[2] ومع رعايةِ لغة القرآن بحمل رسالة الـعَوربة، وتغذيتِها بما تتطلّبه من تعبير عن الفكر والتجربة والعمل والعاطفة والخيال، وجعلِها قائمة بوظيفتها الإنسانية والحضارية في متطلَّبات الحال ومطامح الاستقبال.

وعلى الرغم ممّا كان في التاريخ من نكَبات ونكَسات، فقد أحاط اللّه ﷻ لغتنا الكريمة بعنايته ورعايته عشراتِ القرون والعشرات، خلال نشأتها الأولى وتوالدها في الزمان والمكان، أحاطها بذلك لتسَعَ كتابه العظيم لفظًا وغاية وتحمِلَ رسالة الحقّ والهداية، فرسّخها في قلوبٍ وألسنة وآذان حانية فصيحة مُرهَفة، ترعاها بالصقل والتنمية والغَناء، فتحتفظُ بمنزلتها الأوّلية المختارة، وتكون أهلًا لما ستحمله من الواجبات. وهذا ما لم تَحظ به لغة من الآلاف التي عرفتها البشرية على مدى الحياة.

قُدسيّة اللغات:

تعتقد الشعوب الوثنية أنّ اللغة هي الوسيلة التعبيرية بين آلهتهم، فيحيطونها بهالات التبجيل والاحترام للحفاظ عليها وصيانتها من الضعف أو الاندثار. ولو أنك استعرضت معي حياة العالَم في الماضي والحاضر لرأيت أنّ كلّ أُمّة واعية تقدِّس لغتها، وتضعها في مركز الاهتمام من قضاياها المصيرية. فالشعوب التي تحترم نفسها، وتُدرك مكانة لغتها الوطنية أو الدينية في وجودها، تضعها في منزلة الحُرمات المقدَّسة، وتحميها بكل قدراتها من الغزو والعدوان، وتشجّع

(١) انظر ص٣٦ - ٣٧ من: لغتنا والمؤامرة.

(٢) التبويش من البَوش، وهو في العربية يعني الصخَب وضجيج الغوغاء، ومنه الجمع بالقلب المكاني: الأوباش. والتبويش إذًا هو الاضطراب والتناوش واختلاط الأصوات. فلا غرو أن يكون من صاحبه ومن أسلافه وأتباعه ما يجري منذ سنوات في المسرح العالمي من مهازل وجعجعة وبطش رهيب، هو الإرهاب نفسه لا ما يطلق على المدافعين عن بلادهم أيّامنا هذه في وسائل الإعلام الخبيثة المُنشأة للبغي والبِغاء.

على تنميتها والحِفاظ عليها من كل جمود أو قصور. ومن أجل ذلك تجد الغُزاة المخرّبين للأمم والشعوب يبلبلون ألسنتها حتى تنقاد إلى لغاتهم المتسلّطة، كما ترى في حاضر الأُمّة الإسلامية وكل شعب مستعبَد.

والقُدسية مصدر صناعي يفيد المبالغة في المعنى ويراد به التقدُّسُ والتنزُّه عن النقائص ووجوبُ التعظيم والاحترام والتقدير، وهو لا يخصّ المولى ﷻ بل يُستعمل في حق المخلوقات أيضًا ويكون بينها في درجات وأنواع. فاللّٰه - تعالى - له القُدسية العُظمى إذ ليس كمِثله شيء، والأنبياء لهم قُدسيتهم الخاصّة في جنس البشر لأنهم المتميّزون باختيارهم لتبليغ رسالات السماء وهداية الناس إلى الإيمان والصلاح، ومكّة المكرّمة مقدّسة في البلاد لأنها أُمّ القُرى ومقرّ الكعبة المشرّفة، وبيت المَقدس له الحُظوة من ذلك لِما كان فيه من رسالات سماوية مباركة ورسل وأنبياء، واللغة العربية لها ذلك أيضًا في جنسها لأنها هي أصلُ لغات الكتب الربانية والتوءمةُ الشقيقة للقرآن الكريم.

وإنك لترى الأفئدة العدنانية قبل الإسلام تحمل لعُروبة اللسان آياتِ التقديس والتبجيل والإكرام، وتعتقد أنّ غيرها من أساليب الكلام رَطانات وطُمطمانيّات، لا يجوز استعمالها في الخطاب بل لا يجوز احترامها. ومن ثَمّ كان العربي يعتزّ بأصالته في التعبير والأداء، ويلازم ما كان عليه آباؤه وأجداده ملازمتَه للأوثان والأصنام التي تُعبد من دون اللّٰه. فهو بين أبناء قبيلته قد يتأثّر لهجةً من لهجات القبائل المجاورة في بعض اللفظ والتركيب، ولكنه لا يسمح لنفسه بشيء من العُجمة إلّا ما كان من لفظ عربي مستعجِم، يردّه إلى جنسية العروبة بالتصويت والصيغة والبناء مع حمله شعار التعريب.

على هذا سارت الحياة العربية في عصور الجهل والوثنية، ثم أضاف الإسلام إليه ألوانًا جديدة من القِيَم المقرّرة، تصبغ عُروبة اللسان بالقُدسية الربّانيّة. وذلك عندما جاء الوحي الكريم يصفها بأنها لسان عربيّ مبين، ويمدح الكتاب العظيم بأن اللّٰه ﷻ جعله وأنزله وأوحاه قرآنًا عربيًّا، وهو

قرآن عربيّ مُبين، ونزل لسانًا عربيًّا، وبلسان عربيّ مُبين، ثم وصفه بأنه عربيّ غير ذي عِوَج لينفي عنه كل صلة بما انحرف من ألسنة الأُمم المختلفة.[1] وبذلك اكتسبت لغتنا الحبيب صبغة تقديس آخَر ديني في قلوب العرب والمسلمين، إضافة إلى ما لها بتاريخ الإنسانية من أصول عميقة الجذور في ضمير الدعوات السماوية العظيمة كما ذكرنا قبل.

بين الكِفاية والوجوب:

ثم إنك لترى الحُكم الشرعي عند المسلمين يوجب التزام عُروبة اللسان في الممارسات الخاصّة والعامّة أيضًا، لننال الثواب - نحن العرب والمسلمين - وتستمر هي في حيوية وغنًى ونماء، تلبّي حاجات الأُمّة ومقاصدها في العلومِ والفنون والآداب وتكوينِ الفكر الخالص من شوائب الغزو والتلويث الخبيث. وقد تابع بعض علماء الإسلام هذه الزاوية بالبحث، وانتهوا إلى أن تعلُّم العربية فرض كِفاية، لأنها كما قالوا آلة لتفهُّم القُرآن الكريم والسُّـنّة المطهَّرة.[2]

ولو أنك أخذتَ هذا القول بظاهره لكان فيه سبيل إلى اضمحلال تلك اللغة الغالية وغيابها عن ميادين الحياة. ذلك لأنّ فرض الكِفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين،[3] يُغني فيه أن تُتقِن فهمَ الأحكام بهذه اللغة فئةٌ من العلماء، ويبقى سائر المسلمين والعرب في حِلّ من ذلك، فإذا نحن مع الزمن أمام لغة « كَهَنُوتيّة » تاريخية محنّطة، لا يُمارسها إلّا قليل من الفقهاء قراءةَ فهم، ويتقبّلها الجميع على أنها تُراث له الحُرمة في القلوب والتقديس الظاهري

---

(١) انظر الآيات: ١٠٣ من سورة النحل و١٩٥ من سورة الشعراء و٢ من سورة يوسف و٣٧ من سورة الرعد و١١٣ من سورة طه و٢٨ من سورة الزمر و٣ من سورة فصلت و٧ من سورة الشورى و٣ من سورة الزخرف و١٢ من سورة الأحقاف.

(٢) الصاحبي في فقه اللغة ص٦٤ - ٦٦ وإحياء علوم الدين ١ : ١٦ - ١٧ ومقدمة ابن خلدون ص١٢٥٤.

(٣) التعريفات ص١٧٢.

بين مخلَّفات الماضي البعيد. وفي هذا عَين ما رَمى إليه دعاة الحرف اللاتيني وزبانية اللهجات العامّية والتمذهب باللغات الأوربية والشرقية المستعمِرة.

ثم إنّ حصر وظيفة العربية في النصوص الشرعية يعني أنّ مصادرَ البحث العلمي والأدبي والفني والفكري مطروحة في المتاحف والمكتبات التراثية مستبعَدة عن جماهير العُروبة والإسلام لتعذُّر تناولها كما هي الحال في كثير من بلادنا الآن، وأنّ التواصلاتِ الحيوية في الميادين العملية المختلفة من محادثة وكتابة وخِطابة ومراسلة وتعليم وبحث وتأليف في العلوم والفلسفة والفنون والآداب والاقتصاد والاجتماع تُترك للّهَجات المحلّية الراهنة أو الرَّطانات الأجنبية تستوفيها وتقوم فيها بالأداء كما تريد.

ولهذا وجب علينا أن ننظر إلى المسألة من زاوية أدقّ وأصحّ، لنعطي اللسان الإسلاميّ اليعرُبيّ حقه من القدسية المقرّرة. وهنا نذكر أنّ ما « صدر عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير » هو سُنّةٌ شريفة،[1] وأنّ كلامه المطهَّر كله هو قول وفعل معًا، وقد لازم الفصاحة في جميع مواقفه متحدّثًا ومتلقّيًا وسامعًا بإقرار. وهذه هي مقوّمات السُّنّة المشرّفة المُلزِمة بالتقديس والاتّباع.

غير أن بعض العلماء رَوَوا عنه أنه ﷺ، لظروف خاصة، خاطب بخلاف ذلك مَن يناسبه الأعجميُّ من الكلام، أي: بمفردات فارسية أو حبشية كانت مع العربية في لفظها كما قال ابن الأثير، أو كانت قد عُرِّبتْ وصارت بالصيغة واللفظ من كلام العرب، لأن « ما قِيسَ على كلام العرب فهو من كلامهم »[2] كما قال الخليل بن أحمد وسيبويه. وقد جمع الإمام البخاري ذلك المرويّ عنه ﷺ في باب « من تكلّم بالفارسية والرَّطانة ». ونحن إذا عرضنا تلك المرويّات رأينا في بحثها نظرًا وأنظارًا من وجوه.

---

(١) التعريفات ص١٢٨.

(٢) انظر غريب الحديث ٢ : ١٧٣ - ١٧٨ والنهاية ١ : ٤٧ - ٤٨ والتاج (برق) والمنصف لابن جني ١ : ١٨٠.

فقد رُوي عن أبي هُريرة ﵁[١] « أنّ الحسن بن عليّ أخذ تمرة من تمر الصَّدقة، فجعلها في فِيه، فقال النبي ﷺ بالفارسية: كَخْ كَخْ. أما تَعرِفُ أنّا لا نأكُلُ الصَّدَقةَ »؟ والوصف بالفارسية هنا ظاهره أنه من قول أبي هُريرة، وافقه عليه الإمام البخاري، فأورده في الباب المعقود لذلك. ولكن روايته للحديث في موطن آخر جاءت نصًّا عن أبي هريرة أيضًا، ولم يَرد فيها ذكر الفارسية، وكذلك جاءت في عدّة روايات له ولغيره عنه،[٢] مما يرجّح أن هذا الوصف ليس من كلام الصحابي الجليل، وإنما هو إقحام من أحد الرواة تعبيرًا عن رأيه.

ثم إن كلمة كَخ: اسمُ فعلِ أمرٍ،[٣] يراد به زجر الطفل وردعه عند تناوله ما يُستقذَر. فالمراد بخطاب النبي ﷺ للحسن ﵁ هنا: « اتركْها وارمِ بها ». وتردُ الكلمة الثانية بعدها للتوكيد اللفظي. فقد رُوي أيضًا أنه قال له قبلُ: «ألقِها - يا بُنَيَّ - ألقِها يا بُنَيَّ »، فلمّا تمادى الحسن أدخل النبي ﷺ إصبعه الشريفة في شِدق الحسن، وقال: « كَخْ كَخْ » إشارةً إلى استقذار ذلك، فاستخرجَ التمرة من فمه وردّها في جملة التمر.

والحقُّ أن هذه اللفظة هي كلمة عربيةٌ أصيلة، جاءت في القاموس واللسان والفائق وعدد من المصادر الأُخرى غُفلًا من الوصف المذكور قبلُ لتحقيق عروبتها. ولذا لم تَرِد في مصنّف مَن تتبَّع الفارسيات مثل « المعرَّب » للجواليقي و« معجم الألفاظ الفارسية المعرَّبة ». وإذا صحّ أنها معروفة في اللغة الفارسية فإن ذلك لا يعني أنها نُقلت عنها إلى العربية، إذ يَحتمل أن يكون ذلك من توارد اللغتين. ثم إذا كان لا بُدّ من الحكم بالنقل بين اللغتين

---

(١) الحديث ٢٩٠٧ في البخاري. وانظر مقالًا لعبد الله بن محمد زُقيل في العدد ١٥٢ من مجلة البيان لعام ١٤٢١.

(٢) الأحاديث: ١٤٢٠ في البخاري و١٠٦٩ في مسلم والمسند ٢ : ٤٠٩ و٤٤٤ و٤٧٦ وفتح الباري ٣ : ٤٥١ وعمدة القاري ٧ : ٣٤٦ وشرح صحيح مسلم ٤ : ١٨٧ والجامع الصغير ٢ : ١٥٠ وصحيحه ص٨٢٦ والنهاية والفائق واللسان والتاج (كخخ) وحاشية الجمهرة ١ : ٦٨.

(٣) أي: لا اسمُ صوت كما ذكر البعض.

فالصواب أنه من العربية إلى الفارسية، لأن الأُولى أقدم من الثانية بعشرات آلاف السنوات، والأصل أن يكون التأثُّر للمتأخِّر بالمتقدِّم لا العكس، وأن يكون ممّن لا يقدّس لغته كما يجب عليه.

ولذا أيضًا جاءت عبارة الزَّبيدي عنها في تاج العروس: « عربيّـة. وقيل: فارسيّـة ». وهذا يحقّق ما ذهبنا إليه، لأنه قرّر أصلها الفصيح، وذكر فارسيّتها بقول ضعيف ممرَّض غير معتدّ به. وكان ابن الأثير من قبلُ في « النهاية » قد قرّر ذلك بأنه « قيل: هي أعجمية عُـرِّبتْ ». والقول بالتعريب هو زعم للداودي،[1] تفسيرًا لِما ورد في رواية البخاري، ونازع الكرماني في أعجميّتها، لأنها من أسماء الأصوات،[2] وهذه الأسماء وأمثالها عربية لا تكون غير ذلك.

وثمة حديث آخَر في هذا الباب: رُوي أنّ جابر بن عبد الله ﷺ جهّز طعامًا يوم الخندق، ودعا النبيَّ ﷺ والصحابة إلى ذلك، فصاح النبي الكريم[3]: « يا أهلَ الخَـنـدَقِ، إنَّ جابِرًا قَـد صَنَعَ سُـورًا. فحَـيَّ، هَـلا بِكُم »، أي: أقبِلوا، أهلًا بكم، أتيتُم أهلكم. قال الإسماعيلي: السُّور: كلمة بالفارسيّة. وإنما هو [أي: معناها] بالفارسية[4]: من أتى دعوةً. وقيل: هي الطعام بلغة الحبشة. لكنّ العرب تكلّمت بها فصارت من كلامها.[5]

أمّا زعم الفارسيّة هنا فبعيد أيضًا على ما ذُكر من التفسير، لأن ما كان من جابر ﷺ يوم الخندق ليس المراد به أن يأتي هو دعوةً. فالذي يأتي الدعوة

---

(١) فتح الباري ٣ : ٤٥٢ وعمدة القاري ٧ : ٣٤٦ و١٢ : ١٤٠. وفي المسند ٣ : ٣٩٠ و٤٠٣ عبارة بالفارسية وُجّهت إلى أبي هريرة ﷺ في حديث ضعيف الإسناد مختلّ العبارة، وليس أبو هريرة من الفُرس حتى يوجّه إليه مثل تلك العبارة.

(٢) فتح الباري ٦ : ٢٢٥ - ٢٢٦. وقد رجّحنا أنها اسم فعل أمر، كما ذكر العيني، وحُكم هذه الأسماء كحُكم أسماء الأصوات في أصالة العروبية.

(٣) الأحاديث: ٢٩٠٥ و ٣٨٧٦ في البخاري و ٢٠٣٩ في مسلم. وانظر فتح الباري ٦ : ٢٢٥ و ٧ : ٥٠٣ وعمدة القاري ١٢ : ١٣٨ و١٤ : ١٨١ وشرح صحيح مسلم ٧: ٢٣١.

(٤) فتح الباري ٦ : ٢٢٦ - ٢٢٧ و ٧ : ٥٠٧. وانظر شرح صحيح مسلم ٧ : ٢٣٩ - ٢٤٠ والنهاية ٢ : ٤٢٠.

(٥) فتح الباري ٧ : ٥٠٧ وعمدة القاري١٢ : ١٣٨.

هو المدعوّ، وما صنعه جابر هو الدعوة نفسها، وفرقُ ما بين المعنيَين ظاهر، ولا يُستقى المعرَّب من الأعجمي لمثل هذا الفارق في العربية. فلعل المراد الدلالي كما قال ثعلب أنّ جابرًا صنع سُورًا أي: طعامًا دعا الناس إليه، وهي لفظة فارسيّة.[١] وإذا صح هذا التفسير كان حكمه ما انتهينا إليه في « كَخْ » من أصالة في العروبة. وكذلك دعوى الحبشيّة فإنها تصبُّ في هذه الأصالة أيضًا لأن هذه اللهجة هي من فروع العربية الأُمّ تأثّرت بشيء من لغات إفريقية على ما هو معلوم. وهذا يعني أن العدنانية أهملت استخدام الكلمة بذلك المعنى، على حينِ احتفاظ الحبشية بها، ثم استردّتها لغة بني عدنان من شقيقتها في العروبية، فلا عُجمة ولا تعريب.

غير أننا لسنا في حاجة إلى هذا الدَّور في التحليل لأن ضالّتنا حاضرة بجلاء في العدنانية القُحّـة. وإنك إذا رجعت إلى ما في المعاجم القديمة والمتأخّرة والمعاصرة وقفت على أن السُّور هو الفَضْلُ أو الشيءُ الفاضل في نوعه، وأصله من الارتفاع والتوثّب، يُعبَّر به عن اسم الجنس أحيانًا وواحدتُه سُورة، وهي المنزلة الرفيعة. وسُورُ الإبلِ هي: كِرامها.[٢] فالسُّور في عبارة الحديث الشريف هنا هو « الفَضْلُ »، وقد جاء غيرَ مرّة بمعنى ما يقدَّم للآخَرين من الإكرام عونًا وبِرًّا وتأنيسًا. من ذلك أنه قال ﷺ: « مَـن كانَ عِـنـدَهُ فَـضـلُ زادٍ فـلْيـأتِـنـا بـهِ »، فجعلَ الرجلُ يأتي بفضل التمر وفضل السَّويق، حتى جعلوا من ذلك سَـوادًا حَيسًا. قال أنس: « فكانت تلك وليمةَ رسول اللّه ﷺ ».[٣]

وأنت ترى هنا أنّ الوليمة هي: الفضل والسُّور، ولكنّ في الثاني زيادةً في المعنى، هي المبالغة والتعظيم. ولذلك عبَّر بها النبي الكريم يوم الخندق عن

---

(١) المعرّب ص٢٤٠ والنهاية ٢ : ٤٢٠ واللسان (سور). وانظر فتح الباري ٦ : ٢٢٦ وعمدة القاري ١٢ : ١٣٨ والألفاظ الفارسية المعربة ص٩٦.

(٢) معاجم العين والجمهرة الصحاح والتهذيب والمحكم واللسان والتاج والأساس والمقاييس (سور).

(٣) الحديث ١٣٦٥ في مسلم. وانظر الحديث ١٧٢٨ فيه وصحيح الجامع الصغير ص١١٠٧ ومنهل الواردين شرح رياض الصالحين ص٣٨٦ – ٣٨٧. والحيس : الخليط من الطعام.

وليمة جابر، إذ المراد أنها فائقةٌ للولائم بما فيها من البركة والخير والإكرام من اللّه ورسوله وجابر نفسه كما جاء في تتمة الحديث الشريف. فلسنا في حاجة إلى احتمال توافق اللغات كما قيل ولا إلى استجداء الأعجميات، وعروبتُنا هي ربّـة اللغات وفينا أرباب البيان، والنبي الكريم أُوتيَ مَجامعَ الكلم والسِّحرَ الحلال.

ثم لدينا حديث ثالث ورد في باب الأعجمية، هو قول أُمّ خالد ﵂: أَتيتُ رسولَ اللّه ﷺ مع أبي، وعليَّ قميصٌ أصفرُ، قال رسول اللّه ﷺ: « سَـنَـهْ سَـنَـهْ ».[1] وقد زاد عبدُ اللّه بن المبارك - وهو أحد الرواة - أنّ معنى الكلمة بالحبشيّة « حَـسَنةٌ »، ونازع الكرمانيُّ في ذلك بجواز أن يكون أصل اللفظ « حَـسَنـةٌ »، فحُذِف أوّلُه إيجازًا.[2]

ولا حاجة إلى المنازعة هنا أيضًا كما سترى بعدُ لأن أُمّ خالد هذه تتحدّث عن طفولتها واسمها أَمةُ، وهي بنتُ خالد بن سعيد بن العاصِي وُلدت في الحبشة بين أبوَيها المهاجرَين هناك، ثم عادت من الهجرة معهما وخُوطبت بذلك وهي صغيرة. فلا عجب أن يكون في التكلّم معها شيء سمعتْه ممّن كان حولها أيام الهجرة تحبُّـبًا إليها واستمالة لقلبها، وهي ممّن وُلد وعاش في طفولته هنالك.

وللعبارة رواية أُخرى توضّح لك المسألة،[3] جاء فيها أنه أُتيَ بالطفلة تُحمَلُ إلى النبيّ ﷺ، فألبسها بيده خَمِيصة سوداء صغيرة فيها عَلَم أخضر أو أصفر، وجعل ينظر إلى علَم الخَمِيصة، ويُشير بيده إليها ويقول: « يا أُمَّ خالـِدٍ، هذا سَناهْ ». وسَناه بالحبشية: حَـسَـنٌ. وفي روايةٍ: « يا أُمَّ خالـِدٍ، هذا سَنًا ». والسَّـنا بلسان الحبشة: الحَـسَـنُ.

وقيل: إن هذا التفسير كان من أُمّ خالد نفسها. فقد كانت تلبس الثوب

---

(١) الحديثان: ٢٩٠٦ و٥٦٤٧ في البخاري.

(٢) فتح الباري ٦ : ٢٢٧ - ٢٢٨ وعمدة القاري ١٢ : ١٣٩ - ١٤٠ و١٨ : ١٣٣ - ١٣٤.

(٣) الحديثان : ٥٤٨٥ و٥٥٠٧ في البخاري وفتح الباري ١٠ : ٣٤٣ - ٣٤٥ و٣٧٣ - ٣٧٥ وعمدة القاري ١٨ : ٢٨ و٤٧ والإصابة ٧ : ٥٠٦ - ٥٠٧ و٨ : ٢٠٠ والاستيعاب ص١٧٩٠.

الأصفر، ثم ألبسها النبيُّ ﷺ الخَمِيصة السوداء، وقال ذلك ففسّرته حين روت الحديث. وقد وهِمَ العينيُّ، فلفّق بين ما قيل في الأوّلَين وما قيل في الثانيَين، ظنًّا منه أنهما قيلا أيضًا في الثوب الأصفر، وعلّق على التفسير الأخير بقوله: وهو الرّطانة بغير العربي.

وخلاصة البحث في هذه الأحاديث كلها تنحصر في قصة أُمّ خالد وحدها، وأن ما فيها هو خطاب لطفلة كانت في بيئة عربية غير عدنانية، فجاءت الكلمة المذكورة بالصِّيَغ التي تعلمتْها في غُربتها. ثم إنّ جَعلَ هذا من غير العربي يدفع احتمالَه ما يقرّره العلماء، ويفسّره قول أبي عمرو بن العلاء (ت ١٥٦): « ما لسانُ حِمْيَرَ وأقاصي اليمن اليوم بلساننا، ولا عَرَبيّتُهم بعَرَبيّتنا »[١].

فهو في عبارته هذه، على الرغم من انتقاصه تلك الظواهرَ اللغوية وتفريقه بينها وبين لغة القرآن الكريم، يعترف بأنها ذات جنسية واضحة لا يجوز إخراجها من نطاق عُروبة اللسان. ولغةُ الحَبَشة حُكمها حُكم اللغة المذكورة هنا، لأنها لهجة عربية قديمة اختلطت بألسنة أهل إفريقية على ما ذكرنا قبلُ، فدخلها شيء من العُجمة كما هي الحال في لهجاتنا المحلّية الآن. ولسنا نَبعد عن الحقيقة، إذا فسّرنا ذلك بأن ألفاظ « سَنَه وسَنًا وسَناهْ » هي انحراف حبشي في اللغة العدنانية، أعني أنه « حَسَنٌ أو حَسَنةٌ » بحذف الحاء كما ذكر الكرماني لثقلها على من يخالط الأعاجم، مع زيادة الهاءِ في الأولى والألفِ في الثانية للوقف والاحتفاظ بهاء السكت في الثالثة.

وعلى هذا، فالفصاحة النبوية الكريمة خالصة من كل شائبة أعجمية بعون المولى - تعالى - لأنه ﷺ هنا يستعمل كلمة عادت إلى لغة بني عدنانَ بشكل جديد،[٢] لا لفظًا أعجميًّا بالمعنى العلمي المقرَّر. وكذلك الشأن في

---

(١) طبقات فحول الشعراء ص١١. وانظر الخصائص ١ : ٣٨٦.

(٢) لا نجيز لأنفسنا الزعم أنّ الطفلة بعد شبابها لفظت الكلمة على عادتها الحبشية خلافًا لقول النبي ﷺ، لأننا نعتقد أن الرواية للأحاديث الشريفة في « الصحاح » لا تكون إلّا باللفظ والمعنى، ولا يجوز تدخل اللهجات فيها، كما حققنا في كتابنا: تاريخ الاستشهاد النحوي بالحديث الشريف.

« مَهْـيَم »؟ الذي يعني: ما أمرُكَ؟ أو هو اسمُ فعلِ أمرٍ بمعنى: أخبرْني. فهو عربي لا يُعرَّب، وما زعمَه البعض فيه من أنّ أصله يمنيّ[1] إنما يعني أنه من لهجات العرب أيضًا، فلا حاجة إلى الاستشكال.

وللنبي ﷺ في هذا أُسوة حسنة بالقرآن الكريم، إذ ورد فيه من ألفاظ القبائل غير القُرشية عشرات من المفردات متفرقة في مواطن متعدّدة، حتى عقد السيوطي للوحي الرباني في كتابه « الإتقان »[2] عنوانًا لِما « وقع فيه بغير لغة الحِجاز»، أورد تحته ما كان من لغات العرب: أهل اليمن وأزدِشَنُوءة وحِـمْـيَـر وجُرهُم وسبأ وحَضْرَمَوت والعمالقة والنَّـبَط والحبشة والبربر والسُّريان والقِبط وهمْدان وعكّ وجُذام.

ثم إنّ النبي ﷺ كان بشكل عامّ يخاطب كل قبيلة بلهجتها، وهو في خطابه للجارية الصغيرة أُمّ خالد بخاصّة يذكّرها بما تعلّمته في غُربتها، ويلفظ الكلمات بالشكل الحبشي ملاطفة لها، أو يحذف الحاء من الكلمة تقليدًا لأمثالها في الكلام كما يفعل جميع الناس في محادثة الأطفال الصغار. وهذا الواحد الفذّ في ملايين مقولاته لا يعني أنه تكلّمَ برَطانة أو بلغةٍ غير عربية أو جانبَ الفصاحةَ في قوله المشرَّف، بل يحقّق ملازمته للنهج القرآني العربي المُبين، ويظاهر ما قرّرنا من سُـنِّـيّة عروبة اللسان قولًا وعملًا.

فإذا أضفتَ إلى هذا أنه قد حضّ على الفصاحة ودعا بالرحمة لمن لزمها، ثم أمر بذلك وقرّره فيما رُوي عنه من القول: « رَحِمَ اللّٰهُ امرأً، أصلَـحَ مِن لِسانِـهِ »[3]، و« أعرِبُوا الكَلامَ، كَي تُعرِبُـوا القُرآنَ »، و« تَعَلَّمُوا العَـرَبيّةَ. فإنَّها اللِّسانُ الَّذي يُكَلِّمُ اللّٰهُ بِهِ عِبادَهُ يَـومَ القِيامةِ »،[4] صارت لديك أربعة أدلّة على

---

(١) انظر المسند ٤ : ١٣ و ٦ : ٤٥٦ وغريب الحديث ٢ : ١٩١ والتاج (مهيم).

(٢) في ١ : ٢٨٣ - ٢٨٧. وانظر كتاب اللغات في القرآن لابن عباس.

(٣) الجامع الصغير ٢ : ١٩ و ١ : ٣٩ وإيضاح الوقف والابتداء ص٢٢ والإيضاح في علل النحو ص٩٦ وكشف الظنون ص١٩٣٤. واللسان: اللغة بما فيها من المهارات الكافية.

(٤) كنز العمال ١٠ : ٢٥٣ والإبانة في اللغة العربية ١ : ١١. وتكليم الله عباده بها قدسية أُخرى مهمّة =

هذه السُنِّيّة: القولُ والفعل والتقرير والأمر، وهي أشمل ممّا جاء عنها في المفهوم المعروف للسُّنّة المشرّفة بين العلماء.

ثم إنه قد ورد في عروبة لغة أهل الجنّة أحاديث، منها ما أخرجه الحاكمُ في « المستدرك على الصحيحين » عن عبد الله بن عبّاس رضي الله عنهما مرفوعًا والإمامُ الطبراني والعقيليُّ والبيهقيُّ والسيوطيُّ في « الجامع الصغير » وصحّحه، وما رواه الطبراني عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا، وما رواه الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا أيضًا. وهذه الأحاديث على ما قيل في أسانيدها[1] يعضدُ بعضُها بعضًا، وتُسانِدُ ما ذهبنا إليه.

وإذا تذكّرتَ معي أنّ ما واظب عليه النبي الكريم ﷺ هو سُنّةٌ مؤكّدةٌ تحقّقَت لديك قدسيّة عُروبة اللسان شرعًا عمليًّا، واصطبغ التزام لغة العرب الفصحاء بخصوصية ظاهرة قريبة جدًّا من الواجبات، ثم إذا استرجعتَ ما كان عليه جُمهور الصحابة من ممارسة للفصاحة دائمة، وعملُهم هذا هو جزء من السُّنّة أيضًا كما ذكر بعض العلماء، ازددتَ ثقة بمذهبنا، على أن يكون ذلك من سُنن العادات لا سُنن العبادات المكمّلة للدِّين. فقد جمعَتِ العربية هنا الفضل من أطرافه، إذ كانت توءمة للقرآن الكريم والحديث المطهّر، فأصبحت واجبًا إسلاميًّا يطالَب به المسلم اعتقادًا وعِلمًا وعملًا، وإلّا كان من العاصين. إذ المعروف المقرّر عند العلماء: مَنِ اعتقدَ ولم يعمل فهو مؤمنٌ عاصٍ.[2]

وعلى هذا، فإنه لمّا عرض الفخر الرازيّ (ت ٦٠٦)، لهذه المسألة في كتابَيه[3] « المحرَّر في النحو وشرح المفصّل »، استضعف الحكم الكِفائي

=جدًّا في هذا الموضوع.

(١) انظر المستدرك ٤ : ٩٨ والمعجم الكبير ١١ : ١٨٥ والأوسط ٥ : ٣٦٩ ومجمع الزوائد ١٠ : ٥٢ وكشف الخفاء ١ : ٥٥ – ٥٦.

(٢) الكليات لأبي البقاء ٣ : ٩ – ١٠.

(٣) انظر تذكرة النحاة ص٦٦٨ – ٦٨٩ والبحر المحيط للزركشي ٢ : ٥ ومفتاح السعادة ١ : ١٤٤ وفضل العربية ووجوب تعلّمها على المسلمين ص٢٧.

أي: أن يكون التكلّم بالعربية فرض كفاية، وقرّر الوجوب كما ذكرنا، لتكون لعُروبة اللسان عِناية أتمُّ من العناية بسائر علوم الآلة. بل لقد رُوي عن الإمام الماورديّ قولُه: « معرفةُ لسان العرب فرضٌ على كلّ مسلم[١] مِن مُجتهد وغيره ». وهكذا قطعت جَهيزةُ قول كل خطيب.

تقديس المسلمين للعربية:

من أجل ذلك كان الصحابة والتابعون والمتأخّرون يلازمون عُروبة اللسان، ويلاحقون الناس آمرين بالفصاحة والبيان. فقد رُوي أنّ رجلًا سأل أمير المؤمنين أبا بكر ﵁ حاجة وكان يَلحَن في كلامه، فقال له: « استُرْ عَورتَكَ، وسلْ حاجتَكَ »، فبادرَ الرجل ثوبَه ظانًّا أنه غيرُ ساترٍ عَورتَه، فنبّهه الفاروق ﵁ أنّ المراد هو إصلاح لِسانه.[٢]

ورُوي عن الفاروق ﵁ أيضًا أنه كان يقرن الدِّين بعروبة اللسان في الحكم، إذ يقول: « عليكم بالتفقُّه في الدِّين والتفقُّه بالعربية وحُسن العربية »،[٣] إذ تراه لا يكفيه الأمر بتعلّمها وإنما يغريهم بجمالها ويأمرهم بتمثّل حسنها ورونقها والتمتّع بما فيها من معالم الأناقة والبهاء، ثم تسمعه يجعلها كالفرائض من صميم الدين الحنيف فيقول: « تعلّموا العربية فإنّها من دِينكم، وتعلّموا الفرائض فإنّها من دِينكم ». ولم يكتف في هذا بالوعظ والتوجيه، بل كان يعاقب على اللحن، ولا يرى الصلاة خلف لحّان، وإذا رأى من يخطئ في القراءة فتح عليه[٤] بالتسديد، فإذا سمعه يلحن علاه بالدِّرّة يعاقبه.

---

(١) إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول ص٢٥٢. وذِكرُ المسلم هنا يعني المسلمة أيضًا، لأن الأحكام الشرعية هي كذلك إلّا ما قُيّد بخصوصية للنساء أو الرجال.

(٢) الإبانة ١ : ١٥.

(٣) كنز العمال تحت الرقم ٢٩٣٥٧. وانظر إنباه الرواة ١ : ١٦ والفاضل ص٤ ومعجم الأدباء ١ : ٧١ وتنبيه الألباب ص٧٠ وبهجة المجالس ١ : ٦٤ واقتضاء الصراط المستقيم ١ : ٤٧٠.

(٤) تنبيه الألباب ص٩٠ وإيضاح الوقف والابتداء ص٥١ ومعجم الأدباء ١ : ٧٩ - ٨٠. وفتح عليه أي: ردّ عليه يصحّح خطأه.

ورُوي أنه وَجد في كتاب عاملٍ لحنًا فأحضره وضربه،[١] ولمّا جاءه كتاب من أبي موسى الأشعري ﷺ في البصرة، وكان في أوله: « مِن أبُو مُوسى »، رأى فيه مخالفة اللهجات الفُصحى المشهورة، فكتب إليه يأمره بعِقاب الكاتب اللَّحّان قائلًا[٢]: « إذا جاءك كتابي هذا فاضربْه سوطًا، واصرفْه من عمله »، ثم أرسل إليه يأمره بتعليم مَن حوله لغةَ العرب مِن المَوالي والمتعرّبين في البصرة وفارس[٣]: « أن مُـرْ مَن قِبَـلَكَ بتعلّم العربية... ولْيُعلِّمْ أبو الأسود أهلَ البصرة الإعرابَ ». ومن هذا ترى أنه يعتقد بسُنّيّـة الفصاحة بين غير العرب من المسلمين أيضًا، حتى إنه عندما سمع رجلًا يتكلّم بالفارسيّـة في الطواف بالكعبة المشرَّفة، وهو في عبادة كريمة، أخذ بعضُده وقال له: ابتغِ إلى العربيّة سبيلًا.[٤]

وكذلك كان ابنه عبد اللّٰه وعبد اللّٰه بن عبّاس وآخرون من الصحابة ﷺ، يتتبّعون اللحن بالزجر والعقوبة ما أمكنهم ذلك. فهم يرَون ارتباط الفصاحة بأمور الدِّين والسُّنّـة المطهَّرة ارتباطًا لازمًا، وأن ممارستها تهيّئ لهما السلامة والحضور في النفوس والأعمال. هذا أُبَيُّ بن كعب ﷺ يقول: « تعلّموا العربية كما تتعلّمون حفظ القرآن »،[٥] ولمّا سمع الحسن البصري مناظرة قوم في النحو قال: « أحسَنوا. يتعلّمون لغة نبيّهم ﷺ »،[٦] وكان إذا عثر لسانه بشيء من اللحن في العربية يقول: « أستغفرُ اللّٰهَ »، فقيل له في ذلك فقال: من أخطأ فيها فقد كذب على العرب، ومن كذب فقد عمل سُوءًا.[٧]

ومِثل ذلك في التشدّد والمتابعة والتقويم ما رُوي عن ابن مسعود والحسين

---

(١) إرشاد الأريب ١ : ٢٠ - ٢١.
(٢) تنبيه الألباب ص٩٠ وإيضاح الوقف والابتداء ص٢٥ والبيان والتبيين ٢ : ٣٤٤ ومراتب النحويين ص٦ وشرح المفصل ٢ : ٩٥.
(٣) إيضاح الوقف والابتداء ص١٥ و ٣١ وإنباه الرواة ١ : ١٦. وانظر تنبيه الألباب ص٧٠.
(٤) رواه البيهقي في شعب الإيمان. وانظر الحديث ٩٠٣٨ في كنز العمال وأخبار النحويين ص٣٤.
(٥) تنبيه الألباب ص٧٦ والأضداد ص٢٣٩ والوقف والابتداء ص١٧ و٢٣ - ٢٤.
(٦) الإبانة ١ : ١٣.
(٧) أخبار النحويين ص٤٩ وحلية الأولياء ٣ : ١١ وسير أعلام النبلاء ٦ : ١٩.

ابن عليّ وابن عبّاس وأبي ذرّ الغِفاري وأبي الأسود الدؤلي وآخرين. ولأنه ليس في يد عبد الله بن عُمر دِرّةٌ أبيه يقوّم بها ألسنة الناس ويعاقبهم، فإنه لمّا سمع رجلًا بجانبه يلحن آذاه ذلك، وأرسل إليه من ينبّهه ويقول له: « إمّا أن تتنحّى عنّا، وإمّا أن نتنحّى عنكَ ». ومن ثَمّ فإنه كان مؤدِّبو المدينة المنوّرة يضربون الأطفال على الخطأ واحدة، وعلى اللحن سِتًّا.[1]

وقد استمرت هذه السُّنّة الكريمة في حياة المسلمين، يَلزمون حدودها ويقوّمون من خرج عليها بما تيسّر من الوسائل، فكان الإمام مالك يقول: « مَن تكلّم في مسجدنا بغير العربيّة أُخرِجَ منه »،[2] وعندما سمع أبو زيد الأنصاريّ رجلًا يتكلّم بهُجنةٍ زجره، فسأله الرجل: أتتّهمني في دين الله؟ قال: « أتَّهِمُكَ في لغة رسول الله ».[3] فالمسألة قضيّة شرعيّة دينيّة، ترتبط برضا الله - تعالى - ورسوله العظيم، ويحرص المسلم على حفظ أصولها وأدائها. ولهذا فإنه لمّا دخل أعرابي السوق، وسمع مِن الباعة خللًا في الكلام، قال متعجّبًا: يَلحَنون ويُرزقون، ونحن لا نَلحَن ولا نُرزق!

وهذا الحرص المرتبط بالعقيدة والشريعة حمل المسلمين الأوائل على عَوربة البيئات التي يحلّون فيها بالتي هي أحسن. قال ابن تيمية: « كان المسلمون المتقدّمون لمّا سكنوا الشام ومصر ولغةُ أهلهما رومية، وأرض العراق وخراسان ولغة أهلهما فارسية وأرض المغرب ولغة أهله بربرية، عوّدوا أهل هذه البلاد العربيةَ، حتى غلبت على أهل الأمصار ».[4]

---

(١) الإبانة ١ : ١٨.

(٢) فتاوى شيخ الإسلام ٣٢ : ٢٥٥. ومن الآداب العامّة أنه إذا كان الإنسان في ديار قوم غرباء فعليه أن يحترم شعورهم في تصرُّفاته، ولهذا يحاول إذا زار بلدًا أجنبيًّا أن يعرف لغة أهله ليخاطبهم بها. أمّا الأوربّيون وأمثالهم من المستعمرين فيتعمّدون في السياحة والزيارة والعمل إهانة غيرهم اعتزازًا باللغات الخاصّة والإصرار عليها، مع أنهم يدّعون الحضارة والإنسانية.

(٣) أخبار النحويين ص٤٣. وانظر المهارات اللغوية وعروبة اللسان ص٤٤ - ٥٥.

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم ١ : ٤٦٩ - ٤٧٠. والمراد بالرومية والفارسية والبربرية هنا ما كان من لهجات عربية مستعجمة.

وأنت تعلم أن ما ذُكر هنا من الأقوام كان بعضهم من العرب في العصور الجاهلية، كما ذكرنا في عدة أبحاث لنا قبل، والآخرون في خُراسان بعضهم من غير العرب، فسادت عروبة اللسان في ديارهم مع احتفاظهم بلغتهم الوطنية، وكان في تلك الديار ما عُرف من العلوم والآداب والفنون بلغة القرآن الكريم والحديث الشريف، انطلاقًا من توءمتها ولزوم أساليبها في التفكير والتعبير والتصوير، لنيل رضا اللّٰه ورسوله وصالحي المؤمنين. ثم ضعف هذا الهاجس الوجداني الأصيل لدى غير العرب بخراسان في القرون التالية كما قال ابن تيمية، وتساهلوا في أمر اللغة واعتادوا الخطاب بالفارسية حتى غلبت عليهم، وصارت العربية مهجورة عند بعضهم. وهذا أمر مكروه.

ولذلك انتقل ابن تيمية بعدُ من مستوى الكراهة لاستعجام العربي إلى مرحلة وجوب العَوربة، فقال: « كان السلف يؤدّبون أولادهم على اللحن. فنحن مأمورون أمر إيجاب أو أمر استحباب أن نحفظ القانون العربي ونُصلح الألسن المائلة عنه، لأن اعتياد العربية يؤثّر في العقل والخُلق والدِّين تأثيرًا قويًّا بيِّنًا، ويؤثّر في مشابهة صدر هذه الأُمّة من الصحابة والتابعين، ومشابهتُهم تزيد العقل والدِّين والخُلق »، ثم ذكر الوسائل المعبِّدة لهذه السبيل بأن الطريق الحسن هو اعتياد الخطاب بالعربية حتى يتقنها الصغار في المَكاتب وفي الدُّور، فيظهرَ شِعار الإسلام وأهله، ويكونَ ذلك أسهل على أهل الإسلام في فقه معاني الكتاب والسُّنّة وكلام السلف بخلاف من اعتاد لغة ثم أراد أن ينتقل إلى غيرها.[1]

وقد ثَبَتَ في نفوس المسلمين هذا كله، فصارت العربيةُ بينهم بألفاظها وحروفها أصلًا مهمًّا في كلامهم، والتعبيرُ بها مَحبّة للإسلام وعبادة للّٰه - تعالى - وطاعة لرسوله الكريم، حتى لقد أصبح في قلوبهم ارتباط جازم أن كل العربي هو مسلم، وأن حروف العربية هي حروف إسلامية، فكتبوا لغاتهم

(١) الاقتضاء ١ : ٤٦٩ - ٤٧٠. وانظر: لغتنا والمؤامرة ص٢٤ - ٢٥.

الوطنية بالحرف العربي المُشرق يعتزّون به ويتقرّبون إلى اللّٰه ورسوله. ثم كان هجوم الحُلفاء الوحشيُّ من الشرق والغرب على العالم الإسلامي بالقتل والتخريب والإفساد والتكفير ومحق العلوم والمعارف والآداب والتبويش، فأزال كثيرًا من مظاهر العربية بين المسلمين جميعًا، وأقام الحواجز المصطنعة بين عناصر التوءمة المباركة بفرض لغاته المخرِّبة واللهجات العامية الخبيثة.

وعلى الرغم من ذلك بقيت القلوب متعلقة بتلك المحبة والعبادة والطاعة، تمارس العربية لغة وكتابة في أجواء الطغيان والقهر والتجهيل. ومنذ نصف قرن رأى شابّ سوري في حديقة بالعاصمة الروسية امرأة عجوزًا تبسط بين يديها ورقة قديمة مُهَلهَلة، وتُعيد النظر فيها مرارًا وهي تبكي وتمسح دموعها بتكتّم ورهبة، فأشفق عليها وتقرّب منها يسألها عما تقرأ، فقالت له بكل اعتزاز وقد علمتْ من لهجته أنه عربي: « قرآن كريم ». نظر الشاب في الورقة فإذا فيها كتابة عربية ليست من القرآن في شيء، فشرح لها ذلك ووعدها أن يحضر لها من الشام مُصحفًا تتعبّد بتملّكه والنظر إليه وتتبارك، ثم حقّق لها وعده بصدق ووفاء.

هذه هي حال المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وقد مُنعوا[1] بالقوة والعنف من ممارسة دينهم وعربيّة القرآن الكريم، وفُرضت عليهم الوثنيةُ واللغات الخبيثة. أمّا الوثنية فهي في شعارات القومية الخبيثة والوطنية والحرية بعيدتين عن شريعة اللّٰه - تعالى - وفي أنظمة الاشتراكية والرأسمالية، وأمّا اللغات الخبيثة فهي اللهجات العامّية المحلّيّة وتقبّل اللغات الأجنبية بأيّة صورة كانت من الفساد.

الحرب على التوءمة:

بعد تحقُّق هذه القدسيّة الكريمة للغة القرآن الكريم والرسول العظيم فيما

(١) هذا ما جرى في تركية وغيرها من البلاد الإسلامية، وفي البلاد العربية أيضًا حتى شاعت العاميات ولغات الاستعمار.

كان من تاريخنا المشرِّف، لِصلة الإنسان بالمَولى - تعالى - في الوحي المنزّل وبالرسول ﷺ، ولاعتزازِ العرب بلسانهم دون سائر اللغات، وتعزيزِ اللّه ذلك بعُروبة القرآن الكريم، وتأكُّدِ سُنّيّة الفصاحة قولًا وفعلًا وتقريرًا وإيجابًا، والتزامِ الصحابة والتابعين ومَن بعدهم بعروبة اللسان ورعايتها وحفظ منزلتها الفائقة، بعد هذا كله نسأل أنفسنا الآن: أين هذه القُدسيّة المنشودة وتلك التَّوءمة الغالية؟

لقد رأى حُلفاء الشرق والغرب أنّ وحدة المسلمين هي قائمة بالدين واللغة، واتفقوا على تحطيم تلك الوحدة بتشويه الإسلام وتمزيق سيطرة العربية، فنشروا الشبهات حول العقيدة والعبادة والأخلاق، وفرّقوا بين الأمّة الواحدة بالقومية والوطنية الوثنيّتين وبالمذاهب السياسية والطائفية الإلحادية الخبيثة. وهكذا فُرض على كل دولة التزام اللهجات العامّية واللغات الغازية، فكان مع تشويه اللغات المحلّية في بلاد النفوذين الشرقي والغربي فرض لغة الدولة المتسلّطة من الحُلفاء وغيرهم كالإسبان والأرمن والهنود...

وعلى سبيل المثال قامت حركة النزعاتِ القومية مع التفصيح في الشام، وفرضِ التلتين في تركية بالنهج الذي وضعه رجالات الاستعمار وفصّلوا أساليب تنفيذه في الرسم من اليسار إلى اليمين وطرائق اللفظ والتركيب والتعبير والتصويت والأداء، بتفخيم الأصوات وانحرافها عن السمات العربية إلى الأوربية مع إقحام أحرف مركّبة مفخّمة وصوتيّات غازية ملتوية متداخلة مضللة، لتحقيق مخططات الغزاة بتغلغلِ لغاتهم تهريبًا ورِشوة ونفاقًا وتآمرًا وتثبيتِ فصل الشعوب الإسلامية عن الخلافة واستمرار النزاع والخصام بين البلاد الشقيقة، ولتحطيم التوجّه الإسلامي في العلوم والفنون والآداب والثقافة والسياسة والاقتصاد وجميع سبل الحياة.

فقد كان واضع اللغة العُثمانية بعيد النظر عمليًّا فاستفاد من إيجاز العربية في الكتابة، بخلاف قصور نظر واضع اللاتينية يُصرّ على رسم كل حركة صائتة، وليس في حروفه ما يقابل الحروفَ العثمانية: الثاء والحاء والخاء

والذال والشين المفردةَ والصاد والضاد والظاء والعين والغين والقاف والألف والواو والياء المدّيات المفردةَ ولا الحركاتِ الصوتيةَ البسيطة، لمّا كان هذا كله نُقلت الأصوات العُثمانية إلى الصورة المفروضة بأشكال معقّدة متداخلة ومطوّلة جدًّا ضيّعت معالم الأصل الوطني المشهور، ثم جُعلت بالتصويت اللاتيني الغازي مفتعَلة ملفّقَة مديدة الأشكال والصور.

وفي الشام نادى رجال الدولة الخائنون المنافقون وأنصارهم بوجوب الفُصحى في اللغة كما رسم الغزو الاستعماري لا بوجوب الصحيح المُعافَى، وتابعوا حمل الناس عليها بالوسائل المختلفة من الكتابة والقول، زاعمين كذبًا وبُهتانًا أنّ العرب كانت لغتهم كذلك في الجاهلية والإسلام. والحق أن بعضهم كانوا عليها، وآخرين لغتهم هي الفصيحة، وآخرين يستخدمون اللغة الصحيحة، ودونهم مَن كان على لهجة ضعيفة أو رديئة، ثم أولئك المجاورون للفرس والروم والهنود والإفرقيِّين لهم لهجات عربية مستعجِمة منها السُّريانية والفينيقية والآرامية والأكّادية والحبشية واليمنية والحضرمية والنَبَطية والكنعانية والقِبطية والبربرية... زعم المستشرقون أنها لغات سامية لا عربية.

وقد كان هؤلاء ودعاة التفصيح يعلمون أن مزاعمهم باطلة، وأن تحقيق ما ذهبوا إليه في المستويات المختلفة من المواطنين مُحال. ومع هذا فقد راحت المؤسسات والمنظمات في سورية تسعى لتفصيح التعليم بجميع مراحله، وتوجّهت إلى وسائل الإعلام والإعلان فزوّدتها برجالات تقويم وسداد لينشروا الفصاحة العالية، ملتزِمين فيما يُبثّ أو يُذاع أو يُعلَن أن يكون بالزِّيّ العربي الأفصح بعيدًا من كل لهجة صالحة، ويمنعون ما يخالف ذلك في كل مجال إعلاني أو إعلامي أو تعليمي، ويساعدون البيئة على السير في ذلك بفُصحى الممارسات التعبيرية والاهتمام باللغة اليعربية المقدسة. ولما كان هذا متعذِّرًا تثبيته في جميع الميادين اكتُفي منه أن يبقى في الميدان الحكومي الظاهري لحاجة في نفوس أصحابه.

وإني لأذكر أنه منذ خمسين سنة مُنعتْ شركةٌ صناعية ناشئة في مدينة حلب أن تتّخذ كلمة « كرِيْسْتالْ » عنوانًا لإنتاجها، وهي لفظة أعجمية خالصة كما ترى في الصيغة ومخارج الحروف والسكون أولًا وآخرًا والتقاء الساكنين في الوسط. وقد عَرض عليّ ذلك حينئذ مجمع اللغة بدمشق شاكرًا، فرأيت أن يُجرَى في اللفظ تعديل يُدخِله حيّز التعريب في الصيغة والأداء. وذلك بحذفِ ما يعرقل الجنسية العربية منه وتقويمِ التصويت فيه ليصير على غِرار: قِـرسْطال[1] وطِـرِمّـاح وشِـقِـرّاق وجِـلِبلاب وتِكِلّام وسِـرِطراط وكِـلِمّـان، أي: بجعله على صورة « كِـرِسْتال » صوتًا وبُنية مع احتفاظه بالبريق في المعنى المقصود. ولمّا وصل ذلك إلى الأوصياء على عروبة اللسان أقرّوه، وسمحوا لأصحاب الشركة باتخاذه سمة لإنتاجهم فكان له حضور واقعي مشهود للتفصيح مدة من الزمن، ثم عاد إلى الثوب الأوربي الخبيث.

وجريًا على ذلك كانت أصوات الأوصياء تتعالى بوجوب الفصحى في كل مجال، وتسفّه ما يرد على الألسنة والأقلام من مخالِفات ذلك، بمقالات وكتب وتوصيات عنيفة متلاحقة للتحريم والتأثيم. ثم تبيّن أن كثيرًا ممّا أُلقي في هذا الميدان - وبعضه فيما صدر عن ندوة « اللغة العربية والإعلام » في مجمع اللغة العربية بدمشق - كان مبنيًّا على مذهب نحوي أو لهجات معيارية خاصّة ولغيره وجهٌ من الصواب، اعتُمد في تخطئته على مصادر محدودة مع أنه صحيح سويّ البنيان.

وكذلك فعلتْ بعض الأقطار الشقيقة في قليل من المستويات الثانوية والجامعية، ثم تردّدت هي وغيرها في الترجّح بين العَولمة والتفصيح، وكانت لديها خطوات متعثّرة ورِدّة في كثير من الأحيان. وما بَرِحَت أكثر الدول العربية حتى الآن تطلق على الشهادات التربوية والتعليمية أسماء أجنبية، كالليسنس والبكلوريوس والدبلوم والدكتوراة والماجستير، وفي

---

(١) القرسطال: الغبار. انظر التاج (قرسطل) وارتشاف الضرب ١ : ٦٨ والمزهر ٢ : ٣٤.

ذلك ما فيه من العار والدسائس اليهودية الخبيثة.[١]

وعندما تمّ للمستعمرين ما أرادوا من الانفصال عن الدولة التركية بالتلتين وتفصيح بعض العلوم وبلبلة اللسان العربي، ظهرت الدعوة إلى اللهجات المحلية في الأقطار والمدن والقرى، فسادت العامّيات ميادينَ العلوم والآداب والإعلام والإعلان، وأصبحت وسيلة للتربية والتعليم في الرياض والمدارس والمعاهد والجامعات والمساجد، حتى لقد شاع تفسير القرآن الكريم باللهجة القاهرية في مئات المجالس، وعُرضت حلقاته مدّة عشرين سنة في الإذاعات والتلفزات. فإن اعتُذر لهؤلاء بأنهم يخاطبون قِطاعات عامّية لا تدرك فصيح الكلام كان في ذلك مغالطة أو غباء من المعتذرين واستجهال للناس الطيّبين.

فهذه القِطاعات المذكورة تسمع من الإذاعات والتلفزات وبعض المساجد كثيرًا من ذلك الفصيحِ والشعرِ الفائق البيان، وتتفهّم مقاصد القول في نشرات الأخبار والتعليقات عليها وفي المجالس العلمية الرائقة وفي التوجيه والنصح والإرشاد. بل إنّ جميع الأفلام والمسلسلات والمعلومات والدسائس الأجنبية تُترجَم لهم أو تُدبلَج بالفُصحى والفصيح لفظًا أو كتابة، أمِن مصدر إنكليزي كانت أم فرنسي أم ياباني أم صيني... وأطفالهم الصغار أيضًا يتلقّون ما يخصّهم من تلك الترجمات والدبلجات بالفهم والحفظ والتداول دون عجز أو قصور. أفيَصحّ هذا فيما هو عن الأجنبية بيسر وانطلاق، ويختلّ في التفسير والوعظ والتعليم؟ ألا إن الساقطين في ذلك ينساقون مع العَولمة الخبيثة، فيستصغرون المخاطَبين بل يحتقرونهم، ليثبّتوا أركان العامّيات المحلّية، ويُبعدوا الناس عن حوض العُروبة الشريفة، ويفصموا عُرى التوءمة المباركة.

ولقد نُشر بعض تلك المجالس التفسيرية وغيرُها من المقولات والأشعار العامّية في كتيّبات بين أيدي الناس وبالحروف العامّية واللاتينية أحيانًا، لتثبيت

---

(١) هل تعلم أن درجة « ماجستير » تعريب « مايسترو »، أي: قَوّاد الحفلات الداعرة في الملاهي والمواخير، وأن درجة « دكتوراة » تعني: معلّـم التوراة، أي: حاخام؟ فهل مَن تخصّص من الزملاء والزميلات حاخامون وحاخامات؟

سلطان اللهجات والأجنبيات وترسيخ جذورها في النفوس والأذواق والأقلام ولتشجيع الرَّطانات العامّية والمذاهب الطائفية المتناحرة وتقسيم البلد الواحد إلى مناطق متمايزة متخاصمة في الدين واللغة ومختلِف الأعمال. وأعجبُ من هذا أن تشهد معي وتسمع، في ندوات لمعالجة الواقع اللغوي العربي بجامعات القصيم وغيره من بلاد العرب، تطاوُلَ المصلِحين بعامّياتهم المحلّية، وهم يعتزّون بمفاخر العربية ويبكون على واقعها البائس وحالها المُزرية وما تعانيه من ظلم الغزو الاستعماري البغيض والتهافت العربي القميء.

وكذلك الحال في سوريّة بدأ يتدنّى منذ أواخر القرن الماضي، ليمثّل بعض الرِّدة أيضًا في التوجّه. ذلك أنّ الأساتذة والمدرّسين المتقنين للعربية فكرًا وتعبيرًا وإبداعًا تناقص عددهم مع الزمن، وصار يوفد إلى الغرب والشرق أغبياء الدارسين ممّن ليسوا على ثقافة أصيلة وتمكُّن من المهارات اللغوية، فأجهضوا هناك بقايا ما يحملون من البيان، وعادوا إلى الوطن عاجزين عن تمثُّل عروبة اللسان أجانبَ في التفكير والتصوّر والأداء لفظًا وكتابة، يوجّهون الطلّاب والدارسين بمستويات من العُجمة والمحلّيّات البغيضة.

فأنت تسمع الآن في الكلّيات العلمية والإنسانية والمساجد والمجالس الدينية والأدبية والإذاعات والتلفزات والصحف، وترى فيما يُنشر من القصص والأشعار والأبحاث نماذج من التخليط بين العربية واللهجات المحلّية ولغات الأعاجم في فرنسة وألمانية وروسية وإيطالية وإسبانية وإنكلترة وأمريكة واليابان... بل إنك لتجد مجالس الحُكم في التعليم العالي تناقش الأطاريح والرسائل بكثير من العبارات العامّية أو الأعجمية. وبذلك أصبح المرء داخل وطنه كما يقول المتنبي غريب الوجه واليد واللسان.

ومنذ بضع سنوات زارني أخ باكستاني من عاصمة إنكلترة ليقرأ عليّ بعض كتاب « مغني اللبيب » لابن هشام، فكان جيّد القراءة والفهم والاستفادة، لكنه يطرح الأسئلة والحوار باللهجات العامّية الدمشقية. ولمّا أنكرت عليه ما يفعل أجاب بأنه كذلك كان يحدّثه الأساتذة في دمشق حين قرأ عليهم بعض الكتاب، فقلت له بشيء من التهكم: « كان على كل منهم، قبل خروجه من الدار وهو ينظف حذاءه وأسنانه، أن ينظف أيضًا قلبه ولسانه ». ولمّا بلغ قولي هذا أسماع بعضهم غضب ولامني لأنني كما قال أهنتُ العلماء، فأجبته أنّ من يعلّم العربية باللهجة العامّية لا يمكن أن يكون من العلماء، فقولي ذلك يخص المدّعين للعلم والفضل والعاملين على فصم عُرى التوءمة الكريمة.

وهكذا عادت أصباغ العبودية تسوّد وجه سوريّة، لتزحزحها من مرتبة الريادة والصدارة وتشوّه ألسنة طلّابنا وأذهانهم وأقلامهم، وصرنا إلى ما يعانيه أشقّاؤنا من استعجام في تلك الأقطار، بتصدير الجامعات والمعاهد والمدارس أخلاطًا من الجنسيات العالمية في العقول والأفهام والخطاب. وما حال سائر البلاد الإسلامية بأفضل من هذا. ولا أكتمك - أيها الأخ الكريم - أنه سألني بعض المدرّسين والمعلّمين غير مرّة على استحياء: « كيف نُحبّب اللغة العربية إلى الطُّلاب »؟ وما أظنّ ولا تظنّ أنت معي أن أُمّة، مهما انحدرت في مهاوي السقوط والهوان، يُطرح فيها مثل هذا السؤال عن واقع لغتها الوطنية أو الدينية.

ومقابل ذلك الإعراض ما وقع لي منذ خمس سنوات في تركية. فقد دُعيت إلى إلقاء محاضرة في كلية العلوم الإسلامية بجامعة إستنبول، واخترت أن تكون أولى محاضراتي في هذا البلد الكريم الطيّب عن قدسية اللغة العربية، ولمّا نزلت من المنصّة قابلني الأساتذة والطلّاب والطالبات بالشكر والتقدير، وقدّمت إليّ طالبة من السنة الدراسية الرابعة بابتسام هدية لطيفة عظيمة، كانت أحبّ إليّ من جميع ما أُهدي إليّ في حياتي، تعليقة

صغيرة دائرية للزينة، رُسم فيها القلب وكُتبتْ ضمنَه وحوله هذه العبارة: أُحِبُّ اللغةَ العَرَبيّـةَ لأنّ القُرآنَ والحَدِيثَ باللغةِ العَرَبيّـةِ:



لا أكتمك أيضًا أنّني تذكّرتُ آنذاك ما كنتُ أسمع وأعاني من إعراض العرب عن لغتهم وذِكرهم لها، فوثبَ قلبي من الانفعال وكاد يتهاوَى، ودمعت عيناي من الألم والفرح معًا، لا أدري: أدمعٌ للحُزن حارٌّ هو أم دمعٌ للفرح باردٌ؟ بلى إنّه مزيج منهما معًا بأمر اللّٰه. أرأيتَ: كيف يجتمع الضِّدّان في مكان واحد وزمان واحد؟ سامحَ اللّٰه شيوخَنا رجالَ عِلم الكلام، إذ زعموا لنا وعلّمونا أنهما لا يجتمعان، وها هما ذان قد اجتمعا، أحِسّ بهما معًا، وأتمتّع بهما حقًّا.

إحياء التوءمة:

أمام هذا الواقع المأسويّ للغة العربية في بلاد المسلمين جميعًا وهي تسير في مخطط العَولمة المعاصرة، يقتضي الأمر منّا السعي في تجديد حياة التوءمة بالوسائل العملية الفعّالة. فنحن لن نواجه ذلك بأسلحة الحديد والنار والجراثيم أو شامل الدمار، لأنها لا تجدي شيئًا في هذا الميدان، وإنما يكون سلاحنا هنا العَوربة، أي: العودة بالمسلمين إلى ما كانوا عليه في اللغة قبل سيطرة المستعمرين عليهم. وإنما تكون هذه العودة بعمل الفكر منا والتدبّر واللسان، لإحياء توءمة العربية والسُّنّة والقرآن. فبالقول الميسّر خطابًا وكتابة وتأليفًا وتعليمًا وتوجيهًا، نستطيع أن نتحمّل تلك الواجبات، ونقدّم ما نحمل من المَهامّ العُظمى في ميداننا المبارك.

وعلى هذا فنحن لا نعني بالعَـوربة تعريبًا، كما يفهم بعض السامعين والباحثين والقُرّاء، إذ كلنا مسلمون عرب أو نحب العربية - والحمد لله رب العالمين - وغيرنا من الأمم لسنا مكلّفين بتعريبهم، إنما علينا التبليغ والإعلام والإيناس والتقريب والتعليم. فإن تعرّبوا بأنفسهم رغبة منهم فبها ونعمتْ، وإلّا كنا قد قمنا بما علينا من الواجب، وكفى الله المؤمنين القتال.

فالمراد بالعَوربة إذًا ما قام به أجدادنا القدماء من المسلمين، في نشر العربية عالميًّا من الأندلس إلى إندونيسية ومن فاراب إلى جنوبيّ إفريقية واليمن، حتى إنه ما زال الأفغانيون غرب « مزار شريف » وبعض أهل تاجيكستان يتحدّثون باللغة العربية. ومثل هذا كثير في الجمهوريات الإسلامية بشرقي أوربة وشمالي آسية والصين الشعبية وأوساط إفريقية وغربيها وتركية، مع استعمالِ الحرف العربي في الكتابة أيضًا على أنه الحرف الإسلامي، والظنّ أن كل عربي هو مسلم، رغم ما نزل بها من بطش الشيوعية الملحدة والرأسمالية الوثنية واليهودية المعاصرة، وما فُرض عليها من أساليب العَـولمة الغاشمة.

وتنفيذ ذلك العمل الكريم من العَوربة يتطلّب منّا الآن مرحلتين متواليتين هما: السعيُ في بلادنا الإسلامية لتأسيس ما يتصدّى بعُروبة اللسان للصرخة العَولمية المعاصرة المسعورة، ثم الانطلاقُ بعروبة اللسان إلى حقول التيّار العَولمي ثم إلى بؤرته، لِـمزاحمته وغزو دياره في هذا الكوكب الصغير. والتصدّي يكون بتثبيتِ الصحة اللغوية في النفوس والأقلام والأفهام، وإشاعةِ استعمالها في كل مجالات الحياة، وسيطرتها على العقول والضمائر، وصيرورتها وسيلة في البيان والتعليم والوعظ والإعلام والبحث، محبةً ورغبة في السيادة والانتشار.

فالتعليم بمراحله المختلفة والإعلام بأشكاله المتعدّدة والتوجيه الديني فقهًا وخُطبة وتفسيرًا وإقراء في البلاد العربية، والـتعامل بمثل:[1] الكِبتار

(١) الكبتار تعريب للفظ الأجنبي المتداول، ليكون منه مصدر هو الكَبترة يعبِّر عن جميع العمليات التي يقوم بها الجهاز المذكور، ثم تُشتق من هذا المصدر صيغ الأفعال: كَبتَـرَ يُكَبتِـرُ كَبتِـرْ، والصفات: مُكبتِـر ومُكبتَر ومُكبتَرة... والبرساخ نحت من البرقية المنسوخة، يكون منه مصدر هو البَرسَخة، =

(الكومبيوتر) والمحمول (الموبايل) والبرساخ (الفكس) والتواصل (الإنترنيت) والكَترُون (الألكترون أو الإيميلَ) والكُنّاش (الفلاش)... كل ذلك يجب أن يكون بالصحيح من الكلام، لا بالأفصح والأعلى إكرامًا للقرآن الكريم كما يُشيع الأوصياء على العربية بغباء وجهالة. فلغة القرآن هذه هي العرَبانيّةُ العليا الفائقة كلَّ بيان، لا يستطيع أن يجاريها أحد من الإنس أو الجانّ.

أمّا الحوار اليومي في السوق والشارع والنادي فيجري باللغة الوُسطى. وفي الاستمرار بهذا الاتجاه تعزيز المُناخ اللغوي الصحي، لتكوين الملَكة السليمة المعافاة، أي: عَوربة اللسان. نسعى في ذلك بين أبناء العروبة، ثم ننقله إلى الشعوب المُحبّة للغة الإيمان، في البلاد الأُخرى من ديار المسلمين. وهذا يعني أن نستبعد دعوة التفصيح التي ينادي بها الأوصياء على العربية، وننسّق جهودنا في بلاد العرب ضمن توزيع المستويات العملية التالية:

١ - اللغة العربية الفُصحى هي خاصّة بالأدباء، فيما ينتجون من شعر ونثر فنّي، ليكون في أعلى مراتب الفصاحة والجمال والبيان الإنساني ممّا يناسب العمل الأدبي الرفيع.

٢ - اللغة العربية الفَصِيحة تكون خاصّة بالعلماء، فيما يصنّفون ويبحثون ويؤلّفون ويتحدّثون، لأنهم يتناولون معلومات وحقائق عميقة تحتاج إلى التعبير الدقيق بالأسلوب الفصيح للدلالة العلمية التي هي غاية في البيان.

٣ - اللغة العربية الصَّحِيحة التي كانت بين القبائل العربية غير القرشية تخصّ الموجِّهين في غير مجالات الفن الأدبي والبحث العلمي. فالمعلّمون

= تُشتق منه الأفعال: بَرسَخَ يُبرسِخُ بَرسِخْ، والصفات: مُبرسِخٌ ومُبرسَخ ومُبرسَخة... والجهاز كما ترى هو على وزن: فِعلال. وكذلك الكِبتار من الكَبترة. وقال الخليل بن أحمد وسيبويه: « ما قيسَ على كلام العرب فهو من كلامهم ». والتواصل والمحمول أصيلان في العربية، وقادران على التعبير عما يُستخدم فيه من ألفاظ أعجمية أو عربية غير مُسعِفة في الاشتقاق والاستعمالات المختلفة، إذ الواجب أن يُقترح في الترجمة والتعريب لفظ وَدُود وَلُود، يقدّم بالاشتقاق ما يغطّي حاجات التعبير المستجدّة، بخلاف ما ترى من قصور في مثل: الحاسوب والخلوي والموبايل والإنترنيت والفكس والناسوخ والإيميل والشبكة العنكبوتية...

والأساتذة والمدرّسون في جميع المستويات والمجالات المدنية والعسكرية، وخُطباء الجوامع والمساجد، ورجال الوعظ والإرشاد والإعلام والإعلان والحوار والندوات والمؤتمرات العامّة، والعاملون في ميادين القضاء من محامين وقضاة ومساعدين وخبراء، كل هؤلاء يكفينا منهم أن يحسنوا التعبير الصحيح وحده، دون مطالبتهم بالعربية الفصيحة أو الفُصحى أو العرَبانية، لأن هذه اللغات ليست من مُقتضيات أعمالهم في ميادين التوجيه والتعبير.

٤ - اللغة العربية الوُسطى تقتصر عليها جماهير المواطنين غير المذكورين قبلُ من رجال ونساء وشيوخ وأطفال، خلال ممارستهم شؤون الحياة اليومية في المنازل والشوارع والأسواق والحافلات والمنتديات والمسارح والملاعب والمهن المختلفة. ونعني بالوُسطى التعبير القريب من الصحيح من دون قصد للإعراب وتفاصح في دقيق البيان، وهو ما كانت عليه بعض القبائل غير العدنانية من لُغيّات معروفة.

وفي هذا ما يقرّب الناس يومًا فيومًا من مستوى الصحيح والفصيح والأفصح، ويُحمّل كل قِطاع بشريّ ما يناسب مستوى عمله في ميادين الحياة اللغوية، لتحتفظ عروبة اللسان بوجهها المُشرق في وظائفها المختلفة وغاياتها النبيلة، وتتنامى مع الأيام لتفرض نفسها في ميادين اللغات العالمية، وتستعيد توءمتها المباركة ومجدها التليد بعون الله وتوفيقه، لا بقرارات المؤسَّسات الدولية المتهوّدة من رجالات المنافقين المغضوب عليهم والضالِّين.

ومثل ذلك التوزيع للمستويات اللغوية يذكّرنا بما نطلبه من الصحّة الجسمية بين الناس. فالجمال الجسماني والتفوّق في المباريات العالمية تختصّ بهما زُمرة صغيرة من الشباب ولا يجوز تعميمهما على الجميع، وحسب الجماهير أن يكون لديهم صحّة الجسم وصفاء النفس، ليكون للأعمال نِتاج طيّب في الوطن الكريم، ثم بين هؤلاء وأولئك مستويات صحّية تناسب الأعمال المنوطة بالناس.

وإذا استطعنا أن نشيع العربية الصحيحة في جميع أنواع التعليم والإرشاد والإعلام، وعوّدنا أطفالنا أن يؤدّوا بها القراءة الصامتة دائمًا مع حفظ القرآن الكريم وكثير من الحديث الشريف والنصوص الأدبية الرفيعة وترديدها دائمًا بالبيان والإتقان، فإنني كفيل لكم بأن نتخفّف من دراسة القواعد النحوية في جميع مستويات التعليم، عدا الاختصاص في الآداب والعلوم الشرعية، إذ يكفي الطُّلّابَ غير المتخصِّصين فيما استثنَيتُ أن يتبيّنوا بعض المعلومات النحوية خلال القراءة والدراسة للنصوص والعلوم المختلفة، بشيء من البيان والتوضيح والتقعيد اليسير.

تلك الخطوات هي إجراءات في ميدان اللغة مُهمّة وناجحة بعون اللّٰه، ترافقها إجراءات في ميدان النحو لدعم العمل وتحقيق إحياء التوءمة. أعني أن نراعي حاجات الناس في مستقبلهم القريب والبعيد. فلا مفرّ من الأخذ بعين الاعتبار الغاياتِ التي يُعَدُّون لها والاختصاصات التي تُنتظر لهم والوظائف التي سيشغلونها في ميادين العمل والمهن والسياسة والإدارة والاقتصاد. فهؤلاء الذين يلتحقون بالمهن الحرّة أو ينتسبون إلى مختلف المعاهد العملية أو الجامعات العلمية والتطبيقية والفنية والعسكرية واللغوية غير العربية ما الذي يحتاجون إليه في أعمالهم المستقبلية وشؤون حياتهم، من معرفة الصور اللهجية للقبائل المختلفة، والمذاهب الجماعية والفردية للنحاة واللغويين؟ وماذا تقدّمه لهم معرفة الموضوعات النحوية التالية:

حالات المفعول معه، وتعدُّد صور الإعراب للاسم بعد « لا » النافية للجنس وبعد « لا سيّما »، والتابع لذلك وللمنادى وللصفة وللمضاف إليه مصدرٌ أو اسم فاعل أو مفعول، وشروط صياغة التعجّب والمدح والذم وأنماطها المختلفة حين تكون للمؤنث والمثنى والجمع بأشكاله وللمخاطب والغائب والمتكلم بمختلف الصيغ، وشروط تنكير المبتدأ أو تأخيره، والصفة أو الحال السببية والحال المؤسّسة أو المؤكّدة أو الموطئة، وشروط « إذن وحتى » في النصب، وعمل المصدر نكرة ومعرفة، وسد الفاعل ونائبه

والحال مسد الخبر، وشروط صياغة اسمَـي التفضيل والآلة والتصغير، وتقديم الخبر على المبتدأ وحذف أحدهما، وإهمال نحو« ليتما » وإعماله، والإعراب على المحلّ أو التوهّم أو الجوار، والاشتغال والتنازع، ولغة الحجازيين أو تميم في خبر « ما »، ومذهب الكوفيين والبصريين في خبر « إنَّ » وأخواتها، والعطف على اسم « إنّ » قبل الخبر وبعده، والعطف على فعل الشرط الجازم وجوابه، والاستثناء بـ « خلا وعدا وحاشا »، وأساليب الاختصاص والتحذير والإغراء، ودقائق التصغير والنسبة والتثنية والجمع وما يُلحق أيضًا، والصياغة لما هو نادر أو شاذّ من المشتقات وتصرُّفات الأفعال، والإعراب التقديري والمحلّي، ومسائل التمرين في الإعراب والصرف.

ومراعاة ما ذكرنا حتى الآن في المناهج يعني أن يكون توزيع المواد النحوية على طُلّابها تبعًا للحاجات الاجتماعية والخِبرات المقصودة والخِدمات المستقبلية في الحياة، فيكون فصل كامل بين قسمين من الدرس. أعني: النحو العملي والنحو العلمي.

أمّا **الأول** فهو لطلّاب المدارس والمعاهد والجامعات، من غير المختصّين بالعربية أو الأدب أو العلوم الشرعية، ويضم الموضوعات التي تكوّن مهارات القراءة والكتابة والفهم والتعبير. يبدأ هذا بالأساسيات من علمَـيِ الإعراب والصرف، ويتدرّج في التوسعة والتفصيل حتى التخرّج الجامعي، ضمن ذلك النطاق المحدّد. ومجموع المادة النحوية فيه لا يتجاوز مِائَةَ صفحة من القطع العادي، كالذي تراه في مثل كتاب « قواعد اللغة العربية » للأستاذ حفني ناصف وصحبه وأجزاء النحو الواضح. وحسب الطلّاب هؤلاء أصول تلك القواعد مبسّطة موضّحة، وخالية من التفصيلات والشذوذ والخلاف، تصحبها النصوصُ العملية والأدبية التي تصل المعلومات بما تقتضيه حيواتهم، والحوارُ الغنيّ بصور التعبير والتركيب المناسبين.

وأما **الثاني** فيقتصر على الأقسام والمعاهد التي تُـعِـدّ طلابها لتدريس النحو

والأدب والعلوم الشرعية، أو للدراسة العليا في هذه الموضوعات. فهؤلاء مُلزَمون أن يتمرّسوا بجميع مسائل النحو وقضاياه في الإعراب والصرف، وما يتفرّع عن ذلك من تاريخ لهذا العلم يبسط مراحِل نشوئه وتطوره، مع عرض لكثير من المذاهب والاتجاهات والخلافات والتوجّهات وتراجم الأعلام وتحليل لجمهور المصنّفات والدراسات التراثية والمعاصرة. ويكون في هذه المراحل الدراسية أيضًا تدرّج من ضِيق الأفق، إلى توسعة في تفصيل الأصول والشذوذ والخلافات اللغوية والمنهجية، ليكون في القمّة استيعابُ أهم ما سجله تاريخ النحو العربي، من استطالات وتفرّعات وتوجيهات، موزَّعًا بين المستويات المختلفة بحسب المهامّ المستقبلية لكلّ ضرب من التخصّصات المذكورة.

وبهذا تتوزَّع مناهج الدرس النحوي في ميادين التربية والتعليم، وتنتظم متناسقة متواصلة في شكل هرم مقلوب رأسًا على عقب، قِمّته ضيّقة المدى منكوسة متدنّية في المراحل الأخيرة من المدرسة الابتدائية، وقاعدته فسيحة سامقة في مؤسسات العلوم العربية والشرعية، وبينهما تدرُّج في الاتساع والتدقيق والعمق، وتنوُّع في مضمون المقرّرات يناسب المستوى النفسي والوظائف المرتقبة، ليتم البناء النحوي في المدارس والمعاهد والكلّيات، لجميع المواطنين في الأقطار العربية ثمّ الإسلامية، والمؤسّسات التعليمية التي تخصّ عروبة اللسان بالدرس والإعداد للممارسة تعبيرًا أو تعليمًا أو بحثًا.

فإذا حقّقنا ما ذكرناه في الميدانين اللغوي والنحوي بين العرب ثم بين المسلمين بما يحتاجون إليه، وعلّمنا كل جماعة ما يناسبها من واجبات العربية، استطعنا أن نعيد للتوءمة ماضيها العظيم، وللأمّة الإسلامية وحدتها المباركة. فهؤلاء الإخوة المسلمون الأحباب هم أنصار وعَون في المجالات العامّة، نزوّدهم بما يَنشر بينهم لغة القرآن الكريم والحديث الشريف، وهم يقدّسونها أكثر منّا ويتطلّعون إلى تعلّمها والعبادة بها، فنكسب المزيد من ودِّهم وتفهُّمهم لمشكلاتنا الوطنية والسياسية، ونُصرتهم لجميع قضايانا في

كلّ ميدان، ونُعيد لعُروبة اللسان مواقعها الإسلامية التي كانت لها في العصور الماضية برغبة الإيمان والصلاح.

وأنت لو تصفّحت على سبيـل المثال البسيط القريب العهد كتابَ « حركة التأليف باللغة العربية في الإقليم الشمالي الهندي في القرنين الثامنَ عشرَ والتاسعَ عشرَ »،[1] للدكتور جميل أحمد الأستاذ في القسم العربي بجامعة كراتشي، لوقفت على قُـرابة ٢٠٠٠ مصنّف، تعالج الكثير الكثير من مناحي العلم والأدب والفلسفة، مما يقرّب إليك سَعة المحيطات التي خاضها المسلمون غير العرب في هذا الميدان. بل لقد أضافوا إلى ذلك أيضًا اقتباس رسم الحرف العربي أي: الإسلامي إلى لغاتهم، يكتبون به ما يكون فيها، ويعلّمون أجيالهم هذا الأسلوب المحبَّب لديهم.

وحسبك أن تذكر عشرات الشعوب التي صارت تستعمل ذلك طواعية على مدى القرون المنصرمة، قبل أن يغزوها عدوان الشيوعيين والاشتراكيين والرأسماليين المُلحِدين المتهوّدين والمستعجمين، ليلوّث الحضارة الإسلامية العربية المشرقة، ويمسخ الألسنة والأذواق والقِيم والنفوس والأعمال العلمية واللغوية، برَطاناته وطُمطمانياته ومعلوماته المبتذلة المستنفَدة. ومع هذا كله، فقد بقيت أثارة من العَوربة الكريمة بين تلك الشعوب المؤمنة، تظهر في كثير من المناسبات.

وبجهودنا المذكورة قبلُ، نكون قد حصّنّا أفراد الشعب العربي والأمّة الإسلامية من الانزياح والتأورُب و**التبويش**،[2] ووسّعنا دائرة الردع للعُجمة

---

(١) انظر ص٥٠٩ - ٦١٠ منه. وهو من مطبوعات وزارة الثقافة بدمشق عام ١٩٧٧.

(٢) التبويش: ترجمة سياسية لِما يُعرف منذ أعوام باسم العَولمة. فهذه الصرخة المعاصرة كشفٌ لما كان يسعى إليه جميع زعماء أمريكة وحلفائها في السرّ والخفاء منذ عقود، تُنسب منذ سنوات إلى صاحبها الرئيس « بوش » العاشر بما تحمله من غوغائية وتسلّط وطغيان وعدوان وتدمير للبلاد والعباد والحضارات والقيم. فكأنّي به يرى نفسه زعيم يأجوج ومأجوج، ليزحف بهم إلى ما في الدنيا من خير يستأصله وينهي الحياة الدنيا. وعندي أن هذا الرئيس وأمثاله هم غضب من الله - تعالى - صبّه علينا لتقصيرنا في عُـدد الجهاد والسيادة، وانشغالنا بحب الدنيا وكراهية الموت.

والعامّيات المحلّية، واكتسبنا شعوبًا يتجاوز عدد أفرادها المليار ودولًا تكاد تبلغ المِائَةَ تحت حكم طواغيت المنافقين الجهَلة الخائنين المغضوب عليهم والضالّين، ورددنا الغزو اللغوي بالمناعة والصمود، ولم يبق له فينا إلّا ما نحتاج إليه من ترجمات وتعريب لمستحدَثات العلم ومنجزاته.

فإذا تيسّرت لنا مقاصد هذه المرحلة المصيرية من الصراع اللغوي كان لنا القُدرة على إحياء الخلافة الإسلامية الصحيحة، وعلى العَـوربة العالمية نقابل الغزوَ بمثله والرياحَ بإعصار. وهذا يعني أن ننقل معركة اللغات إلى الغُزاة في عُقر دارهم وحقل سلطانهم الثقافي، نقرّب العربية إلى مواطنيهم وأتباعهم المتهوّدين الكفَرة من الأمم والشعوب بالوسائل الكريمة، ونزوّدهم بما ييسّر لهم تعلّمها أو تداولها فيما بينهم، ليكون لنا بينهم ميدان تعارف حقيقي يزيل أكاذيب اليهودية والاستعمار، ويوضّح واقع وفائنا للقيم الإنسانية وطِيب الأخلاق ونُبل المعاملة للجميع. ومن ثَمّ تنفتح فيهم مجالات لحضارتنا ودعوتنا وأسواق للمعاملات الاقتصادية الكريمة ومداخل إلى القلوب والسرائر، فيما يَحتاج إلى تعرُّف أو نصرة أو إنصاف. وما ذلك على الله بعزيز.

نحن - الأمّةَ الإسلامية - إذًا أصحاب رسالة في هذا الكوكب الصغير، حمّـلَناها اللّهُ ﷻ لإنقاذ الإنسانية من ظلمات الجهل والضياع إلى مِحراب الهداية والصلاح في الدنيا والآخرة. وقد جعلَنا خَـيـرَ أُمّة أُخرِجتْ للناس من بين سائر الرسالات السماوية المتقدّمة، نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ونؤمن بالله.[1] هذا هو منطلق المعنى الحقيقي لوجودنا في الحياة.

ثم إنّ تحمُّلنا نحن - العرب - شعارَ الإسلام باللغة القرآنية المباركة يشاركنا في كثير منه المسلمون من غير العرب، ونحن أول المسؤولين عنه، إذ بالعربية يكون الفهم الدقيق لتلك الرسالة، وبها تنمو الشجرة مباركة أصلها ثابت وفرعها في السماء، تستمدّ من المولى ﷻ العزّة والنصر والسيادة.

---

(١) انظر الآية ١١٠ من سورة آل عمران.

فعَـوربة مَن حولَك - يا أخي المستغربَ - واجب شرعي كما رأيتَ في قول ابن تيميّة منذ قليل. وبفضل تحسُّسك هذه المسؤوليةَ تستطيع أن تُنقذ الناس، وتنال أجر المجاهدين في سبيل اللّٰه. وإنما يتحقّق هذا على يديك، حين تمثّل عقيدةَ الإسلام وشريعتَه وآدابه حقًّا، بالعِلم والعمل الجادّ والخُلق الكريم، وتمارسُ العربية بقُدرة ويسر وبيان، يحبِّب الناس بك وبدينك ولغتك، ويحملهم على الاستجابة إلى اللّٰه ﷻ ورسوله الكريم ﷺ ولغة الكتاب العظيم والسُّنّة النبويّة المشرّفة.

وإني لأرى في المعاهد والمراكز العلمية والكليات الإسلامية التي نشأت في تركية هذه الأعوام الأخيرة تعطّشًا وحماسة وسعيًا حثيثًا لنشر العربية والعلوم الشرعية الإسلامية، وفيها ما يبشّر بمنطلق مبارك في سبيل الصحوة والدعوة والإحياء، فيكون النصر الجديد الأكيد من بلاد غير العرب الذين هم غافلون أو متمرّدون على العربية وشريعة الإسلام، يكون هذا النصر كما كان المنطلق الأول من غير مكّة المكرّمة، وهو يتفتّح بالنتائج الكريمة ويكون قُدوة رائدة لجميع ديار الإسلام، في إحياء التوءمة وعودة الأمّة إلى حقائق دينها في العلم والعمل، ليتيسّر نصر جديد وفتح قريب، ونتلو باطمئنانٍ قول اللّٰه تعالى: ﴿ إذا جاءَ نَصرُ اللّٰهِ والفَتـحُ، ورأيـتَ النّـاسَ يَدخُلُـونَ في دِينِ اللّٰهِ أفواجًا، فسَبِّحْ بِحَمدِ رَبِّكَ واستَغفِرْهُ. إنَّهُ كانَ تَوّابًا ﴾[1]. وصدق اللّٰه العظيم.

* * *
* *
*

(١) الآيات ١ - ٣ من سورة النصر.

٤
اللغات في القرآن الكريم

الشعوب العربية الأولى:

أقدم ما نعرفه عن تاريخ العرب وأصحُّه هو قول النبي ﷺ: « سامٌ أبُو العَرَبِ »[١]، فسامٌ هو الجدّ الأوّل لهذا الشعب الذي كرّمه الله - تعالى - بالقرآن العظيم، وقد فسّر المؤرّخ ابن الكلبي هذه الجملة حين قال: « إنّ إرَمَ هو سامُ بنُ نوحٍ ».[٢] وهذا يعني أن إرم عادٍ هو ابنٌ لنوح، ويحقّق لك أنّ قوم عاد كانوا خلفاء بعد نوح.[٣] فلا حاجة بعدُ إلى الخوض في الحوار والجدال والاحتجاج مع المؤرّخين الجاهلين، وقد قطعتْ جَهيزةُ قول كلِّ خطيب.

ها نحن أُولاء قد عرفنا نسبنا - والحمد لله - بأسلوب علمي منهجي، بعد أن كان مـجهَّلًا بين أباطيل المستشرقين المتهوّدين وتُرّهات المستغربين المنافقين. فأوّل ما نعرفه من جدودنا الغابرين بالدليل العلمي الموثَّق هو عادٌ إرمُ ذاتُ العماد، أقدمُ أُمّة اكتُشفتْ لها آثار مُعيّنة في أحافير المستحاثات، وعُرف أصحابها بالاسم واللقب، وإليه تُنسب جميع الحفائر في العالم، حين يقال لها: العادِيّات. وقد كان يقال لهذه الأُمّة الجَدّة: إرَمُ. أمّا مَن كان قبلها أو في عصرها فهو في غِيابات المجهول حتى الآنَ، إذ لم يوجد له أثر ظاهر

---

(١) الحديث ٣٢٢٩ في سنن الترمذي والمسند ٥ : ٩ - ١٠ والجامع الصغير ٢ : ٤٩. وقال الترمذي: « هذا حديث حسن ». وقال الهيثمي: « رواه الطبراني في الكبير، ورجاله موثّقون ». انظر جامع الأصول ٤ : ٤٠ ومجمع الزوائد ١ : ١٩٣وتاريخ الطبري ١ : ٢٠٩ - ٢١٠. وقد ذُكر لنوح في الحديث ابنان آخران هما: حامٌ ويافِث، وله أبناء آخرون اللّهُ أعلم بهم ومنهم: بو ناظر وكنعان الذي غرق مع الكافرين لكفره. انظر تاريخ الطبري ١ : ٢٠٨ والمحبّر ص٣٨٤.

(٢) الصاحبي في فقه اللغة ص٣١ - ٣٥ ورسالة الغفران ص٣٦١ - ٣٦٢ والصحاح واللسان والتاج (عرب) والمزهر ١ : ٣٠ - ٣١ والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٨ : ٥٣٧ - ٥٣٨ وعلم التحقيق ص١٦٣.

(٣) الآيات ٦٥ - ٦٩ من سورة الأعراف.

معروف بالاسم المحدّد يقدّم فكرة للبحث العلمي في ميداننا هذا. ولقد وَهِم كثير من المؤرّخين والباحثين والدارسين، فزعموا أنّ سُلالة هذه الجَدّة القُدمَى أُبيدتْ على بَكرة أبيها بالنّـقَمات الربانية، ولم يبق منها أحد له ذرّية، فأطلقوا عليهم اسمَ: العرب البائدة.(١)

وقد اعتمد بعض المفسّرين في ذلك على ما ورد في سورة الحاقة من خبر عادٍ وثمودَ، إذ جاء في آخره قول الله تعالى: ﴿ فَهَل تَـرَى لَهُم مِن بَاقِيَـةٍ ﴾؟(٢) فادّعى أولئك العلماء أنّ المراد بهذا: لم يَبقَ من نسل القوم أحد، ولم يجعل الله لهم خَلَفًا.(٣) وقد غفل هؤلاء المفسرون عما ورد في القرآن الكريم أيضًا، من نجاة مؤمني تلك القبائل كلها رُسلًا وتابعين، عندما تقع نكبة من نكبات الكفر والإلحاد.(٤) فالحقّ أن النِّقمات الربّانية دمّرت الديار وأفنت الرجال والنساء والذراريّ، إلّا من آمن بهودٍ وصالح وأمثالهما، أنجاهم الله مع الأنبياء برحمته وقدرته، فساحوا في البلاد العربية بين المحيط والخليج، يستوطنون المدن والوديان والمراعي، وكانت سلالاتهم في تفرّق وشتات:(٥)

نزل بعضهم في اليمن، ليقيم دولة قديمة مديدة التاريخ جدّها يعربُ ابن قحطان بممالك ذات حضارة ولغة وعِمران للحِمْيَريِّين والمَعِينِيِّين والسَّبَئيِّين والثَّمودِيِّين، وآخرون كالعماليق توجّهوا نحو الشمال الغربيّ

---

(١) المفصل في تاريخ العرب ١ : ٢٩٨ وتاريخ العرب القديم ص٦٤ ودائرة معارف القرن العشرين ٦ : ٢٣٢ وملامح في فقه اللهجات العربيات ص١٣٢ – ١٣٣.

(٢) الآية ٨ من سورة الحاقة.

(٣) انظر التفسير الكبير ١٠ : ٦٢٢ – ٦٢٣ ومجمع البيان ١٠ : ٨٢ وتفسير ابن كثير ٤ : ٤١٣ وجمهرة أنساب العرب ص٨ – ٩.

(٤) الآيات: ٢٢ و٢٣ من سورة المائدة و٧٢ و٨٣ من سورة الأعراف و١٠٣ من سورة يونس و١١٦ من سورة هود و٥٧ من سورة النمل و٩ من سورة الأنبياء.

(٥) مروج الذهب ٢ : ١١٠ – ١٢٠ وتاريخ الطبري ١ : ٢٠٣ – ٢٠٥ و٣١١ والمحبّر ص٣٨٤ – ٣٨٥ و٤٦٦ – ٤٦٧ وتهذيب الأسماء واللغات ١ : ١٠ وتاريخ العِبَر ١ : ٤٢ – ١٢٧ و٥٠٥ – ٦٩٩ ودائرة معارف القرن العشرين ٦ : ٢٢٥ – ٢٤٨ وتفسير الجلالين الميسر ص٢٣١ والأجزاء الأُوَل من تاريخ الجنس العربي لعزة دروَزة.

مصر، فكان لهم مملكة الرُّعاة، أي: ساسة الأمم (الهك سوس) وفيهم الأقباط، قبل الفراعنة وفي عهدهم وبعدهم أيضًا، ومنهم مَن هاجر إلى شماليّ إفريقية وشرقيّها ليكون منهم وممّن هناك البربر، والجعزيون الذين اختلط بهم الأحباش فتعرّبوا، وآخرون وهم من سلالة مَديَنٍ ويقشانَ ومَـدَنٍ وزِمرُون وأشلَـقَ وسُوحٍ أبناءِ إبراهيم ﷺ، وأُمّهم العربية قَنطوراءُ بنت مَقطور، توجّهوا إلى الشمال الشرقيّ فكان منهم ترك خُراسان، وآخرون استوطنوا الحجاز ونجدًا بما فيهما من المدن والصحاري والوديان والجبال، لتترعرع أكثر أجيال العدنانيِّين، وآخرون استوطنوا اليمامة والبحرين والطائف، وآخرون توزعوا في بلاد الشام والعراق أوائل الألف الثالث قبل الميلاد، ليتألف من مجموعهم الآراميّون، أي: الإرَمِيّون[1]، وهم جماعات يقال لهم: الأكّاديون من الآشور والبابلية والسُّريان متغلّبين على الشعب الحامي السُّومري، والتدمريّون والأنباط والفينيقيّون وعماليق الشام والكنعانيّون والمؤابيّون واللِّحيانيّون والصفَوِيّون والحَورانيّون ومن ذكرنا من ساسة الأمم...

هؤلاء كلهم جماعات متفرّقة من أصل واحد، ترجع في نسبها إلى الجدّ الأول المعروف في التاريخ باسم إرَم. ولذلك ترى في العربية أنّ مادة (أرم) تدل على الأصالة والإنسان المتفرّد. فأُرُومة الرجل: أصله. وما بالدار أرِمٌ ولا أرَمِيٌّ ولا أرِيمٌ ولا أيرَمٌ، أي: أحدٌ. وقد تصرّف المتقدّمون والمتأخّرون من المستعجِمين في هذا اللفظ، فجاء في بعض المصادر: أرمان، وفي التوراة: (أرَم)، ثم وصل إلينا عن ذيولها على الألسنة والأقلام بصيغته: آرام،[2] وخلال تلك المراحل التصويتية، جرى فيه تصرُّف آخر فصيح، نقله إلى ما نعرفه اليوم باسم: عَـرَب.

---

(١) انظر سِفر التكوين١٠ : ٢٣ وسِفر أخبار الأيام الأُوَل١ : ١٧ وتاريخ الطبري١ : ٢٠٥ و٢٠٧ والمعجم الكبير (أرم)، وما يرد في هذه الأبحاث عن البابلية القديمة والفارسية : مانو أربي وأربايه.

(٢) فقه اللغات السامية ص٤٨ وتاريخ اللغات السامية ص٢٩٠ والمعرّب ص٢٨٠ والقلب والإبدال ص١٠ - ١٧ ومعجم متن اللغة ١ : ٣٤ - ٣٥.

والحقّ أن كلمات: إرَم وأرَم وآرام وأرمان وعَرَب وأعراب هي ذات أصل واحد في اللفظ، كان فيها خلاف في المدّ والحركات وتبادل صوتيّ: بين الهمزة والعين - وهما حرفان حلقيان يتبادلان - وبين الميم والباء. وهما حرفان فمَوِيان يتبادلان أيضًا. وبهذا صار اللفظ بالعين والراء والباء: عَرَب وأعراب، كما وصل إلينا أخيرًا للدلالة على الجماعة ذات اللغة الفُصحى.[١]

العرب وعُروبة اللسان:

تلك هي جماعات القبائل العربية القديمة التي انتشرت بين الخليج والمحيط منذ أقدم العصور. وقد أطلقنا هنا على فروعها اسم « القبائل » لنعني أنها شعب واحد تمايز كثير من جماعاته ببعض صفات الاستعجام. فالذين شرّقوا وغرّبوا وشمّلوا وأيمنوا منها خالطوا الأعاجم سلالات الفرس واليونان والروم والهنود وسكان إفريقية السوداء، وقد صادفوا ظروفًا وحاجات وأجواء مختلفة، ومنهم من تنصّر أو تهوّد أو تمجّس أو توثّن، فتأثرت ألسنتهم العربية بلغات تلك الأمم والظروف والحاجات والأجواء في صور متباينة، وصار كل منهم متميّزًا في لغته، له لهجة تخالف كثيرًا من لهجات الآخرين واللغة العدنانية. وتلك اللهجات هي في الحقيقة لُغيّات عربيّة عامّيّة كالتي نحن عليها الآن في الأقطار والمدن والقرى العربية من حياتنا العامّة، خليط من أصول فصيحة منحرفة ملحونة ممزوجة بصور صوتية مشوهة.

إن تلك اللُّغيّات هي بُنيّات هجينة، وهي برغم ما فيها وما بينها وبين عروبة اللسان من ظواهر خلافية في بعض الأصوات والصيغ والتراكيب تلتقي في نسب واحد قبل تمايزها، هو أصل لهجة القحطانيّين القُدمَى ولهجة العدنانيّين لغة القرآن الكريم بعدُ. وقد أطلق عليها كلها بعض المعاصرين اسم العُروبية، ليسدّ باب اختلاق أنساب لها مصطنعة. فلا يهولنّك ما في قديمها الجاهلي من الرَّطانة والطُّمطمانية، لتذهبَ بك الظنون والافتراضات الوهمية مذاهب

(١) انظر اللسان والتاج (كنع) وملامح في فقه اللهجات العربيات ص٩١.

المُرجِفين الأفّاقين.

وإنك لتستأنس في هذا بما كان من أبي عمرِو بن العلاء، حينما تحدّث عن لهجات يمانية قحطانية هي أقرب تلك اللُّغيّات إلى فصاحة العدنانيين، فقال: « ما لِسانُ حِمْيَرَ وأقاصي اليمنِ اليومَ بلِسانِنا، ولا عَرَبيّتُهم بعَرَبيّتنا ».[١] فهو في عبارته هذه، على الرغم من انتقاصه تلك الظواهرَ اللغوية وتفريقه بينها وبين لغة القرآن الكريم، يعترف بأنها ذات جنسية عربية لا يجوز إخراجها من نطاق عُروبة اللسان. وكذلك يقال في الحَضرَميّة التي عُرفت بين العلماء[٢] رمزًا إلى الانحراف اللغوي، ويقال في سائر اللهجات المحلّية العامّية التي ذكرنا قبل.

وقد تعرّض بعض العلماء في اللغة والنحو والتفسير لمجموعة من مفردات القرآن الكريم وغيره واختلفوا فيها، فمنهم من نسبها إلى[٣]: النَّبَطية والسُّريانية والحبشية والقِبطية والبربرية والحَورانية، حاملين في أنفسهم ما يعتقده أبو عمرو ونظائره. ولذلك ذكروا أن تلك المفردات القرآنية نُقلت إلى لغة العدنانيّين فصارت من كلامهم الأصيل، وكان لدى العلماء اختلاف كبير في تلك النِّسب المتفرّقة، ثم جاء المُرجِفون رجال التنصير والاستعمار، ليستغلّوا هذه الظواهر الخلافية، ويضيفوا إليها مثيلات لفظية متعدّدة، ومن ثَمّ اختلقوا ما سُمّي باللغات السامية، وزعموا أن تلك اللهجات هي من هاتيك اللغات المختلَقة، وليست من العربية في مكان، بل افترضوا للسامية مع العدنانية أقسامًا: غربية وشرقية وشمالية وجنوبية، ولكل قسم فروعًا تُوهِمُ التمايُز الكبير.[٤]

وقد جرى على ذلك أنصار الاستشراق مِن مستغربين ومتعبّدين

---

(١) طبقات فحول الشعراء ص١١. وانظر الخصائص١ : ٣٨٦.

(٢) انظر اللسان والتاج (حضرم).

(٣) البرهان في علوم القرآن ١ : ٢٨٦ - ٢٩٠ والإتقان ١ : ٢٨٨ - ٢٩٨ والصاحبي ص٥٩.

(٤) تاريخ اللغات السامية ص٢٠ ودراسات في فقه اللغة ص٧١ والوجيز في فقه اللغة ص٧٤ - ١٠٣.

بالمخطّطات المشبوهة دون بحث أو تحقيق وهم مُبرمَجون ومُدبلَجون أو مِن متهيِّبين عجزًا ونفاقًا أن يخالفوا شيوخهم، فانطلقوا يشيعونه في الكتب والمحاضرات والمقالات والمؤتمرات في بلاد العرب وغيرها، ويجمعون له المؤيّدات الوهمية من أدلّة مصطنعة وأمثلة ملفّقة، حتى صار موضوع اللغات السامية في الأذهان والأقلام والأفهام حقيقة أو كالحقيقة، تُقرَّر في كل مجلس ونِتاج لغوي أو حضاري. وإذا عارضتَها اتُّهمتَ بالخروج على مقرّرات البحث العلمي العالمي.

والواقع أنّ ما ذكرناه من خلاف العلماء في نسب بعض المفردات هو أمر فيه نظر، يفسّره تاريخ العرب كما ذكرناه قبل. فالشعوب التي اختُلف في نسبة المفردات إليها هي قبائل ومجموعات عربية، تفرّقت في مواطن متعددة ومعها لغتها الأُمّ، ثم امتزجت بأبناء الأعاجم مجاورةً، وأكثرها خاضع لحكمهم أحيانًا أو تابع بالولاء، فكان لديها انحراف في الصياغة أو اللفظ مع بقاء أثارة من الأصالة، وبقيت العدنانية تحملها خالصةَ العُروبة. وعندما لوحظ التشابه بين لفظ العدنانيين لتلك المفردات ولفظ بعض تلك القبائل لها توهَّم فريق من العلماء أنها معرّبة، وكان بينهم ما هو معروف من الرجم بالغيب واختلاق الأحكام.

وخلال جريان ذلك التمايُز بين القبائل العربية حصلت نكبةُ سيل العَرِم وانسياحُ الجماعات اليمنية وتفرُّقها في إمارات وطوائف: المَناذرة والغَساسنة في العراق والشام متأثّرين بمن حولهم، وساسة الأمم ومَن معهم في شماليّ إفريقية وشرقيها متأثرين بمن يجاورهم، والأوس والخزرج في يثرب وما حولها، وطيّئ وكِندة ومن لفَّ لِفّهما في نجد والجبال والصحاري المجاورة يعيشون بين العدنانيين بعيدين عن الامتزاج بالأعاجم، فلزم أكثرهم الفصاحة والبيان، وصارت لُغيّاتهم من شقائق العربية العدنانية.

بل إن بعض ذُرّيّة هارونَ ﷺ، وهم من اليهود الحاميِّين السُّومريِّين الذين

تشرّدوا في الآفاق بالفتن والاقتتال، ألجأهم العرب الفُصحاء ليقيموا حول يثرب، وأجاروهم بإكرام واحترام، فكان لهم لغة فنّية عدنانية، يصوغون بها الشعرَ والنثر والحوارَ اليومي في الشوارع والأسواق والمحافل. ومع ذلك كله، فقد قابلوا إكرام أجدادنا وآبائنا وأنفسنا بالكُفران والجحود والغدر والعدوان حتى يومنا هذا كما نرى في فِلسطين.

على ذلك الشتاتِ كانت حال لغة الإرَمِيِّين المتفرّقين في الشرق والغرب والشمال والجنوب. أمّا جمهور بني عدنان فقد استقرّوا في قلب الجزيرة العربية كما ذكرنا قبلُ بعيدين عن مخالطة الأُمم الأُخرى، فكانوا يُنمّون فصاحتهم بروح العُروبة في كلّ ميدان ومناسبة وتجربة، ويصقلون ألسنتهم بالأصالة المتنامية القويمة. وبذلك أصبح لهم تميُّز واختصاص في تجويد اللسان العربي الأصيل وتطلُّع أبدي إلى الفصاحة والبيان، الأمر الذي جعل لغتهم تخالف لهجات الآخرين المستعجِمة وما كانت عليه لغة جُرهُم وإسماعيل عليه السلام في قديم الزمان.[١]

ثم جاء الوحي الكريم باللسان العربي المبين، فضمّ شتات تلك اللُّغيّات اليَعرُبيّة المتشعّبة، يُعَوربُ ما فيها من استعجام، واحتضن أطراف البيان من جميع اللهجات في بؤرة ربّانية، تتوّج لغة الإعجاز والخلود، وتخاطب الجميع بلسان موحّد خالص مُبين للشعب العربي والأمة الإسلامية في بقاع العالم مع الأبد. وبهذا تلملمت قبائل العُروبة وجماعاتها تحت راية بيانية متميّزة، تزيل استطالات الفُرقة والخلاف، وتنمّي بالعَوربة اللغوية خصائص الوحدة والاتفاق في الخطابين الأدبي والعلمي، وإن كان للخطاب اليومي في البقاع المختلفة بعض صور من ماضي المفردات الفصيحة أو الصحيحة الخاصة.

وقد بيّن ابن عبّاس رضي الله عنهما ما ورد في القرآن الكريم من لهجات عربية في كتابه

(١) طبقات فحول الشعراء ص٩ - ١٠ وكتاب الزينة ١ : ١٤٣ - ١٤٤ وبيان إعجاز القرآن ص٤٢.

« اللغات في القرآن »،[١] فذكر ما كان من: لغة قُريش وهُذَيل وكِنانة والأوس والخزرج وخثعم وقيس عَيلان وسعد العشيرة وجُرهم واليمن وأزدِشنوءة وكِندة وتميم وحِمْير ومَدْيَن ولخم وحضْرَموت وسَدوس والحِجاز وأنمار وغسّان وبني حنيفة وتغلب وطيّئ وعامر بن صعصعة ومُزَينة وثقيف وجُذام والنَّبَط والحبشة والسُّريان والقِبط والعَمالقة.

ومع هذا فقد ذهب بعض العلماء[٢] إلى وقوع غير العربي في القرآن الكريم من تلك اللهجات، وأجابوا بأن الكلمات اليسيرة بغير العربية لا تُخرجه عن كونه عربيًّا، واستدلّوا على صحّة مذهبهم في المعرَّب باتفاق النحاة على أنّ منع صرف نحو « إبراهيم » هو للعَلَمية والعُجمة، وكان قد سدّ هذا البابَ ابنُ عبّاس بقوله[٣]: « والقرآن ليس فيه لغة إلّا لغةُ العرب، وربّما وافقَتِ اللغةُ اللغاتِ، وأمّا الأصل والجنس فعربيّ لا يخالطه شيء » ممّا ذكره في كتابه المتقدّم من العِبرية والفارسية والرومية.

ثم تعرّض الإمام الشافعي لهذه المسألة، وذكر أنّه ليس في القرآن الكريم شيء إلّا بلسان العرب، وأنّ مَن قال غير ذلك فهو يصدر عن تقليد بدون حُجّة لأنّ لسان العرب واسع بحيث لا يُحيط بعلمه غيرُ نبيّ، شأن السُّنّة النبويّة لا يحيط بعلمها أحد، ولكن مع هذا فإنه لا يذهب منه ومنها شيء على كلّ العلماء، ولا بدّ أن يكون فيهم من يعرف تلك الشذرات البعيدة الأمداء.[٤] وقال أبو عُبيدة:[٥] أُنزل القرآن بلسان عربي مُبين، فمَن زعم أنّ فيه غيرَ العربية فقد أعظَمَ القول، وقد يوافق اللفظُ اللفظَ ويقاربه ومعناهما واحد، وأحدهما بالعربية والآخر بالفارسية أو غيرها...

---

(١) انظر منه ص١.

(٢) الإتقان في علوم القرآن ٢ : ١٢٦.

(٣) اللغات في القرآن لابن عباس ص١.

(٤) الرسالة ص٤١ – ٤٢ والتاج ١ : ٦.

(٥) مجاز القرآن ص١٧ – ١٨. وانظر الصاحبي ص٥٩ – ٦٠ والمعرّب ص٤ والبرهان ١ : ٢٨٧ – ٢٨٨ والإتقان ١ : ٢٨٨.

وأخيرًا جاء السيوطي ليذكر أنّ أكثر العلماء على ذلك، ثم خالفهم مستدلًّا بقولِ التابعيّ أبي مَيسَرة عَمرو بن شُرَحبيل: « نزل القرآن بكلّ لسان » أو « في القرآن من كلّ لسان »، وقولِ الضحّاك: « نزل القرآن بكلّ لسان »، وصنّف كتابًا لهذا الموضوع عنوانه « المهذَّب فيما وقع في القرآن من المعرَّب »،[٦] لخّصه في كتابه « الإتقان »، ذاكرًا ما كان من لغات العرب: أهل اليمن وأزدِشَنُوءةَ وحِـمْـيَـرَ وجُرهُم وسبأ وحَضْرَمَوتَ والعمالقةِ والنَّـبَط والحبشة والبربر والسُّريان والقِبط وهَمْدانَ وعَكّ وجُذام - وهؤلاء كلهم قبائل عربية - كما ذكر بعض المفردات التي قيل عنها: إنها فارسية أو رومية.

وإذا رجعتَ أنت الآن إلى كتاب له اسمه « المتوكّليّ »، وهو ملخّص أيضًا من مصنّفه « المَسالك »، رأيته يسرد أقوال العلماء المنكرين للمُعرّب في القرآن الكريم وهم الأكثرون كما قال، ثم يورد أقوالًا لآخَرين بما جاء من لغاتٍ: حبشية وفارسية ورومية وهندية وسُريانية وعِبرانية ونبَطية وقِبطية وتُركية وزَنجية وبَربرية.

أمّا اللغات الواردة هنا، عدا الفارسية والرومية والهندية والعِبرانية والتركية، فهي لهجات عربية كما حقّقنا قبلُ يعتدّ العلماء ما ورد منها معرَّبًا على مذهب أبي عمرِو بن العلاء في حديثه عن فُصحَى العربية ولسان حِمْيَر وأقاصي اليمن، وأمّا الأسماء الأعلام الممنوعة من الصرف التي احتجّ بها بعض العلماء، نحو: آدم وقابيل وهابيل وحوّاء وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسرائيل ويوسف وموسى وعيسى وداود وسليمان وجبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل ورضوان وإبليس، فقد كانت من قديم الزمان تتردّد بين كلام عرب الجاهلية في الشعر والنثر، صافية رائقة وبصيغ مختلفة أحيانًا، تصل إلى حد التصرّف بالحذف والإبدال والتفنّن في القول. وكذلك شأن **المنسوبات** إلى الفارسية والرومية والهندية والعِبرية والتركية في القرآن

---

(٦) في ١ : ٢٨٣ - ٢٨٧. ولعل هذا الكتاب هو « المتوكّليّ »، ولمّا يُنشر.

العظيم من مفردات. فهي على ما قال ابن عبّاس: إنما اتفق فيها توارُدُ اللغات، فتكلّمت بها العرب والأُمم الأُخرى بلفظ واحد.[١] ولذلك خفي أمرها على الأكابر الجلّة من العلماء.[٢]

وتفسير هذا يسير جدًّا وهو بين يديك من كتاب ابن عبّاس المذكور قبلُ. فقد جاء فيه قولُه: « ما أنزل الله ﷻ من السماء كتابًا إلّا بالعَرَبانيّة.[٣] وكان جبريل عليه السلام يُترجم لكلّ نبيّ بلسان قومه »، والعَرَبانيّة هي العربيّة البالغة أعلى مراتب الفُصحى. فالكُتب الربّانية كلها هي كلام اللّٰه القديم، سُجّلت في اللوح المحفوظ بتلك اللغة العُظمى حين خلق اللّٰه القلم وقال له: « اكتُبْ »، فقال: أيْ رَبِّ، وما أكتُبُ ؟ قال: « اكتُبِ القدَرَ »، فجرى القلم « بِما هُوَ كائنٌ إلَى يَومِ القِيامةِ ».[٤] ثم تُرجِمَت تلك الكتب إلى لغات أقوامها بما فيها من الأسماء الأعلام وغيرها، وجرت على ألسنتهم بالعُجمة على ما تيسّر من ذلك قرونًا وقرونًا، وفي خلال ذلك انتقلت إلى لغة الجاهليّين بالتعريب، وأخيرًا نزل بها القرآن الكريم كما كانت قبلُ وهي بالعَرَبانية الخالصة.

وإنما مُنعتْ تلك الأسماء الأعلام من الصرف لأنها تُرجِمتْ قديمًا إلى اللغات الأعجمية بألفاظ غريبة كما رأيتَ، وعاشت قرونًا على ألسنة تلك الأُمم كما ذكرنا، ثم عادت إلى ألسنة العرب بالصِّيَغ المناسبة للعربية وهي تحمل آثارًا من تلك القرون الأعجمية، ولم تستطع أن تتخلّى عمّا حملتْه من تلك الغُربة لتنال الجنسية الأصلية وتُعرَب إعرابًا كاملًا، فكانت ممنوعة من الصرف تحمل هذا التنقل التاريخي، كالأسرة التي تنتقل من موطنها لتعيش قرونًا في غُربة، ثم تعود إليه فلا تستطيع أن تعود إلى كثير من عادات قومها وأساليبهم في التصرّف

---

(١) الإتقان ١ : ٢٨٨ - ٢٨٩. وواحد أي: بعضه قريب من بعض.

(٢) انظر اللغات في القرآن لابن عباس وماورد في القرآن من لغات القبائل لأبي عُبيد.

(٣) كتاب اللغات في القرآن لابن عباس ص١٦، وكذلك جاء في بعض الكتب المنشورة. وانظر توجيه الصواب في البحر المحيط لأبي حيان ٥ : ٤٠٥ وروح المعاني للآلوسي ١٣ : ٢٦٨.

(٤) المعجم الكبير ١٠ : ٢٤٧ والمسند للشاشي ٣ : ٣٥٤.

والمعاملة والبيان. فتلك الأسماء الأعلام المذكورة صارت بهذا الاستغراب فرعًا على أصل تمثّل التنقّل التاريخي، كالأسماء الأعلام المؤنّثة والمركّبة مزجيًّا والأعداد من أحد عشر إلى تسعة عشر في لغة العرب.

وعلى هذه الحال من الفصاحة استمرّ الخط الرائق في نموّه واتساعه، حتى غزتنا رجالات الاستعمار من الاتحاديّين والأوربّيّين والإنكليز والأمريكان والروس والصين، فعادت سموم الفُرقة والعُجمة والطُّمطمانيات.

* * *
* *
*

٥
القراءات القُرآنية والأحرُف السبعة

كانت الحضارات القديمة تعتمد في نقل العبارات والنصوص وروايتها على المشافهة الشخصية تنتقل بها الأقوال كما ذكرنا من قبل، فيدخلها كثير من التدليس والتحريف والتشويه، ثم اعتمدت بعضُ الأمم على شيء من الكتابة، فصارت المقولات تثبُت في الصحف والكتب، ولكنها بقيت خِلوًا من وسائل التوثيق، إذ لا ترى فيما جاء قبل الإسلام كتابًا أو نصًّا، له من الأسانيد والروايات المتضافرة كلمةٌ توثِّق فيه نسبة الأقوال، أو تدقّق في ضبط عباراتها كما أرادها صاحبها.

ولقد أسّس المسلمون هذا النهج في علوم القرآن والحديث، بأصول القراءات ورواية الأحاديث. نشأ ذلك منذ القرن الأول، وتضافرت وسائله التطبيقية في التلقّي والنقل والضبط والنقد والتجريح، حتى صارت له ضوابط وقواعد وأصول مقرّرة. ولمّا كان الإسلام الحنيف خاتم الأديان السماوية، ومنهج الحياة المُثلى في العقيدة والعبادة والسلوك والتشريع، فقد وضع أُسس التوثيق لتسلم للنصوص والعلوم صفة الصدق والأمانة والوفاء، ويُبنَى عليها صرح علمي حضاري حصين، يتابع متطلّبات الحياة في جميع القطاعات والمستويات والحاجات. وقد تحصّل ذلك كله بما رسمه الله - تعالى - ورسوله العظيم في الآيات الكريمة والتلقّي للنصوص القرآنية وتعليم الصحابة أساليبَ الرواية الموثّقة.

فقد كان في المراجعات الرمضانية المباركة بين النبي وجبريل عليهما السلام لِما نزل من الوحي أحداث متفرّقة من التوقيف والتعليم توجّه إلى صور من التوثيق، عرفها تاريخ القرآن الكريم وسجّلها بالدقة والعناية والوفاء. أخرج الإمامان البخاري ومسلم، واللفظ للأوّل في رواية مسنَدة موثّقة، عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ دعا السيدة فاطمة رضي الله عنها في أيّام مرضه الأخير، ثُمَّ أَسَرَّ

إلَـيها حَدِيثًا فبَكَتْ، فقالَ لَـها: لِمَ تَبكِينَ؟ ثُمَّ أَسَرَّ إلَـيها حَـدِيثًا فضَحِكَتْ... حَتَّى إذا قُبِضَ النَّبيُّ ﷺ فسألـتُها فقالَت: أَسَرَّ إلَيَّ: « إنَّ جبرِيلَ كانَ يُعارِضُنِي القُرآنَ[1] كُلَّ سَنةٍ مَرّةً، وإنَّهُ عارَضَنِي العامَ مَرَّتَينِ. ولا أُراهُ إلّا حَضَرَ أجَلِي. وإنَّكِ أوَّلُ أهلِ بَيتِي لَحاقًا بِي »، فبَكَيتُ، فقالَ: « أما تَرضَينَ أن تَكُونِي سَيِّدةَ نِساءِ أهلِ الجَنّةِ، أو نِساءِ المُؤمِنِينَ »؟ فضَحِكتُ لِذلِكَ.

وفي هذا الحديث الشريف أحداث واقعية لأوّل تحقيق نادر المثال في التاريخ الإنساني، إذ يَعرِض النبي الأمين على جبريل الملَكِ الأمين نصوصَ القرآن الكريم أربعًا وعشرين مرة، في مُدّة الوحي الرباني، لا ليتحقَّق صحةَ لفظ آياته الكريمة، إذ هي صحيحة محفوظة بدقة وإتقان وكفالة من الرحمن: ﴿ إنَّ علَينا جَمعَهُ و قُرآنَهُ ﴾،[2] بل ليتبيّن للناس أسلوبُ التوثيق والتحقيق المثالي عمَليًّا بالمقابلة والعِراض مرارًا، وليتحقّق لديهم كمالُ نقله وتبليغه، فلا يعرِض لأحد منهم شك في أنه قد بولغ في تلقّي القرآن الكريم وتقبّله وحفظه مبالغات فائقة، ونُقل إلى البشرية بأعلى وسائل الرواية والتوثيق، ثم تمّ ترتيب سوره وآياته في العرضة الأخيرة، بمراعاة ما كان قد نُسخ أو بقي فيما مضى.

وليس قبل هذا الحدث العظيم ولا بعده نصّ، عرَضَه فرد واحد على ناقله الأمين بضع مرات بالدّقّة الربّانية، بله أن يكون عرَضه بضعًا وعشرين مرة كذلك. ولذا جعلنا وقوع هذه العروض نموذجًا رائدًا وشكلًا فريدًا في التاريخ الإنساني، يُطمْئن البشر إلى صحّته، ثم هو يعلّمهم أساليب التحقيق الموثّق المتقن بالغَ الإتقان.

---

(١) صحيح البخاري ص١٣٢٦ – ١٣٢٧ في الحديث ذي الرقم ٣٤٢٦ وصحيح مسلم ص١٩٠٥ – ١٩٠٦ في الحديث ذي الرقم ٢٤٥٠. وانظر البحث الأدبي ص١٥٠. والمعارضة هنا تعني المقابلة في القراءة من الجانبين الشريفين عن ظهر قلب.

(٢) الآية ١٧ من سورة القيامة.

لقد كان في تلك المعارضات ما لا يعلمه إلّا اللّـه - تعالى - من أحداث وأقوال، توجّه إلى صور من الضبط لقراءات مختلفة، عرفها تاريخ القرآن الكريم. قال رسول اللّه، ﷺ[١]: « أقـرأنِـي جِبـرِيلُ علَـى حَرفٍ واحِـدٍ، فـلَم أزَل أستَـزِيدُهُ حَتَّـى انتَـهَـى إلَـى سَبعةِ أحـرُفٍ ». والمراد بالأحرف هنا **ما ورد من قراءات صحيحة مختلِفة، في اللفظ أو التركيب أو الصيغة أو التصويت**، ولفظُ السبعة يعني التكثيرَ للقراءات لا تعيينَ العدد. وهي توقيف أي: تعليم من جبريل للنبي - عليهما الصلاة والسلام - في العرَضات المتعدّدة، وتوقيف من النبيّ للصحابة الكرام ﷺ،[٢] رُويت بالتلقّي والضبط والعدالة والثقة التوامّ الكوامل.

وكانت هذه القراءات الكثيرة الـمذكـورة كالـنُّسخ الـمختلفة في روايات مـتعدّدة موثّقة، يمكنها أن تشكّل إحداها متنًا والباقي ملحقٌ لـه، بحيث تستوفـي بمجموعها الصورة التامّة للأشكال القرائية التي ورد بها الكتاب الكريم، ويكون بذلك تحقيق وافٍ بالصورة التي وُضع عليها في جميع الأحوال. وهو تحقيق شفـهي كما تـرى متميّز بإجراء الأُصول الأساسية التي ذكرناها قبل.

وإذا تابعنا هذا التاريخ رأينا وقائع أُخرى متوالية للإجراء العملي الموثّق. فقد كان في عهد رسول اللّه ﷺ ثلاثة وأربعون كاتبًا للوحي يسجّلون ما يوحَى فورًا مع حفظهم ذلك في الصدور. وأشهرهم الخلفاء الأربعة وسعيد بن العاصي والزُّبير بن العوّام وسعد بن أبي وقّاص وزيد بن ثابت وعلي بن أبي طالب وأبيُّ بن كعب وحُذيفة بن اليمان ﷺ.[٣]

---

(١) صحيح البخاري في الحديث ذي الرقم ٣٠٤٧. وانظر جمال القراء وكمال الإقراء ص١٥٨ - ١٥٩.

(٢) تفسير القرطبي ١ : ٤٢ - ٤٨ وتفسير الآلوسي ١ : ٣٨ - ٤٠ ومقالات في تاريخ القرآن ص٥٠ و٥٧ وجمال القراء ص١٥ والمصاحف ص٣١ - ٣٢ والحديث ٣٠٨٦ في الترمذي و ٧٨٦ في أبي داود وفضائل القرآن ص٣٣ - ٣٤ . وللعلماء ٣٥ قولًا في تفسير الأحرف السبعة، أصحها وأيسرها وأوفاها ما ذكرنا، واللّـه أعلم.

(٣) مقالات في تاريخ القرآن ص٥٤.

وكان أكثرهم لزومًا للنبيّ ﷺ وكتابةً للوحي زيد بن ثابت والإمام عليّ رضي الله عنهما. قال زيـد بن ثابت رضي الله عنه: « كنتُ أكتبُ الوحي عند رسول اللّه ﷺ وهو يُملي علَيّ، فإذا فرَغتُ قال: « اقرأْ »، أقـرَؤُه، فإن كان فيه سَقْط أقامَه ».[1] وبذلك صار عنده - وهو أحفظ الصحابة للقرآن الكريم - مُصحف تامّ كتبه أخيرًا عن النبي ﷺ في العام الذي قُبض فيه، بعد العرضتَينِ الأخيرتَينِ اللتَينِ بُيِّـن فيهما ما نُسخ وما بقي، ثم قرأه عليه أيضًا وكان يقرؤه لنفسه حتى مات.[2]

ثم إنّ هذا الحدَث العظيم غرس في نفوس الصحابة الكرام السعيَ في متابعة الحقيقة من الأقوال، فصاروا إذا اختلفوا في قراءة رجعوا إلى النبي ﷺ يعرضون عليه ذلك، فيُـقِرّ ما هو صواب بأنه كذلك أُوحِيَ من عند اللّه، ويدفع ما كان من أوهام. وهذا أمر مشهور جدًّا متداول في كتب تاريخ القرآن وعلومه، وهو تحقيق شفهي خالص أيضًا، وقد يكون فيه ما سُجّل بين أيدي الرسول والصحابة، فيتحصّل مع الشفهية تحقيق كتابي أيضًا.

وعندما استحرّ القتل في القُـرّاء والحُـفّـاظ يوم اليمامة، خشي الصحابة أن يذهب أشياخ القراءة، فجمع أمير المؤمنين أبو بكر الحَـفَـظة في دار عمر برئاسة زيد بن ثابت رضي الله عنهما، يتشاورون في طريقة جمعه، ثمّ قال لزيد: « إنك رجل شابّ عاقل ولا نتّهمك. كنتَ تكتب الوحي لرسول اللّه ﷺ. فتتبّـع القرآنَ فاجمعْه ». ومن ثَمّ قام زيد مع عُمر رضي الله عنهما يتتبّع الآيات، يجمعها مما سُـجِّل وما حُفظ في صدور الرجال بالشهادات اللازمة، يُملي أبيٌّ بن كعب ويكتب زيد، حتى صار لديه القُـرآن الكريم مصحفًا منسَّـقًا في صُحف بين لوحين.[3]

وذلك بأن جعل زيد ومن معه من الصحابة يتلقّون من الحافظ أو الكاتب ما عنده، مع شاهدَين عَدلين يشهدان بصحّته وأنه كُتب أو أُخذ عن رسول اللّه ﷺ فعلًا، ثم يشهد هو أنه أخذه عن رسول اللّه، بالإضافة إلى شهادة زيد

---

(١) أدب الكتاب للصولي ص١٦٥.

(٢) مقالات في تاريخ القرآن ص٥١ وتفسير القرطبي ١ : ٥٣.

(٣) المقنع ص٢ - ٥.

ومن معه وهم حَفَظة أيضًا. وفي هذا نهاية في الضبط والتوثيق: مُصحف زيد وشهادته، وما جاء به الصحابي مع الشهادات منه ومن الآخَرِينَ كذلك.(١)

وفي عهد عثمان بن عفان ﷺ كثر الشهداء من القُرّاء والحُفّاظ أيضًا، وظهر خلاف بين الناس في التلاوة، فجَمع الخليفة في المسجد اثني عشر صحابيًّا فيهم زيدُ بن ثابت، ثم وضع بين أيديهم المُصحف الذي جُمع في عهد الخليفة الأول، وأمرهم أن ينسخوا منه بشهادة الحُفّاظ والكَتَبة من الصحابة مصاحفَ تجمع القراءات الصحيحة، كما جاءت بتوقيف من رسول اللّٰه في نسَق السور والآيات. وهكذا توافد الحُفّاظ والقُرّاء وكثروا، يُملي الآياتِ أفصحُ العرب سعيد بن العاصي ويكتبها أجودهم خطًّا زيد بن ثابت والبقيةُ شهود ضابطون، والخليفة مُشرف على ذلك بنفسه يوجّه ويسدّد بإلهام الرحمن، كل ذلك مع تجريد الآيات الكريمة ممّا كان في بعضها من علامات الإعراب والإعجام لاستيعاب القراءات الصحيحة في مصاحف محدّدة.

والقضية الجديدة بين أيديهم حينئذ هي تعدُّد القراءات والرسوم واللهجات والدلالات. فكيف يكون استيفاء ذلك؟ لقد رأَوا أنّ التحقيق الموثَّق يقتضي توزيعَ ذلك التعدُّدِ على أكثرَ من نسخة، وتجريدَ الحروف ممّا كان في بعضها من النَّقط والشَّكل،(٢) للحِفاظ على جميع الصور والأنماط والقراءات الصحيحة،(٣) فكان لهم بهذا جُهد عظيم نقلَ إلينا الصُّوَر الخطّية المختلفة لرسم الآيات بين قبائل العرب آنئذ، فإذا هو وثيقة تاريخية لِكتابِ اللّٰه بقراءاته المتعدّدة ولاختلافِ بعض اللهجات والإملاء.

وبذلك سجّلوا بإجماع الأُمّة أربع نسخ، على الأشهَر، هي على غِرار ما كان في عهد النبوّة مفرّقًا وفي عهد أبي بكر مُصْحَفًا وموزّعًا في الصدور والسطور،

---

(١) كتاب السبعة فى القراءات ص٦.

(٢) النشر في القراءات العشر ١ : ٧ والمحكم في رسم المصاحف ص٣ و١٢٦ وفتاوى ابن تيمية ١ : ٣١٩.

(٣) النشر في القراءات العشر ١ : ٧ و ٣١ - ٣٣.

مع خلافات مخصوصة في الرسم بين النُّسخ تستوفي القراءات الصحيحة بلهجاتها وصورها الإملائية ودلالاتها المعنوية، في أُسلوب من التحقيق الكتابي الجماعي. وكانوا إذا اختلفوا في آية، وعلموا أنّ أحدًا قرأها أيضًا على الرسول ﷺ أرسلوا إليه فيُجاء به ولو كان على بُعد ثلاث ليال، ويقال له: « كيف أقرأك رسولُ الله ﷺ آيةَ كذا وكذا »؟ فتكون شهادته موثّقة، ويكتبون كما قال.

وبهذه العمليات المتوالية من عهد النبوّة إلى تدوين المصاحف العثمانية مع شروط الرواية للحديث الشريف إجراءاتٌ فريدة متعدّدة، تضع أصول التوثيق في تاريخ الإنسانية، وتجمع القراءات القرآنية التي تستوعب سبعة الأحرف. ثم وُزّعت تلك النسخ الكريمة، فأُرسلت إحداهنّ إلى الكوفة، والثانية إلى البصرة، والثالثة إلى الشام، والرابعة بقيت عند أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه في المدينة المنوَّرة، ثم أُتلف ما بقي من متفرِّقات بين أيدي الناس مع مَصاحف للصحابة وغيرهم.[1]

أضف إلى هذا أن النُّسخ المُرسلة كان مع كلّ منها قارئ مُتقِن، يعلّم الناس صحّة القراءة، مبالغةً في تحقيق القراءات وضبط الألفاظ والصيغ والتراكيب، واستيضاح المعاني والمقاصد، إذ كانت المصاحف قد جُرّدت حروفها كما قلنا، فلم يبق فيها شيء من علاماتِ الإعراب والإعجام، أي: نَقطِ الإعراب الذي عمَّمه بعدُ فيها أبو الأسود الدؤلي (ت ٦٩)، ونَقطِ الإعجام الذي عمَّمه فيها نصر بن عاصم (ت ٩٠). وكان مُصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه بنُسخه الأربع يجمع صورةَ آخِرِ ما عُرض في رمضان على النبيّ ﷺ عام وفاته، وعاش الخليفة الإمام يصلي بنسخته حتى استُشهد، وفيها وفي النسخ الثلاث الباقية ما

(١) الأحاديث: ٣٣١٥ و٣٦٥٢ و٤٧٠٢ في البخاري والمقنع ص٧ - ٩ والمحكم في نقط المصاحف ص١٨ - ٢٣ وفضائل القرآن للقاسم بن سلّام ص٢٢ والبرهان ١ : ٢٤٠ والإتقان ١ : ٢٣٥ - ٢٣٦ وجمال القراء ص١٦٤ - ١٦٥ ومناهل العرفان ١ : ٢٦٢ و٢٨٢ وتفسير القرطبي ١ : ٥١ - ٥٤ وروح المعاني ١ : ٤١ والفهرست ص٢٧ - ٢٨ ومقالات في تاريخ القرآن ص٧٧ - ٨٥ وكتاب السبعة لابن مجاهد ص٧ والعصر الإسلامي ص٢٧. وقيل: « إن المصاحف كانت خمسة، أو سبعة ». والله أعلم بالصواب.

يقرؤه الناس اليوم في المصاحف.[١]

ولمّا توضّحت معالم القراءات الصحيحة، وعُلِمت أسانيدها وأساليب تلقّيها وأدائها للقُرّاء والعلماء والطُّلّاب، أصبح من اليسير على الأجيال المسلمة أن يأخذ كل طالب عن شيوخه ما أتقنوا منها وأشاعوه في ديارهم وما حولهم من البلدان، وصار المفسِّر يقف على ما أتقن من ذلك ويبني على ألفاظه ما يريد من التفسير، ووجب على الراوي للتفسير أن يجمع بينه وبين القراءة المبنيّـة عليه.

هذا هو شأن علماء التفسير الكرام والرواة له عن الشيوخ في التاريخ حتى أواخر أيام الخلافة الإسلامية المنكوبة، إذ بدأ عصر الانحطاط والضلال ببركات الاستعمار وأذنابه طواغيت المنافقين الجَهَلة من أولياء أمور المسلمين في إفساد العلوم والمعارف والآداب والفنون، فغابت تلك السُّبل العلمية للقراءات، وتجنّد لنشر التراث المبارك سماسرة من التجّار وأدعياء العلم، وأصبحتَ ترى بعض كتب التفسير يَذكر فيها هؤلاء الأغبياء قراءات مشهورة لديهم أو ميسّرة النقل في كتب وأجهزة مُبرمَجة مُدبلَجة، دون أن يعلموا ما فيها من خلافات لقراءة المفسِّر الكريم.

وكان من سوء حظ الإمامَين الجلالَين أن شاع بين المسلمين كتابهما المشهور ولمس العلماء فيه الكفاية للاعتماد في التدريس والتوجيه، واتخذوه في المجالس والمساجد بين أيديهم للبيان والوعظ، وجعلوه كتابًا مقرّرًا في بعض المدارس الشرعية، وصار له حضور ظاهر في بيوت المسلمين حتى لا يخلو بيت علم منه. وقد شجّع هذا في العصر المتأخّر دورَ النشر على إصداره في طبعات مختلفة الأشكال والألوان، كما حمل بعضَ رجال التجارة على استقدام نسخ خطية منه باسم التحقيق، فكان ما أصدروا خاليًا من أصول العمل القويم إلّا ما ندر بين عشرات النشرات والتعليقات والتمحّلات، وكان للقراءة

(١) مقالات في تاريخ القرآن ص٥١.

من هذه المشكلات النصيب الأوفى.

ولما كان الجلالان على معرفة قليلة بالقراءات، كما ذكر السيوطي نفسه، فقد بدا للدارسينَ أنهما لم يتقيّدا في هذا التفسير بقراءة أو رواية واحدة، ولم يلتزما تقديم قراءة معيّنة في جميع الآيات، وكأنهما اختارا ما كان يُحفظ من النص القرآني في ذلك العصر وتلك البقاع المصرية، وهو غير ذي إسناد واحد معيّن. هذا ما بدا للمتصدّين للنشر من السماسرة، فنقلوا فيما أصدروه من ذلك الكتاب نصوصَ القراءة المشهورة في ديارهم وبين أيديهم من الكتب والأجهزة، وكانت قراءة حفص أظهر ما هو متداول حينئذ، فأقحموها بين عبارات المفسّرَين الجليلَين.

وعندما شرعتُ في تحقيق هذا الكتاب الكريم وتتبّعت ما نُشر منه وقفتُ على إحدى مطبوعات البابي الحلبي لـه، ورأيتُ في الصفحة الثانية منها النص التالي: « مراعاةً لحقوق المؤلِّفَينِ، قد أثبتنا القرآنَ الكريم مضبوطًا بالشكل الكامل، على حسب رواية الشيخَينِ المفسِّرَينِ، وإن كانت تخالف روايةَ حفص ». وكان هذا داعيًا لي أن أستعين بالضبط المذكور، في تحقيق ما اختاره الجلالان من نسَق في القراءة للنص العظيم.

وبتتبُّع ما جاء في هذه المطبوعة مع ما تحصّل في النسخ الخطية لديّ وفي مصنّفات الحواشي والتعليقات على الجلالين، تبيّن لي أن القراءة التي اختارها هذان المفسِّران لآيات القرآن الكريم جُمهورُها الأساسي معتمد على قراءة إمام البصرة ومقرئها أبي عمرِو بن العلاء (ت ١٥٤)، وما خالف ذلك كان فيه أشياء مِن قراءة إمام مكّة المكرمة ومقرئها عبد الله بن كثير (ت ١٢٠)، ثم مِن قراءة إمام المدينة المنوّرة ومقرئها نافع بن عبد الرحمن (ت ١٦٩)، ثم مِن قراءة إمام أهل الشام ومقرئهم عبدالله بن عامر (ت ١١٨)، وما خالف ذلك في بعض المواقع فهو قليل، ومعظمه عند الجلال المحلّي. وبما أن هذا النصّ في « الجلالين » ليس مُصْحفًا، جاز لهما فيه خلاف القراءة الواحدة أيضًا، على

ما هو مألوف بين العلماء من الأصل والتوزّع.

ولكن الناشرين عدا البابي الحلبي ومن نقل عنه لم يدركوا هذه الحقائق، وانساقوا مع الأساليب الاعتباطية فكان منهم التلفيق الكثير بين ألفاظ الآيات الكريمة وضبطها وبين نصوص تفسير الجلالين، وزاد الأمرَ اضطرابًا نقلُ الناشرين الآياتِ مصوَّرة ممّا يحمله الكِبْتار « الكمبيوتر » بالرسم العثماني المشهور، خشية الوقوع في الخطأ كما يزعمون، فكانت لديهم مئات الأوهام والسقطات في اللفظ والضبط، نذكر نموذجًا منها ما وقفت عليه في مطبوعة دمشقية معاصرة.[1] هذا ما كان في نشرة واحدة لأستاذ التفسير في جامعة دمشق. فما قولك في مجموع النشرات التجارية كلها؟

* * *
* *
*

---

(١) من ذلك أمثال الآيات: ٢٨٢ من سورة البقرة، و١٠ و٢٧ من آل عمران، و٥٢ من النساء، و١٢ و١٠٧ من المائدة، و٦٨ و٩٤ و٩٩ من الأنعام، و٢٦ و٦٣ و١٦١ و١٩٣ من الأعراف، و١٨ و٤٤ من الأنفال، و٩٨ و١٠٣ من التوبة، و٣٥ و٨١ من يونس، و٦٠ و٨٧ و١١١ من هود، و١٩ و٣٢ من يوسف، و٥٤ من الحجر، و٤١ و٤٣ من النحل، و٢٣ و٣٨ و٦٨ و٦٩ و٩٧ من الإسراء، و٣٩ و٨٥ و٨٩ و٩٢ و٩٨ من الكهف، و١٩ و٦٨ من مريم، و٣١ من طه، و٦٧ و٨٠ من الأنبياء و٦ و٤٦ و٥٣ من النور، و٣٨ من الفرقان، و١٨ و٣٦ ومن النمل، و٣٠ و٥٧ من القصص، و٢٧ و٣٢ من لقمان، و٦٦ و٦٧ من الأحزاب، و١٥ من سبأ، و٩ من فاطر، و١٤ و٤٩ و٦٢ من يس، و١٦ و٤٠ و٥٣ من الصافات، و٥٧ و٥٨ و٦٣ من ص، و٦٤ من الزمر، و٤٠ من السجدة، و٢٣ و٢٥ و٤٠ من الشورى، و١٨ و٨٨ من الزخرف، و٢١ من الجاثية، و٢٣ من الأحقاف، و١٤ من الحجرات، و٢٣ و٤٩ من الذاريات، و٣١، ٣٧ من القمر، و٣٥ من الرحمن، و٤٧ من الواقعة، و٢٥ من نوح، و٦ من المزمل، و٩ من النبأ، و٧ من الانفطار، و٢٧ من التطفيف، و٨ من الغاشية.

٦
أسباب النزول

ممّا له علاقة جوهرية بتفسير الدلالات والمعاني في الآيات الكريمة أسبابُ النزول، أي: الحدَثُ الذي كان سببًا لنزول النصّ القرآني، سواءٌ أكان واقعة أم سؤالًا أُلقِي على النبي ﷺ. وهو أصل مهمّ في الفهم والتفسير الدقيقين، وإنّما يؤخذ بالرواية والسماع ممّن شاهدوا التنزيل ووقفوا على أسبابه، وبحثوا عن عِلمها وجدّوا في طلب ذلك. وتتحقّق الصيغة الصريحة للسبب، إذا قال الراوي: « سبب نزولِ هذه الآيةِ كذا »، أو أتى بفاء السببية قائلًا: « فنزل »، بعد ذكر الحادثة أو السؤال. أمّا إذا قال: « نزلتْ هذه الآية أو الآيات في كذا »، فالعبارة تحتمل السببية، وتحتمل تضمّن الآية أحكامَ ما ذَكر من دون تعيين.

وقد كثر التأليف في هذا الفن من علوم القرآن، فمنه ما كان موثّقًا صحيح الإسناد والرواية، ومنه ما كان أثرًا مرويًّا في كتب التفسير عن بعض الصحابة والتابعين وتابعيهم بدون توثيق وتحقيق. والأوّل هو المعتمد عند العُلماء في حين أنّ الثانيَ في قَبوله نظر وتردّد. ويمكنك إدراكُ الفرق بين هذا وذاك بمراجعة ما جاء في كتابين هما: « الصحيح المُسنَد من أسباب النزول » لِمُقبِل ابن هادي الوادعي، و« أسباب نزول القرآن » لِعليّ بن أحمد الواحدي.

بل لقد كان بعض المفسّرين يُشكِلُ عليهم معنى الآيات، فيرتّبون لها أسبابًا تناسب ما يذهبون إليه من التفسير. أضف إلى ذلك أنهم يذكرون للنص القرآني أحيانًا عدة أسباب مختلفة أو متناقضة دون أن يحرّروا المسائل المشكلة، فيقع القارئ في الحَيرة والاضطراب، إذا لم يكن معه شيخ يوجّه إلى الصواب.

والجلالان مثلًا كانا في تفسيرهما كثيرًا ما يوردان الروايات والأحداث، على أنها أسباب للنزول، وفيها ما هو لبيان الحُكم لا للسبب على ما بيّنّا قبلُ،

وهما غالبًا ما يسردان ذلك من دون إسناد، فيدخل في الصحيح الثابت ما هو ضعيف أو مختلَق لا أصل له، وربّما كان فيه دسائس إسرائيلية أو باطنية، تشوّه معاني الآيات الكريمة. ولذا كان علينا أن نقف في مثل ذلك عند ما صح بطلانه منه، لنحقّق منزلته المتهافتة، ونتبيّن وجه الصواب بالأدلة الموضوعية الموثّقة والمصادر العلمية المعتمدة عند جمهور العلماء، وما لم نجد إليه منفذًا تركناه لمن يقوّمه.

ثم هما كثيرًا ما أغفلا ذكر السبب لنزول الآيات الكريمة، فبقي المعنى يحتمل توجيهات مختلفة. وقد تتبّعنا في تحقيق تفسيرهما تلك المواطن الكثيرة المغفلة، تتبّعناها في المصادر المصنّفة لذلك وكتب السيرة والتاريخ والتفاسير المطوّلة، ونقلنا ما جاء فيها من أسباب للنزول صحيحًا، فأثبتناه في التعليق على الآيات أنفسها، ليكون عونًا على الفهم الصحيح. وهذا خلاف ما انتشر في أغلب مطبوعات « تفسير الجلالين »، إذ أُلحِق بحواشي الصفحات جميعُ أسباب النزول من كتاب « لباب النقول » للسيوطي، فكان فيها تكرارٌ لِبعض ما ذكره الجلالان وفيه خلاف أو مناقضة وتوزّعٌ اعتباطي لنصوص الأسباب بأسانيدها في صفحات بعيدة جدًّا عن صفحة الآيات المَعنيّة، لا علاقة له بموطن تفسيرها. وهذا إثقال للكتاب بدون طائل بل تغرير بالقُرّاء، إذ يربطون أحيانًا بين آيات وسبب لا علاقة لها به.

وهذا ناشر لتفسير الجلالين، أصدره عام ١٤٠٩ بدار العلم للملايين في بيروت، وكان في صنيعه إجراءات اعتباطية، تخالف مناهج العِلم. ومنها التصرّفُ في عبارات التعريف بالسور القرآنية وفي عبارات الجلالين بدعوى التصويب للتعبير كما قال، والفصلُ بين عبارات التفسير بإقحام نصوص« أسباب النزول » للسيوطي، وحذفُ الأخبار التي فيها مِسحة من الإسرائيليات، وتغييرُ نص القراءات ليكون كله على رواية حفص عن عاصم، مع تقديم بعض القراءات على بعض.

وبهذا افتقد النص وحدته، فكان فيه قِراءات تخالف التفسير الذي يرافقها، ونسَق مشوّه من التصنيف وعبارات مقطّعة متداخلة ومستويات متباينة من التعبير والأداء والمعارف، وتقحُّم في السياقات بألفاظ بعيدة عن مقاصد الجلالين. وحسبك أن تطلع على ما جاء في ص٥ - ٧ من ذلك المطبوع، لترى صور التشويه للنصوص مع الأخطاء العلمية والإملائية.

وحين صنّفتُ « التفسير الوافي المفيد لفهم القرآن المجيد »، وهو مختصر جدًّا ملحق بصفحات المصحف الشريف على ما تحتمله من الكلام، بتفسير جميع المفردات مرافقة معاني الأدوات، حين صنّفت ذلك أدمجت أسباب نزول الآيات في التفسير العامّ لها من ذيل الصفحات، فجمعتُ جمهور ما يمكن من تلك الجوانب التفسيرية اللازمة بعون اللّٰه تعالى. وله الحمد والمِنّـة.

* * *
* *
*

٧
الأخبار الإسرائيلية

كان بعض الصحابة ﷺ ينقلون عن معاصريهم من بني إسرائيل بعض الروايات التاريخية المتعلقة بما له صلة بالماضي البعيد أو القريب، وقد انتقلت من ذلك آثار إلى تفسير الآيات الكريمة المتحدّثة عن أخبار الأنبياء والأقوام القديمة، فكان من الواجب على العلماء بيان منزلة تلك الإسرائيليات وذِكر الحُكم فيها مع الإحالة على المصادر الموثقة، من الحديث الشريف والسيرة النبوية الكريمة وأقوال الثقاة من رجال التفسير ومصنفات التاريخ واللغة وعلوم القرآن الكريم والسُّنّة المباركة.

والظاهر أنّ اختيار المفسرين لتلك الروايات لم يكن عن غفلة وقصور، وإنّما كان ما نقلوه شائعًا في عصورهم، وهم يخاطبون به العُلماء الذين يعرفون منزلته المنكرة، ويعلمون ما يقابله من صحيح الأقوال وثابتها. ثم هم مطمئنّون إلى أن ما رُوي عن أهل الكتاب لا يجوز تصديقه ولا تكذيبه إلّا بحُجّة، وأن الإسرائيليات أقسام: فما صحّ بما لدينا من النصوص الشرعية كان مقبولًا لا بذاته بل بما جاء عندنا، وما تكذّبَ بما لدينا أيضًا أُنكر بحقّ، وما سُكت عنه جازت حكايته للرواية والإخبار لا للتصديق والاعتقاد. فهو يُروى ولا يجوز الاعتماد عليه لِما عُرف به اليهود - وهم شياطين البشر - من اختلاق للأكاذيب والأساطير والخرافات في تاريخ الدنيا عامّة وحياة الأنبياء والصالحين خاصّة.

وهذا ما يفيده الحديث الشريف المشهور، وهو قول النبي ﷺ: « وحَدِّثُوا عَن بَنِـي إسرائِـيلَ، ولا حَرَجَ ».[١] والأمر فيه هو أمر إباحة فيما كان غيرَ مخالف للنصوص الشرعية فقط، شأنه شأن ما يُروى من أخبار الفرس والروم

---

(١) الحديثان: ٣٢٧٤ و ٣٤٦١ من صحيح البخاري.

والهند والصين وغيرهم. ولكن ليس لنا أن نصدّقهم في ذلك لأننا مأمورون مرارًا بعدم التصديق، بل بالمخالفة لِما أَلِفه واعتاده أهل الكتاب عامّة واليهود خاصّة، وكانوا معروفين به أو متميّزين.

وإنما جاءت الإباحة بذلك الخصوص لأنها خاتمة مَراحل ثلاث في حياة الدعوة الإسلامية بالمدينة المنوّرة. فعندما قدم الرسول ﷺ المدينة أحبّ موافقة أهل الكتاب فيما لم يُنهَ عنه تألّفًا لهم ولأنهم أهل شرع، وكان ذلك بإلهام ووحي من المولى - تعالى - حتى لقد أُوحِيَ إليه تحويلُ القِبلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى. وعندما لم ينجع فيهم ذلك، وكثر تقليد بعض الصحابة لهم، زُجروا عن الأخذ عنهم خشية الافتتان واتّباع ما هم عليه واختلاط الأمور على المسلمين، وجاء الوحي بالعودة إلى استقبال المسجد الحرام. وبذلك أصبح أحبار يهود يقولون: هذا ما يَدعُ من أمرنا شيئًا إلّا خالفَنا فيه.

ولمّا استقرّت الأحكام الإسلامية والقواعد الشرعية كانت المرحلة الثالثة، إذ وقع الإذن وحصل التوسع ورُفع الحرج عن نقل أخبارهم، فكانت الإباحة خاصّة برواية ما لا ينافي الشرع الحنيف، وبقي الأمر بالمخالفة لهم فيما دون ذلك. وتحقيق هذا في الحديث المشهور. إذ خاطب الرسول ﷺ جماهير المسلمين إلى الأبد، بقوله: « لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَن كانَ قَبلَكُم شِبرًا بِشِبرٍ وذِراعًا بِذِراعٍ، حَتَّى لَو سَلَكُوا جُحرَ ضَبٍّ لَسَلَكتُمُوهُ » قال الصحابة: يا رسولَ اللّهِ، آليهودَ والنصارى؟ قال: « فَمَن »؟

والإخبار بالتقليد الأعمى هنا هو نُبوءة بما سيكون في المستقبل، مع التحذير الشديد والزجر العنيف للمسلمين. ثم إنّ هذا الاستفهام الأخير هو إنكاري للنفي والتوبيخ، أي: ليس المراد غيرَهم، فاحذروا أن تنقادوا بذلك. وفيه ما هو أبلغ من النهي الصريح، ويفيد الإطلاق حتى آخر الحياة الدنيا. وقد تأكّد تحقيق ذلك علينا بأمر ملزم آخر، هو ما يرد في آخر الفاتحة ﴿غَيرِ

المَغضُوبِ علَيهِم ولا الضَّالِّينَ ﴾[١]، نكرّره كل يوم حوالَي ٤٠ مرّة في الصلاة دعاءً وتضرُّعًا أن يجنِّبنا الله تقليد هؤلاء أو الانقياد لأباطيلهم.

فقد جاء في الصحيح أنّ النبي ﷺ قال: « إنَّ المَغضُوبَ عَليهِمُ اليَهُودُ، وإنَّ الضّالِّينَ النَّصارَى ». فالمراد إذًا هم أهلُ الكتاب ومَن كان مثلهم في العمل والأخلاق كالشيوعيين والرأسماليين والوثنيين وطواغيت المنافقين اليوم زعمائنا الخاضعين للحُلفاء، على هذا كان إجماع الصحابة والتابعين. ولكنّ أكثر المسلمين مع ذلك كله يتجاهلون التحذير والأمر والزجر والدعاء والتضرّع، ويستسلمون لمسوخ أهل الكتاب في جميع ميادين الحياة، ويتخذونهم قادة وأولياء.

أمّا المفسّرون فقد أغفلوا بيانَ ذلك بالتفصيل، لأنه معلوم ميسّر في الأحكام الشرعية، لا يحتاج إلى ذِكره في كل موطن، ولهم أن يروُوا من الإسرائيليات في حدود المنهج الشرعي ما داموا على بصيرة نافذة وعِلم يميّز الحق من الباطل.

ثم إنهم توسّعوا في مفهوم « الإسرائيليات »، حتى دخل فيه لديهم كلّ خبر مصدره أعداء الإسلام من مثل أباطيل الغَرانيق التي وضعها الزنادقة، وما أقحمه يوحنّى الدمشقي في قصة طلاق زيد لزينب رضي الله عنهما. ونحن نضيف اليوم ما يصدر عن وسائل الإعلام الشرقية والغربية ومَن ينقل عنها من المسلمين في الإذاعات والتلفزات والنشرات والتواصل « الإنترنت » والكترُون « البريد الألكتروني »، ومجالس التخريب والإفساد فيما يُنقل عن الروافض الباطنيين وأعداء القرآن الكريم والسّنّة النبوية والصحابة الكرام ﷺ وعن الكافرين والوثنيّين والملحدين من أقوال وآراء هدّامة خبيثة.

فجمهور المفسرين معذورون في صنيعهم ذلك، يروونه وهم على عِلم بما فيه من الدسائس والخُزَعْبِلات ومقاصد الفساد. غير أنّ القارئين في هذه

---

(١) الآية ٧ من سورة الفاتحة.

العصور بعُدوا عن التفقّه التامّ، وغاب عنهم بعض الأُصول والفروع، فانقادوا إلى اعتقاد صحّة ما جازت روايته من الإسرائيليات، ودخل في نفوسهم كثير مما حاكه أولئك من أباطيل ونشروه من الفساد والشرور والرذائل. ومن ثَمّ كان على العلماء أن يَقرنوا تلك الأخبار الباطلة والأساطير المختلفة ببيان ما فيها من الأكاذيب وذِكر وجه الصواب، لتوجيه العامّة إلى الحق. وإلّا انساق هؤلاء وراء الأباطيل، وأشاعوها بين الآخرين على أنها وقائع تاريخية وحقائق معتبرة. ولهذا رأيتُ من واجبنا أن نعلّق على كل خبر مكذوب وقول مختلق أو ضعيف ببيان حقيقته وذِكر وجه الصواب مع الإحالة إلى المصادر العلمية الموثّقة.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن ما يذكره أولئك من آلاف السنوات في تاريخ الأمم والأنبياء القدماء وعددهم وعن العرب واللغة العربية هو ممّا أَلِفه الناس في المصادر المتداولة، وكثير منه مصدره الخرافات أيضًا. والحقّ أنّ تلك الآلاف والمعلومات ليس لها سند علمي موثّق، وهي أباطيل من مزاعم يهود ومَن نقل عنهم، فلا يجوز اعتمادها في البحث إلّا استئناسًا وتقريبًا للأفهام مع النقد العلمي المعتبر. ذلك لأن حياة الأمم القديمة والأنبياء القدماء تستغرق عشرات الآلاف من السنين أو أكثر. وإذا كان نوح ﷺ قد عاش قرابة ألف سنة، ومَن قبله وبعده كان كذلك أو أكثر، فلا عجب أن يكون للتاريخ الإنساني عمر مديد جدًّا، لا تمثّل المقولات الإسرائيلية منه إلّا أقلّ القليل. وشبيه بهذا ما يُذكر من أنساب القدماء وعدد الأنبياء، هو من مقولات اليهود إلّا ما ندر وكان له خبر موثّق.

* * *
* *
*

٨
وظيفة معاني الأدوات
في تفسير القرآن الكريم

التمهيد:

يعتقد العلماء المسلمون أنّ كلًّا منهم سيكون سؤاله عسيرًا يوم الدِّين، إذا لم يكن له مشاركة في الخِدمة للكتاب العزيز، فانصبّت جهودهم المباركة في تأسيس العلوم القرآنية وتنميتها هي وما واكبها من المعارف والخِبرات، حتى رأيتَ في المكتبات ما لا يُحصى من المصنَّفات والرسائل والأبحاث في ميادين هذا النور الإلـهي الجليل.

ولقد كان للتفسير[١] نصيب عظيم في تلك الأعمال الطيّبة، انطلقت بوادرها الأُولى في آيات كريمة تستوعب ما كان قبلها من شقائقها يحتاج إلى البيان، فتفسِّر بعضه وتبيّن الحكم فيه، ثمّ بلسان محمد ﷺ وفي أعماله الكريمة بالتفسير والتوجيهات، حين يبلّغ ويدعو ويجاهد ويعلّم ويتصرّف مع أهله وأصحابه ومن حوله، ويبيّن مَعالم الهداية ومقاصدها في العقيدة والعبادة والشريعة والدعوة والفقه والعمل والقيادة، ثم تابع ذلك جماهير الصحابة والتابعين الكرام، واتسعت رُقعة الخِدمات القرآنية، فكان في ميادينها الآلاف من العلماء والباحثين إلى عصرنا هذا، تصدر عنهم مصنّفات وفيّة، تنقل إلى الناس ما تجدّده ظروف التفسير وأوضاع العلوم والمعارف والتصرُّفات في ميادين الحياة ومتطلّباتها.

ولذا امتازت تلك الآثار المباركة بالتنوّع في علوم كثيرة متباينة المَشارب، تُستمدّ توجّهاتُها وأصولها من ينابيع الكتاب الربّاني والسُّنّة المشرَّفة، وتنطلق

---

(١) من زعم أن القرآن الكريم لا يفسَّر فهو واهم فيما يقول، والتاريخ شاهد عليه. انظر البرهان في علوم القرآن ١ : ٤٦٥ وتفسير الشعراوي ١ : ٩ والتفسير والمفسرون في العصر الحديث لعبد القادر محمد صالح ص٢١٩ - ٢٢٠.

في مَسالك مختلفة متكاثرة، ثم تلتقي روافدها في حياضه، لتحقّق بعض بيانِه وعظيمِ خلوده الأبدي، وكان لمصنَّفات التفسير ركن ظاهر في تلك الغرَسات الطيّبات، ينمو ويتّسع مع الأيّام وتتفرّع ظلاله بألوان من الإيجاز والتوسّط والتفصيل، في نماذج غفيرة تخدم جميع مستويات العِلم والتعليم والعمل والبحث والتأليف.

فقد جاء عن بعض العلماء أنه لكل آية ستون ألفَ فهم.[١] ولهذا ترى أن تاريخ التصنيف عن النصوص القرآنية مرّ بمراحل متعدّدة، من الطفولة واليفوع والشباب المستمرّ أبدًا، فأصبح له مذاهب وتوجّهات ومدارس مختلفة، بحسب البيئات العلمية والثقافية والمذهبية والسياسية. وخلال ذلك كله تولّد اتجاهان متمايزان متقابلان: أحدهما يهتم بالموسوعية فيستوعب العلوم المعاصرة له بالتفصيل والاستطراد والاحتجاج، والآخر يستهدي البساطة والإيجاز فيكتفي بتفسير المعاني الدقيقة في إشارات واختصار. وفي هذين كلا الاتجاهين قلّ أن ترى نصيبًا وافرًا لذكر معاني الأدوات في تفسير الآيات الكريمة.

الحروف والأدوات:

الأداة وسيلة يُستعان بها لتأدية عملٍ ما، وهي عند المناطقة لفظ لا يدل على معنًى إلّا عند اقترانه بغيره. ثم اختلف الباحثون في تحديد المفهوم النحوي لها، فقيل[٢]: « إنّ الأدواتِ هي حروف المعاني وما شاكلها من الأسماء والأفعال والظروف »، وقيل: « هي كلمات تُستعمل للربط بين المفردات أو للدلالة على معنًى في غيرها »، وقيل: إنها تقتصر على حروف المعاني أو تشمل معها الظروفَ، أو هي مَبنًـى تقسيمي يؤدِّي معنَى التعليق

---

(١) البرهان في علوم القرآن ١ : ٤٥٤ و٢ : ١٥٤. والعدد هنا مطلق للمبالغة لا لتحديد أو تعيين.

(٢) الإتقان فـي علوم القرآن ١ : ٢٤٧ ومفتاح السعادة ٢ : ٤١٧ وكشاف اصطلاحات الفنون ١ : ١٤٢ ومن أسرار اللغة ص٢٧٨ ومدرسة الكوفة ص٢٤٢ واللغة العربية معناها ومبناها ص١٢٣ والمعجم الكبير ١ : ١٥٦ والأدوات النحوية في المعاجم ص٩ - ١٣.

بين الأجزاء المختلفة من الجملة، أو هي الحروفُ التي تحمل معنًى نحويًّا، والأسماءُ والأفعال التي تحمل معنًى تلك الحروف وتكون مبنيّة مثلها.

والجدير بالذكر أن تفسير الأداة بالحرف لا يعني تطابق مفهومَي المصطلحَين، ولا بد من بيان الفرق بينهما. فالأداة هي في الحقيقة أعم وأوسع مدًى، إذ كل حرف أداةٌ لأنها تشمل حروف المعاني وما شابهها من الأسماء والأفعال، وليست كلُّ أداة حرفًا. وعلى هذا فإنّ الأسماء: « إذ وإذا وأنّى وأيّ وأيّان وأين وأينما وحيثما وسِوَى وغير والكاف وكذا وكلّ وكِلا وكِلتا وكم وكيف ولمّا وما وماذا ومتى ومع ومُذ ومَن ومُنذ ومهما »، والأفعالَ: « حاشَى وخلا وعدا وعسَى ولا يكون وليس » هي من الأدوات، ولكنّها ليست من حروف المعاني، ما دامت تلازم الاسمية أو الفعلية. ثم إنّ ضمائر الفصل والأفعال الناقصة التي ترد زائدةً هي من الأدوات، فلا محل لها من الإعراب، ولا تقتضي عاملًا أو معمولًا.

وإذا فتحنا مِلفَّ معاني الأدوات في هذه الميادين رأينا للنحاة بسط قليل من ذلك كما ذكرنا، وللمفسّرين مجالًا أوسع لبيان تلك المعاني وتوظيفها في مصنّفاتهم. فابن عبّاس (ت ٦٨) ﵁ لازم رسول الله ﷺ وروى عنه الأحاديث، وهو حَبر الأُمّة وترجمانُ القُرآن، وينسب إليه تفسير كثير جدًّا جُمِع ما بقي منه تحت عنوان « تفسير ابن عبّاس »، و« تنوير المقباس من تفسير ابن عبّاس »، فكانت له أقوال مشهورة في معاني الأدوات.

فممّا رُوي عنه أنه حين عرض للآية المباركة: ﴿ وقَضَينا إِلَى بَنِي إسرائيلَ فِي الكِتَابِ لَتُفسِدُنَّ في الأرضِ مَرَّتَينِ ﴾[١] جعل « إلى » فيها للاستعلاء بمعنى: على، فقال: أي: « قضَينا عليهم ».[٢] والمراد أنّ إلى: للاستعلاء المعنوي. ومعروف أن العلماء اختلفوا في تحليل « وَيكأنَّ » من قول الله –

---

(١) الآية ٤ من سورة الإسراء.

(٢) تفسير البغوي ٣ : ١٠٦ وتفسير القرطبي ١٠ : ٢١٤ والمحرّر الوجيز ٣ : ٤٣٧ وتنوير المقباس ٣ : ١٢٦.

سبحانه - على ألسنة قوم قارون: ﴿ وَيكأنَّ اللَّهَ يَبسُطُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ مِن عِبادِهِ ﴾![١] فكان لهم في ذلك عدّة أقوال. أمّا ابن عبّاس فقد تقدّمهم جميعًا حين ذهب إلى أنّ « وَيْ » حرف تنبيه، وقال: « وَيْ: صِلةٌ في الكلام ».[٢] يعني أنها كلمةُ تَنبُّهٍ على الخطأ والتندُّم، أي: أنّ القوم تنبّهوا فقالوا: « وَيْ ». والمتندِّم من العرب يقول في خلال تندُّمه: وَيْ.[٣]

ولقد علّق على: ﴿ فعَسَى أُولئكَ أن يَكُونُوا مِنَ المُهتَدِينَ ﴾[٤] بما يلي: إنّ أولئك هم المفلحون،[٥] كقوله لنبيّه: ﴿ عَسَى أن يَبعَثَكَ رَبُّكَ مَقامًا مَحمُودًا ﴾[٦]، يقول: إنّ ربك سيبعثك مَقامًا محمودًا. وهي الشفاعة. وكلّ « عسى » في القرآن فهي واجبة. ثم هو يرى أنّ هذه الأداة قد ترد للتعليل، فيعلّق على: ﴿ لَعَلَّهُم بلِقاءِ رَبِّهِم يُؤمِنُونَ ﴾[٧] بقوله: كي يؤمنوا بالبعث ويصدّقوا بالثواب والعقاب.[٨] وكذلك ما ذكره في غير آية أيضًا.[٩]هذا في حين أنه فسّر: ﴿ وتَتَّخِذُونَ مَصانِعَ، لَعَلَّكُم تَخلُدُونَ ﴾[١٠] بالقول: « كأنّكم تخلدون ». وقد جاء في مُصحف أُبيّ بن كعب (ت ٢١): « كأنّكم ».[١١] فـ « لعلّ » هنا تفيد الظنّ والتقريب، وهي مفسَّرة على ذلك في أقدم المصاحف. ورُوي عن ابن مَسعود: كي تخلدون.[١٢] يعني أنها للتعليل، إذ وقعت « كي » في موضع « لعل »

(١) الآية ٨٢ من سورة القصص.
(٢) تأويل مشكل القرآن ص٤٠١.
(٣) الكشاف ٣ : ٤٣٤ وتفسير القرطبي ١٣ : ٣١٨.
(٤) الآية ١٨ من سورة التوبة.
(٥) كذا في تفسير ابن عباس ص٢٦٠ والطبري ١٤ : ١٦٧ - ١٦٨ وابن كثير ٢ : ٣٢٦. وفي الدر المنثور ٣ : ٢١٦: « هم المهتدون ». وهو أولى لموافقة لفظ الآية المباركة.
(٦) الآية ٧٩ من سورة الإسراء.
(٧) الآية ١٥٤ من سورة الأنعام.
(٨) البحر ٧ : ٣٢ وتفسير الآلوسي ٨ : ٨٨ و المفصل في تفسير القرآن الكريم ص٥٣٤ - ٥٣٦.
(٩) انظر تنوير المقباس ٢ : ٧٤ في تفسير الآيتين ١٥٢ و ١٥٣ من سورة الأنعام.
(١٠) الآية ١٢٩ من سورة الشعراء.
(١١) تفسير الرازي ٨ : ٥٢٣ والكشاف ٣ : ٣٢٦ والبحر ٧ : ٣٢.
(١٢) المحرّر الوجيز ٤ : ٢٣٨ والبحر ٧ : ٣٢ وتفسير الآلوسي ١٩ : ١٦٥.

للتفسير، وجاء الفعل بعدها بلفظه على الحكاية من دون نصب، كما ترى.

وكذلك كانت إشارات طفيفة للمفسِّرين في معاني الأدوات من أمثال: مُقاتل ومُجاهد، ثم جاء أبو عُبيدة فكان له في التفسير عِلم ظاهر حتى لقد ذُكر له: تفسير القرآن ومعاني القرآن ومَجاز القرآن. وأنت إذا رجعتَ إلى هذا الكتاب الأخير - وهو مصنَّف تفسير وظنّه كثير من جهَلة الباحثين مصنَّفَ بلاغة وجعلوه في المكتبة البلاغية - وقفتَ فيه على أقوال غفيرة في معاني الأدوات. حتّى إنه ليُدخل فيها ما ليس منها. وقد افتتح ذلك بقوله: « ومن مَجاز الأدوات اللواتي[1] لهنّ مَعانٍ في مواضع شتَّى، فتجيء الأداة منهنّ في بعض تلك المواضع لبعض تلك المعاني ». ومن ذلك أنه أورد قول اللّٰه تعالى: ﴿ ولأُصَلِّبَنَّكُم فِي جُذُوعِ النَّخلِ ﴾[2]، وذكر أن معناه: على جذوع النّخل، وقال عن: ﴿ إذا اكتالُوا عَلَى النّاسِ يَستَوفُونَ ﴾[3]: معناه: مِنَ الناس، وذكر في قول اللّٰه تعالى: ﴿ وهذِهِ الأنهارُ تَجري مِن تَحتِي. أفلا تُبصِرُونَ؟ أم أنا خَيرٌ مِن هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ ﴾[4] أنّ معناه: بل أنا خيرٌ.

وقد تابع هذه المسيرة يتكلّم على معاني قليل من الأدوات فيما بعدُ مع اهتمام بالنصِّ على ما هو مزيد في الإعراب واستشهادٍ بنماذج من الشعر نحو: ﴿ لا يَستَحْيِي أنْ يَضرِبَ مَثَلًا ما بَعُوضَةً ﴾[5] قال: معناها: أن يضربِ مثلًا بعوضةً، « ما » توكيد للكلام من حروف الزوائد. قال النابغة الذبياني:

قالَت: ألا لَيتَما هذا الحَمامَ لَنا إلَى حَمامتِنا ونِصفَهُ، فقَدِ

أي: حَسْبُ. و « ما » ههنا حشوٌ. ومن ذلك: ﴿ فبِما نَقضِهِم مِيثاقَهُم ﴾[6] قال

---

(١) اللواتي: مبتدأ يتعلق بخبره: من مجاز. انظر مجاز القرآن ١ : ٤.
(٢) الآية ٧١ من سورة طه ومجاز القرآن ١ : ٤.
(٣) الآية ٢ من سورة المطففين ومجاز القرآن ١ : ٤.
(٤) الآيتان ٥١ و ٥٢ من سورة الزخرف ومجاز القرآن ١ : ٤.
(٥) الآية ٢٦ من سورة البقرة ومجاز القرآن ١ : ٨.
(٦) الآية ١٥٥ من سورة النساء ومجاز القرآن ١ : ٣٠.

في بيانه: فبِنَقضِهم. والعرب تستعمل « ما » في كلامها توكيدًا. وقال: ﴿ وإذ تأَذَّنَ رَبُّكُم ﴾[١] مَجازُه: وآذَنكم ربُّكم، وإذ: من حروف الزوائد، وتأَذَّن: تَفَعَّلَ من قولهم: آذَنتُه. ﴿ ومَن يَعمَلْ مِنَ الصّالِحاتِ ﴾[٢] مَجازه: ومَن يعملِ الصّالحاتِ، و« مِن » من حروف الزوائد. و﴿ هَل من شُرَكائكُم مَن يَفعَلُ مِن ذلِكُم مِن شَيءٍ؟ سُبحانَهُ وتَعالَى عَمّا يُشرِكُونَ ﴾[٣] مجازه: مَن يفعلُ من ذلكم شيئًا. و « مِن » من حروف الزوائد.

وإذا تصفّحتَ « معاني القرآن » للأخفش والفرّاء والزجّاج والنحّاس وتفاسير الطبري والماتُريدي والحَوفي والتبريزي والبغوي وقفت على قليل من تعرُّض لمثل هذه المعاني. ولذلك قسا الزمخشري بالنقد لأسلافه في تقصيرهم، وذكر أنّ مَعالم التفسير لا يتصدّى أحد لسلوكها ولا يغوص على شيء من حقائقها « إلّا رجل قد برع في علمَين مختصَّين بالقرآن - وهما علم المعاني وعلم البيان - وتمهّل في ارتيادهما آونة، وتعب في التنقير عنهما أزمنة، وبعثتْه على تتبّع مظانّهما هِمّة في معرفة لطائف حُجّة الله، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله، بعد أن يكون آخِذًا من سائر العلوم بحظّ، جامعًا بين أمرين: تحقيق وحِفظ ».[٤]

ثم حاول أن يسدّ تلك الثُّغرة بالوقوف على بعض الأدوات لتوضيح معانيها، فذكر[٥] أن التعريف في ﴿ الحَمدُ لِلّهِ ﴾ هو « نحو التعريف في: أرسَلَها العِراكَ. وهو تعريف الجنس ومعناه الإشارة إلى ما يعرفه كلّ أحد من أنّ الحَمد ما هو؟ والعِراكَ ما هو؟ من بين أجناس الأفعال. والاستغراقُ

(١) الآية ٧ من سورة إبراهيم ومجاز القرآن ١ : ٥٩.

(٢) الآية ١٢٤ من سورة النساء ومجاز القرآن ١ : ٧٨.

(٣) الآية ٤٠ من سورة الروم ومجاز القرآن ١ : ٩٧.

(٤) الكشاف عن حقائق التنزيل ١ : ٧. هذا هو عنوان الكتاب كما ذكر الزمخشري في ص٨ من الخطبة، وقد أقحم الناشرون الجاهلون فيه ما أفسد مراده، إذ جُعل كما يلي: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل.

(٥) الكشاف ١ : ١٩ - ٢٠.

الذي يتوهّمه كثير من الناس وهَمٌ ». والواقع أن تنظيره بالعِراكَ لا وجه له هنا، لأنه هو نفسَه[١] والنحاة مِن زملائه جعلوا « أل » فيه زائدة، والتقدير: مُعارِكةً، بالنصب على الحال من المفعول قبل. ثم إنّ الاستغراق في « الحمد » ليس وهَمًا، وإنما الوهَم في الحصر أن المراد « ما يعرفه كلّ أحد من أنّ الحمد ما هو »؟ لأنّ قوله هذا يعني أنّ الحمد هنا هو المعروف لدى الناس وأنّ « أل » جنسية لتعريف الماهية، والقول بالاستغراق هنا هو الأولى.

أمّا باء البسملة فقد اضطرب قوله فيها، إذ جعل تعلُّقها « بمحذوف تقديره: بسم الله اقرأ أو أتلو. ونظيره في حذف متعلَّق الجار قوله ﷻ: ﴿ في تِسعِ آياتٍ إلَى فِرعَونَ وقَومِهِ ﴾[٢] أي: اذهب في تسع آيات »، ثم عاد فذكر أنّ التعـلّق « فيه وجهان: أحدهما أن يتعلق بها [أي: بالكتبة] تعلُّقَ القلم بالكَتْبة في قولك: كتبتُ بالقلم على معنى أنّ المؤمن... جعل فِعلَه مفعولًا باسم الله كما يُفعل الكتبُ بالقلم، والثاني أن يتعلّق بها تعلُّق الدُّهن بالإنبات في قوله: ﴿ تُنبِتُ بالدُّهنِ ﴾[٣] على معنى: متبرّكًا باسم الله أقرأ ».[٤] ومن هذا ترى أنه جعل الباء أوّلًا للإلصاق المعنوي حين علّق الباء بالفعل: أبدأ، ونظّرَه بما هو للمصاحبة في آية النمل، ثم جعلها للاستعانة في الكَتْبة ورجع إلى الملابسة بآية: المؤمنون، وفي ذلك تردّد غير محمود. وأخيرًا فالتقديم « على العامل عنده يوجب الاختصاص، وليس كما زعم » لأنه يكون للاهتمام والعناية.[٥] وعلى مثل هذا تراه يضطرب في تعداد الوجوه للمعنى الواحد في كثير من تفسيره مع تسمُّح في التوجيه واستعمال الاصطلاح.

وقد تابعه المفسِّرون من بعده يُولون بعض الأدوات تفسيرًا، متأثّرين

(١) انظر كتابه المفصل ص٩١.
(٢) الآية ١٢ من سورة النمل.
(٣) الآية ٢٠ من سورة المؤمنون.
(٤) الكشاف ١ : ١٢ - ١٤.
(٥) انظر البحر المحيط ١ : ١٢٧.

أقـواله وأحكـامه، فكان ذلك عند أمثال البيضـاوي والنسـفي والرازي والقرطبي والكواشي والخازن، حتى جاء أبو حيّان فذكر أنه أضاف في تفسيره « ما استخرجتْه القوّة المفكّرة من لطائف علم البيان، المُطلِع على إعجاز القرآن ».[1] وهو إنما يريد « علم المعاني » المعروف عند البلاغيّين، ويشير إلى اهتمامه بذلك في معالجته للتفسير. وكذلك كان شأن المفسّرين المتأخّرين كالسمين الحلبي وأبي السعود والشوكاني وابن عاشور والآلوسي، فصار لهم من الجهود ما فاق محتويات مصنّفات النحو.

ومع أن للأدوات عوالمَ ضخمة واسعة الأمداء في المساعدة على خِدمة القرآن الكريم، فإنك ترى لقليل منها في كتب التفسير والأعاريب إشارات سريعة خفيفة وبعبارات مقتضبة، ولا تجد استيعابًا لواحد منها أو لدلالاتها عند أحد من العلماء، حتى إنّ ما وقفوا عليه أو عبّروا عنه لا يساوي ٥٪ مما يحويه القرآن الكريم. لكأنهم أغفلوا ذلك الباقي وهو ٩٥٪ من الواجب بيانُه لِما في صدورهم من علمه وإدراكه، وهم يظنّون أنه حاضر في صدور الدارسين والقارئين والباحثين. والحقّ أنّ هذا الظنّ غير وارد في صفوف المتأخّرين من الأجيال والمعاصرين لنا، فوجب الوقوف عنده وفاء بالبيان والتفصيل والاستيعاب.

ولأنني لمستُ هذا الفراغ في ميادين تلك المصـادر والمراجع وفي أذهان من حولي من الأساتذة والدارسين والباحثين، وأنا أتـابع التعلُّم والتعليم والبحث والتحقيق والتأليف والتوجيه والاختبار، رأيتني ملزمًا القيامَ بالعمل لاستيفائه وملئه، فشرعت بشيء منه في محاضراتي ودروسي الجامعية، وأصدرت بعضه في « المورد النحوي الكبير » نموذجًا مبسّطًا ميسَّرًا ومقتضبًا، ثم توجّهتُ إلى استيعاب جميع العناصر في « المفصّل في

(١) البحر المحيط ١ : ١٠٠. وقد لخصّ أبو حيّان مصنّفه هذا تحت عنوان: النهر المادّ، ثم لخصّ هذا أيضًا باسم: الساقية.

تفسير القرآن الكريم » وما بعده من المصنّفات.

ولقد كان آخر ذلك في « شرح بانت سعاد، وشرح القصائد السبع الطوال، وإعراب رياض الصالحين للإمام النووي »، حيث شرحتُ معاني الأدوات بالدقّة والتسلسل والتفصيل، وباعتمادٍ في كثير منها على شِبه نُثار من نهج واضح القسَمات، ثم وقفتُ بالتفصيل والاستيعاب الكاملين في « الإعراب المنهجي للقرآن الكريم »، أسرد تلك المعاني كما الأعاريب والأمور الصرفية، ولو تكررتْ في الصفحة الواحدة، لأنّ القارئ قد يكون في البحث عن عبارة معيّنة فليس مطالبًا بقراءة ما قبلها وما بعدها. واكتفيت ببيان معنى « أل » في لفظ الجلالة مرة واحدة لأنها كثيرة الورود بشكل ملحوظ، وكذلك أغفلتُ الكلام على معاني تاء التأنيث والتنوين لأنها ميسورة ومحدودة. ولمّا كان لبعض الأدوات عدّة معانٍ وظيفية وجب أن توزَّع هذه المعاني فيُذكرَ منها في الإعراب ما هو ألصق به، ويُتركَ الباقي ليكون له الحضور في حقل المعاني النحوية البيانية.

هذا، وقد أضاف المفسّرون والنحاة والمُعرِبون واللغويون وعلماء البيان إلى مقولات البصريّين والكوفيّين في تلك الدلالات تفريعات وتفصيلات من المعاني النحوية البلاغية، جمعنا نحن ما انتثر منها في المصنّفات المختلفة مضيفين إليه شذرات متمِّمة، وألّفنا بين ذلك في عبارات واضحة ليكون فيما نقوله استيعاب وافٍ لِما رأيتَ في حديثنا عن التحليل السياقي للأدوات.

وخلال تجوالنا في الآفاق العملية لتوظيف معاني الأدوات في التفسير، كان مبدأ مذهبنا أن الأداة لها دلالة خاصّة بها متميّزة، خلافًا لما عليه جمهور النحاة من قولهم عن حروف المعاني: « إنها ترد لمعانٍ في الاسم والفعل »، وهم يريدون أن كلًّا منها ليس له معنًى إفرادي، وأنه حين يُقرن بالاسم أو بالفعل يضيف إليه المعنى النحوي المعروف، متحصّلًا بما اقترن به لا منه وحده. والحقّ أن الحرف النحوي ذو دلالة معنوية مستقلّة ظاهرة فيه، تتجسّد

في الذهن مع ذكره، وقد تكون وحيدة أو ذات عدّة توجُّهات محتمَلة، فإذا انتظم في عبارة تجرّد لمقصَد معيَّن وزالت عنه سائر الاحتمالات.

وهذا ما عبّر عنه الإمام عليّ ﷺ منذ ألف وأربعمِائَةِ سنة حين عرّف الحرف بأنه « لمعنًى»، فقال: « ما أنبأ عن معنًى ليس باسم ولا فعل». وقد تأثّر هذا القولَ بعض العلماء كسيبويه وخلف الأحمر وابن السرّاج، ثم اضطربتْ مذاهب النحويّين في توضيح المفهوم، ساد منها بينهم أنّ الحرف « ما دلّ على معنًى في غيره »، مع تفسيرات مشتَّتة متضاربة. على أننا نجد في القرن السابع ابن النحّاس محمّد بن إبراهيم الحلبي يعيد إلى المسألة وجهها الأصيل بقوله: « إنّ الحرف معناه في نفسه ».

وأنت لو تصفّحتَ معي الأقوال المنثورة للنحاة واللغويّين والمفسّرين والبلاغيّين في مصنّفاتهم الغفيرة لرأيتَ ما يوردونه في ذلك الميدان كلّه يعني أن الحرف النحوي يفيد معنى المصدر، نعم المصدر.[١] فالاسم يدلّ على الذات عامّة، والفعل يدلّ على حركة ذلك وعمله، والحرف يدلّ على مصدر يتصل باسمين أو بفعل واسم نحو: الكتابُ في المكتبة، وذهبَ الطفلُ إلى المدرسة. فالحرف « في » للظرفية المكانية يتصل بالكتاب والمكتبة، والحرف « إلى » لانتهاء الغاية المكانية يتصل بالفعل والمدرسة. وقد يكون ذا صلة بالاسم وحده نحو « أل » التعريف في: الكتاب، أو ذا صلة بالفعل وحده نحو: لن ينجحَ كسول، أو ذا صلة أو فصل بين فعلين أو جملتين.

وإذا نظرتَ الآن من زاويتين إلى الدلالة الاصطلاحية للحرف تبيّن لك

---

(١) لعلك ترى في قولهم: « يدلّ على معنى » ما يوحي بالمصدرية لأنّ « معنى » هو مصدر للفعل: عَنَى يَعنِي، وفي قول الكوفيين: « حروف الصفات » كذلك لأنّ « صفة » هي مصدر للفعل: وصفَ يصفُ. ولكن هذا وذاك لم ينبّه العلماء إلى اكتشاف حقيقة الدلالة الاصطلاحية لحروف المعاني أو حروف الصفات، لينصّوا عليها ويريحوك ويريحونا من عناء الاضطراب والخلاف والتشعّبات ومتابعة البحث. وذلك لأنّ « معنى » هو مصدر ميمي فرعي غير أصلي، و« صفة » مصدر المرّة فرعي وغير أصلي أيضًا، فليس فيهما ما يحدّد المراد بدقة وتفصيل، وكل منهما يتطلب تخصيصًا للمعنى الفرعي بمعناه العامّ المطلق، ويكون تعيينه في تركيب الجملة التعبيري. والله - تعالى - أعلم بالصواب.

أنها بدلالته على المصدر هي من لفظ الأسماء وبمعنى الأفعال خلافًا لِما فُهم من قول الإمام علي ﵁ وسيبويه ومن تابعهما، وذلك لأنّ الظرفيّة في الباء والانتهاء في « إلى » كما ترى هما لفظان مصدريان أي: اسم، وكلتيهما تدلّ على معنى الفِعل، أي: الحَدَث مجرّدًا من الزمان والمكان والذوات.

فالحرف إذًا هو قسيم الاسم والفعل في الكلام، وقاسم مشترَك بينهما في الدلالة التي تتعيّن في سياق الجملة، لكنه ليس في الاصطلاح بمعنى الأوّل ولا بمعنى الثاني. وهذا هو المراد بأنه دالٌّ على معنًى ليس باسم ولا فعل، فقولنا: « هل قام زيدٌ »؟ ترى فيه معنى الاستفهام، وهو مصدر، ليس بالفعل الذي هو « قامَ » ولا بالاسمِ الذي هو: زيد.

ثم إذا سألتَ عن معنى كلمة « حرف » فالمراد بذلك أنه يتضمّن حرفَ المعنى النحوي أي: جانبه العامّ غير المعيّن، لا لأنه يأتي في أوائل الكلام وأواخره كالحروف والحدود له كما ذكر ابن جنّي، بل هو عندي ذو دلالة عامّة تحتاج إلى دخوله في سياق الجملة حتى تتعيّن دلالته الخاصة بدقّة في التعبير. وهذا وما مضى قبله قد نبّهني إليهما اللّٰه - تعالى - بعد البحث والتنقيب ٦٠ سنة، والحمد للّٰه ربّ العالمين.

ومع هذا كله جرت التفاسير حتى يومنا هذا على القليل القليل من توظيف تلك الآفاق العُظمى لمعاني الأدوات، ولكي يتبيّن لكم ما كان عليه المفسّرون في ذلك من التقصير، أوردُ لكم ما يلي للمطالعة والتبصّر:

سورة القلم نموذجًا:

بسمِ اللّٰهِ الرّحمن الرّحيم: بسم: الباء: للاستعانة. واللّٰه: أل: زائدة لازمة للتزيين اللفظي ومبالغة التعظيم. والرحمن: أل: جنسية للمبالغة والكمال. والرحيم: أل: جنسية للمبالغة والكمال أيضًا.

ن: من الأحرف المقطّعة، استأثر اللّٰه بعلمها وهي سِرّه المكنون في كتابه العزيز. ولذلك لا نُعربها. والواو: للقسم. والقلم: أل: عهدية ذهنية. وما:

الواو: حرف عطف، عاطفة لمطلق الجمع. وما: اسمٌ موصول لغير العاقل.١ ما أنت: ما: حرفية نافية للحال اللازمة. وبنعمة: الباء: للسببية. وبمجنون: الباء: لتوكيد النفي وتحقيق ما تضمّنه.٢ وإنّ: الواو: عاطفة لمطلق الجمع. وإنّ: للتوكيد. ولك: اللام: للاستحقاق. ولأجرًا: اللام: للمبالغة في التوكيدِ والحالِ. وغير: وصفية للمغايرة.٣ وإنّك: الواو: عاطفة لمطلق الجمع. وإنّ: للتوكيد. ولعلى: اللام: للمبالغة في التوكيد والحال. وعلى: للاستعلاء المعنوي.٤

فستبصر: الفاء: للاستئناف. والسين: لتوكيد حصول الفعل في المستقبل. ويبصرون: الواو: عاطفة لمطلق الجمع.٥ بأيّكم: الباء: للظرفية المكانية بمعنى: في. وأيّ: استفهامية لطلب التعيين وللتعريض بجبابرة قريش. والميم: حرف لجمع الذكور مع التغليب. والمَفتُونُ: أل: عهدية ذكرية.٦ إنّ: للتوكيد. وبمن: الباء: للإلصاق المعنوي. وعن: للمجاوزة المجازية. وهو: الواو: عاطفة لمطلق الجمع. وبالمهتدين: الباء للإلصاق المعنوي. وأل: حرفية موصولة للعاقلين.٧

فلا تطع: الفاء: هي الفصيحة للاستئناف والسببية. ولا: طلبية للنهي، أي: طلب ألّا يقع الفعل وفيه تهييج وإلهاب للتصميم على المخالفة للكافرين. والمكذّبين: أل: جنسية للاستغراق العُرفي.٨ لو: مصدرية للمستقبل. وفيدهنون: الفاء: عاطفة للترتيب والتعقيب والسببية.٩

ولا تطع: الواو: عاطفة لمطلق الجمع. ولا: طلبية للنهي أيضًا، أي: طلب ألّا يقع الفعل. وكلّ: لاستغراق أفراد النكرة يفيد التوكيد.١٠ بنميم: الباء: للتعدية .١١ للخير: اللام: للتقوية والتوكيد. والخير: أل: جنسية لتعريف الماهية.١٢ ذلك: اللام: لتوكيد البعد مبالغة في القبح والمذمّة ودفعًا لتوهم الإضافة. والكاف: حرفية للخطاب والبُعد.١٣ أن: مصدرية للماضي. وبنين: الواو: عاطفة لمطلق الجمع.١٤ إذا: اسمية شرطية ظرفية زمانية

للتكرار. وعليه: على: للاستعلاء المعنوي. والأوّلين: وأل: عهدية ذهنية. ١٥ سنسمه: السين: لتوكيد حصول الفعل في المستقبل. وعلى: للاستعلاء الحقيقي. والخُرطُومِ: أل: نائبة عن ضمير الغائب.١٦

إنّا: إنْ: للتوكيد. وبلوناهم: الميم: لجمع الذكور مع التغليب. وكما: الكاف: اسمية للتشبيه والتحقيق. وما: حرفية مصدرية. والجنّة: أل: عهدية ذهنية. وإذ: اسمية ظرفية زمانية للماضي. وليَصرمُنّ: اللام: جوابية للتوكيد. والنون المشدّدة: للمبالغة في التوكيد وإخراج مضمون الفعل عن الحال.١٧ ولا يَستثنون: الواو: للحال والاقتران. ولا: نافية للحال.١٨ فطاف: الفاء: عاطفة للترتيب والتعقيب والسببية. وعليها: على: للاستعلاء الحقيقي. ومِن: لابتداء الغاية المكانية المعنوية. وهم: الواو: للحال والاقتران. ١٩ فأصبحت: الفاء: عاطفة للترتيب والتعقيب والسببية. والتاء: للتأنيث. والكاف: اسمية للتشبيه والتحقيق. والصَّرِيمِ: وأل: جنسية لتعريف المفرد.٢٠

فتنادوا: الفاء: عاطفة للترتيب والتعقيب.٢١ أنِ: حرف تفسير. وعلى: للاستعلاء المجازي. وحَرْثِكم: الميم: لجمع الذكور مع التغليب. وإنْ: شرطية للمستقبل. وكنتم: الميم: لجمع الذكور مع التغليب.٢٢ فانطلقوا: الفاء: عاطفة للترتيب والتعقيب والسببية. وهم: الواو: للحال والاقتران.٢٣ أن: حرف تفسير. ولا يدخلنّها: لا: طلبية للنهي. والنهي ظاهره للمساكين وحقيقته أنه للمتخاطِبين، عُبِّـرَ به كذلك لأنه أبلغ في المنع من الدخول. والنون المشدّدة: للمبالغة في التوكيد وإخراج مضمون الفعل عن الحال. واليوم: أل: عهدية حضورية. وعليكم: على: للاستعلاء المجازي. والميم: لجمع الذكور مع التغليب.٢٤ وغدوا: الواو: للحال والاقتران. وعلى: للاستعلاء المعنوي.٢٥

فلمّا: الفاء: عاطفة للترتيب والتعقيب والسببية. ولمّا: اسمية شرطية ظرفية زمانية للماضي. وإنّا: إنْ: للتوكيد. ولضالّون: اللام: للمبالغة في

التوكيد والحال.٢٦ بل: عاطفة للإضراب الإبطالي والحصر.٢٧ أوسطهم: الميم: لجمع الذكور مع التغليب. وألم: الهمزة: استفهامية للتحقيق والتوبيخ والتعجّب. فهي في الأصل للنفي، ولمّا دخلت على نفي صار المراد للتحقيق، أي: قد قلتُ لكم ذلك حقًّا من قبلُ حين عزمتم على المنع. ولم: للنفي والقلب. ولكم: اللامْ: للتبليغ. والميم: لجمع الذكور مع التغليب. ولولا: للتحضيض.٢٨

إنّا: إنْ: للتوكيد.٢٩ فأقبل: الفاء: عاطفة للترتيب والتعقيب والسببية. وبعضُهم: الميم: لجمع الذكور مع التغليب. وعلى: للاستعلاء المعنوي.٣٠ يا ويلنا: يا: للتنبيه. وإنّا: إنْ: للتوكيد. ٣١ عسى: للرجاء والطمع. وأنْ: مصدرية للمستقبل. ومنها: مِن: لابتداء غاية التفضيل. وإنَّا: إنْ: للتوكيد أيضًا. وإلى: لانتهاء الغاية المكانية المعنوية.٣٢ كذلك: الكاف: اسمية للتشبيه والتحقيق. واللام: لتوكيد البعد مبالغة في التهويل والتعظيم ودفعًا لتوهم الإضافة. والكاف: للخطاب والبُعد. والعذاب: أل: عهدية ذهنية. ولعذاب: الواو: عاطفة لمطلق الجمع. اللام: للتوكيد. والآخرة: أل: عهدية ذهنية أيضًا. ولو: للتمنّي.٣٣ إنّ: للتوكيد. وللمتقين: اللام: للاختصاص. وأل: جنسية للاستغراق الحقيقي. وربهم: الميم: لجمع الذكور مع التغليب. والنعيم: أل: جنسية للمبالغة والكمال.٣٤

أفنجعل: الهمزة: استفهامية للنفي والتعجيب مع التوبيخ لهم على ما يزعمون، أي: مُحال أن يكون ذلك ولا ينبغي لكم أن تزعموه. والفاء: هي الفصيحة للاستئناف والسببية، إذ النفي مترتّب على ما في الآية المتقدمة، وقدّمت الهمزة على الفاء لأنّ لها تمام التصدير. والمسلمين: أل: جنسية لتعريف الماهية. وكالمجرمين: الكاف: اسمية للتشبيه والتحقيق. وأل: جنسية لتعريف الماهية أيضًا.٣٥

ما لكم: ما: اسمية استفهامية للتقريع والتوبيخ والتعجيب. واللام:

للاختصاص. والميم: لجمع الذكور مع التغليب. وكيف: استفهامية لطلب تعيين الحال مع التعجيب والإنكار التوبيخي والتبكيت.٣٦ أم: استئنافية للإضرابِ الانتقالي والاستفهام المنفي للمُقابلة بما ورد في الآية المتقدمة ليكون إنكارٌ عقلًا ونقلًا. ولَكم: اللام: للاختصاص. والميم: لجمع الذكور مع التغليب. وفيه: في: للظرفية المكانية.٣٧ إنّ: للتوكيد. ولكم: اللام: للاختصاص. والميم: لجمع الذكور مع التغليب. وفيه: في: للظرفية المكانية. ولَما: اللام: للمبالغة في التوكيد والحال. وما: اسمية موصولة لغير العاقل.٣٨

أم: استئنافية للإضرابِ الانتقالي والاستفهـامِ المنفي لتوكيد المُقابلة بما ورد في الآية ٣٦ أيضًا ليكون إنكارٌ عقلًا ونقلًا. ولكم: اللام: للاختصاص كذلك. والميم: لجمع الذكور مع التغليب. وعلينا: على: للإضافة، إذ لا يجوز ذكر الاستعلاء هنا تأدُّبًا. وإلى: لانتهاء الغاية الزمانية. والقيامة: أل: عهدية ذهنية. وإنّ: للتوكيد. ولكم: اللام: للاختصاص. والميم: لجمع الذكور مع التغليب. ولَما: اللام: للمبالغة في التوكيد والحال. وما: اسمية موصولة لغير العاقل.٣٩ سلهم: الميم: لجمع الذكور مع التغليب. وأيّهم: أيُّ: استفهامية لطلب التعيين وللنفي والتعجيز. والميم: لجمع الذكور مع التغليب. وبذلك: الباء: للإلصاق المعنوي. واللام: لتوكيد البعد مبالغة في التهويل ودفعًا لتوهم الإضافة. والكاف: للخطاب والبُعد.٤٠

أم: استئنافية للإضرابِ الانتقالي والاستفهـامِ المنفي لتحقيق توكيد المُقابلة بما ورد في الآية ٣٦ ليكون إنكارٌ عقلًا ونقلًا. ولهم: اللام: للاختصاص. والميم: لجمع الذكور مع التغليب. فليأتوا: الفاء: هي الفصيحة للاعتراض والسببية بين المتعاطفتين. واللام: طلبية للأمر يفيد المستقبل تحدّيًا وتعجيزًا، سكّنَتْ تخفيفًا لدخول الفاء عليها. وبشركائهم: الباء: للتعدية. والميم: لجمع الذكور مع التغليب. وإنْ: شرطية للماضي والحال والاستقبال.٤١ عن: للمجاوزة المعنوية. ويُدعَون: الواو: عاطفة لمطلق الجمع. وإلى:

لانتهاء الغاية المكانية المجازية. والسجود: أل: نائبة عن ضمير الغائبين. فلا يستطيعون: الفاء: عاطفة للترتيب والتعقيب والسببية. ولا: نافية للحال اللازمة. ٤٢ أبصارهم: الميم: لجمع الذكور مع التغليب. وترهقهم: الميم: لجمع الذكور مع التغليب أيضًا. وقد: الواو: للحال الماضية. وقد: للتحقيق. وإلى: لانتهاء الغاية المكانية المجازية. والسجود: أل: عهدية ذكرية. وهم: الواو: للحال والاقتران.٤٣

فذرني: الفاء: هي الفصيحة للاستئناف والسببية. والنون: للوقاية. ومَن: الواو: للتنصيص على المصاحبة. ومَن: اسمية موصولة. وبهذا: الباء: للتقوية والتوكيد. وها: لتوكيد التنبيه. والحديث: أل: عهدية حضورية. وسنستدرجهم: السين: لتوكيد حصول الفعل في المستقبل. والميم: لجمع الذكور مع التغليب. ومِن: لابتداء الغاية المكانية. وحيث: اسمية للمكان. ولا يعلمون: لا: نافية للحال اللازمة.٤٤ وأُملي لهم: الواو: عاطفة لمطلق الجمع. واللام: للاختصاص. والميم: لجمع الذكور مع التغليب. وإنّ: للتوكيد.٤٥

أم: عاطفة للإضراب الانتقالي والاستفهام المنفي منسحبًا على الجملة الثانية للمبالغة في تحقيق توكيد المُقابلة بما ورد في الآية ٣٦ ليكون إنكارٌ عقلًا ونقلًا. وتسألهم: الميم: لجمع الذكور مع التغليب. فهم: الفاء: عاطفة للترتيب والتعقيب والسببية. ومِن: للسببية.٤٦ أم: عاطفة للإضراب الانتقالي أيضًا والاستفهام للمبالغة في تحقيق توكيد المُقابلة بما ورد في الآية ٣٦ ليكون إنكارٌ عقلًا ونقلًا. وعندهم: الميم: لجمع الذكور مع التغليب. والغَيب: أل: جنسية لتعريف الماهية. فهم: الفاء: عاطفة للترتيب والتعقيب والسببية.٤٧

فاصبر: الفاء: هي الفصيحة للاستئناف والسببية. ولحكم: اللام: للتعليل. ولا تكن: الواو: عاطفة لمطلق الجمع. ولا: طلبية للنهي، يراد به عدم وقوع

الفعل. والكاف: اسمية للتشبيه والتحقيق. والحُوت: أل: عهدية ذهنية. وإذ: اسمية ظرفية زمانية للماضي. وهو: الواو: للحال والاقتران.٤٨ لولا: شرطية امتناعية لوجود في الماضي. وأنْ: مصدرية للماضي. ومِن: لابتداء الغاية المكانية المعنوية. ولنبذ: اللام: جوابية للتوكيد. وبالعراء: الباء: للظرفية المكانية. والعَراءِ: وأل: جنسية لتعريف المفرد. وهو: الواو: للحال والاقتران.٤٩ فاجتباه: الفاء: عاطفة للترتيب والتعقيب والسببية. وفجعله: الفاء: عاطفة للترتيب والتعقيب والسببية أيضًا. ومِن: للتبعيض. والصالحين: أل: جنسية لتعريف الماهية.٥٠

وإن: الواو: للاستئناف. وإن: للتوكيد مهملة، مخففة من: إنّ. والذين: أل: زائدة لازمة للتزيين اللفظي، أدغمت لامها في اللام. وليُزلِقونك: اللام: حرف تفريق وتوكيد وعوض من حذف نون: إنْ. وبأبصارهم: الباء: للاستعانة. والميم: لجمع الذكور مع التغليب. ولمّا: اسمية ظرفية زمانية للماضي. والذِّكر: أل: عهدية ذهنية. ويقولون: الواو: عاطفة لمطلق الجمع. وإنّه: إنّ: للتوكيد. ولمجنون: اللام: للمبالغة في التوكيد والحال.٥١ وما: الواو: للحال والاقتران. وما: حرفية نافية للحال اللازمة. وإلّا: استثنائية للحصر. وللعالمين: اللام: للتقوية والتوكيد. وأل: عهدية ذهنية.٥٢

هذا ما تقتضيه آفاق الاهتمام بمعاني الحروف وتوظيفها في التفسير اللغوي لتتحقق مقاصده، ولو استعرضتَ ما جاء منه في التفاسير المشهورة بذلك الاهتمام لما رأيت عُشر مِعشاره.

خذ منها مثلًا صنيع **الزمخشري**، وهو صاحب علمَي المعاني والبيان. فحين تتصفّح ما ذكره في هذه السورة المباركة ممّا نحن فيه ترى ما يلي: فقد ذكر أنّ الباء في « بمجنون » زائدة لتأكيد النفي، و« بِأَيِّكُمُ المَفتُونُ » مزيدة، وأنّ « على » يجوز أن يضمّن الغدوّ معنى الإقبال، أي: فأقبلُوا على حرثكم باكرين.

أمّا ما تراه لدى **أبي حيان** فهو يقول: وقرأ الحسن « أإذا » على الاستفهام، وهو استفهام تقريع وتوبيخ على قوله: « القرآن أساطير الأولين »، والاستفهام في « أفَنَجْعَلُ » للتوقيف على خطأ ما قالوا والتوبيخ، ثم التفت إليهم فقال: ما لَكُم؟ أي: أيُّ شيء لكم فيما تزعمون؟ وهو استفهام إنكار عليهم، ثم قال: كيفَ تَحكُمُونَ؟ وهو استفهام ثالث على سبيل الإنكار عليهم، ثم أضرب عن هذا إضرابَ انتقال لشيء آخَرَ لإبطال ما قبله فقال: أَم لَكُم؟ أي: بل ألكم؟

أمّا **أبو السعود** فيذكر في تفسيره أنّ الاستفهام في « أفنجعل » تقرير لِما قبله من فوز المتّقين بجنّات النعيم، والهمزة للإنكار، والفاء للعطف على مقدّر يقتضيه المقام أي: أنَحيف في الحُكم فنجعل المسلمين كالكافرين؟ ثم قيل لهم بطريق الالتفات لتأكيد الرد وتشديده: ما لكم كيف تحكمون؟ تعجبيًا من حُكمهم واستبعادًا له وإيذانًا بأنه لا يصدر عن عاقل.

وأمّا **ابن عاشور** فهو طويل النفس، يورد في « التحرير والتنوير » أنّ قول الكافرين « إنَّهُ لَمَجنُونٌ » وتأكيدهم ذلك بحرف «إنّ» ولام الابتداء أُجيبا بمؤكِّدات أقوى ممّا في كلامهم، إذ أُقسِم عليه، وجيء بعد النفي بالباء التي تُزاد بعد النفي لتأكيده، وبالجملة الاسمية منفيةً لدلالة الجملة الاسمية على ثبات الخبر، أي تحقُّقه. فهذه ثلاثة مؤكِّدات، وأنّ الباء في « بنعمة » للملابسة أو السببية، أي: بسبب إنعام الله إذ برّأك من النقائص، وأنّ على: للاستعلاء المجازي المراد به التمكّن، والفاء في « فستُبصِرُ » للتفريع على قوله: « ما أنتَ بنِعمةِ رَبِّكَ بمَجنُونٍ »[1] باعتبار ما اقتضاه قوله: « بنعمةِ رَبِّكَ » من إبطال مقالةٍ قيلت في شأنه، وفرّع عليها أنهم إذا نظروا الدلائل وتوسّموا الشمائل علموا: أيُّ الفريقَين المفتونُ؟ أهم مفتونون بالانصراف عن الحقّ والرشد، أم هو باختلال العقل؟

وذكر أنّ « أيّ » في « بأَيِّكُمُ المَفتُونُ »[2] معناه: أيّ رجلٍ، أو أيّ فريقٍ

---

(١) الآية ٢ من سورة القلم. (٢) الآية ٦ من سورة القلم.

مِنكم المفتون؟ فـ « أيّ » في موقعه هنا اسم في موقع المفعول لـ « تُبصر ويُبصرون » أو متعلّق به تعلُّق المجرور. والباء على هذا الوجه مزيدة لتأكيد تعلُّق الفعل بمفعوله، ويجوز أن تكون للظرفية، والمعنى: في أيّ الفريقين منكم يوجد المجنون؟ أي: مَن يصدق عليه هذا الوصف؟ فيكون تعريضًا بأبي جهل والوليد بن المُغيرة وغيرهما من مدبّري السوء على دَهماء قريش. ويجوز أن تكون الباء للملابسة في محلّ خبر مقدّم على « المَفتُونُ » وهو مبتدأ. وكلمة « كُلّ » هنا تفيد النهي العام عن طاعة كلّ فرد من أفراد أصحاب هذه الصفات التي أُضيف إليها « كُلّ » بالمُباشرة وبالنعوت.

والفاء في « فيُدهِنُونَ » للعطف والتسبب عن جملة « لَو تُدهِنُ » جوابًا لمعنى التمنّي المدلول عليه بفعل « وَدُّوا »، و« لو » يحتمل أن يكون شرطيًّا، ويكون فعل « تُدهِنُ » شرطًا، وأن يكون جواب الشرط محذوفًا ويكون التقدير: لو تُدهِن لحصل لهم ما يودّون، ويحتمل أن يكون حرفًا مصدريًّا فيكون التقدير: ودّوا إدهانك. و « مِن رَبِّكَ » أي: جائيًا من قِبَل ربك. فـ « مِن »: للابتداء. يعني: إنه عذاب أُرسل إليهم عقابًا لهم على عدم شكر النعمة. و « على » من قوله: « عَلَى حَرثِكُم » مستعملةٌ في تمكّن الوصول إليه كأنه قيل: اغدُوا تكونوا على حرثكم، أي: مستقرِّين عليه. وإذا حُمل الحرد على معنى السرعة والقصد كان « على حَرد » متعلّقًا بـ « غَدَوا » مُبيِّنًا لنوع الغدوّ، أي: غدَوا غدوًّ سرعة واعتناء، فتكون « على » بمعنى باء المصاحبة.

واللام في « إِنَّ لِلمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِم جَنّاتِ النَّعِيمِ »[1] للاستحقاق، والهمزة في « أفنجعل » للاستفهام الإنكاري، فرّع إنكار التساوي بين المسلمين والكافرين على ما سبق من اختلاف جزاء الفريقين. و « ما لَكُم » استفهام إنكاري لحالة حُكمهم، و« كَيفَ تَحكُمُونَ » استفهام إنكاري ثانٍ، والاستفهام المقدَّر مع « أَم » إنكار لأن يكون لهم كتابٌ، وضمير « فِيهِ » عائد إلى الحُكم

(١) الآية ٣٤ من سورة القلم.

و« في » للتعليل أو الظرفية المجازية، والاستفهام في « أَيُّهُم » مستعمل في التـهـكُّم زيادة على الإنكار عليهم، وفي « أَم لَهُم » إضراب انتقالي ثالث إلى إبطال مُستنَد آخَر مفروض لهم، واللام في « لهم » لام الأجل، أي: لأجْلهم، بتقدير مضاف، أي لأجْل نصرهم، والواو: واو المعية وما بعدها مفعول معه، ولام « لهم » هي اللام المسمّاة لامَ التبيين، والاستفهام الذي تؤذن به « أم » استفهام إنكار. وقد جاءت الإبطالات السالفة متعلّقة بما يُفرض لهم من المعاذير.

ثم نرى **الآلوسي** أطول نفسًا في « روح المعاني »، إذ يذكر أن « ما أنت بنعمة ربك بمجنون » جواب القسَم والباء الثانية مزيدة لتأكيد النفي، ومجنون خبر « ما »، والباء الأولى للملابسة، وفي « بأيّكم » للملابسة أو بمعنى « في »، والمعنى: بأيّ الفريقين منكم الجنون؟ أبفريق المؤمنين أم بفريق الكافرين؟ أي: في أيّهما يوجد من يستحقّ هذا الاسم؟ وهو تعريض بأبي جهل والوليد ابن المغيرة وأضرابهما. والفاء في « فلا تطع » لترتيب النهي على ما ينبئ عنه ما قبله. و« فيُدهنون »، أي: فهم يُدهنون حينئذ أو فهم الآن يدهنون طمعًا في إدهانك. فالفاء للسببية. و « منّاعٍ للخير » أي: بخيل مُمسِك، فاللام للتقوية والخيرُ المال، أو منّـاعٍ الناسَ الخيرَ، كأنه قيل: منّاعٍ من الخير. وقرأ الحسن « أإذا » وهو استفهام تـقريع وتوبيخ على قوله: أسـاطيرُ الأوّلين.

وأن اغدوا أي: اخرجوا، وأنْ: تفسيرية، أو بأن اغدوا، على أنّ « أنْ » مصدرية، وقبلهما حرف جر مقدر. وعُدِّي ههنا بـ « على » لتضمين الغدوّ معنى الإقبال، ويجوز أن يكون بمعنى: أغار، شبّه غدوّهم لقطع الثمار بغدوّ الجيش على شيء، لأن معنى الاستعلاء والاستيلاء موجود فيه وهو الصّرم والقطع.

و« ما لكم كيف تحكمون »[1] تعجّب من حُكمهم واستبعاد له وإيذان بأنه

---

(١) الآية ٣٦ من سورة القلم.

لا يصدر من عاقل. وفي هذه الآيات نفيُ جميعِ ما يمكن أن يتعلّقوا به في تحقيق دعواهم، نفيُ الدليل العقلي بقوله « ما لكم كيف تحكمون »؟ ونفيُ الدليل النقلي بقوله « أم لكم كتاب »[1]؟ ونفيُ أن يكون اللّه وعدهم بذلك بقوله « أم لكم أيمان علينا »[2]؟ ونفيُ التقليد الذي هو أوهن من حِبال القمر بقوله « أم لهم شركاءُ »؟ و « إن يكادُ » إن: هي المخفَّفة واللام دليلها لأنها لا تدخل بعد النافية، ولذا تسمّى الفارقة على عُرفٍ عند النحاة.

وأنتَ ترى معي أن المتأخّرين ينقلون عمن تقدمهم ما جاء عن الباء الزائدة والظرفية وعن الاستفهام من الإنكار والتوبيخ والنفي، ويُضيفون إلى ذلك لمسات دلالية سريعة، ثم يتردّد لديهم بأنفاس مطوّلة ترتبُ معاني الجُمل على ما قبلها، ومعنى: لو وعلى ومِن واللام والفاء وأيّ وأنْ. ومُجمل هذا كما ترى بمصطلحات وتعابير مختلفة ومتداوَلة وقاصرة عن حاجة المراد بدقّة ووفاء، ولا يوازي أقلّ القليل ممّا تقتضيه معاني الأدوات كمًّا وكيفًا في هذه السورة المباركة. فما قولك في جميع النص الرباني المُبين؟ وقد وجّهَنا اللّه - تعالى - إلى ذلك الميدان الكريم الوافي ويسّر لنا العمل به، فكان توسعة للآفاق المرجوّة في إتمام التفسير لمعاني القرآن العظيم، وتجربة متواضعة نأمل أن يزوّدها العلماء بالتوجيه والتسديد والإغناء لتكون على خير ما يرام.

وليس لنا أن نطالب جميع المفسّرين باستيفاء ذلك. فحسْبُ كل منهم التعرُّض لِما يراه في حاجة إلى البيان ويتسنّى له ذكره بمصطلحات مقنّنة وعبارات محدّدة، ثم يجب على مصنّفي أعاريب القرآن الكريم هذا الاستيفاءُ لأنه ألصق بالإعراب، وإن كان يفيد في تفسير المعاني كثيرًا من الفوائد الدلالية المرجوّة. فالهداية والتوفيق من المولى ﷻ والحمد للّه على ما أصبْنا وأحسنّا، والمغفرة منه لِما أخطأنا وأسأنا، وهو على كل شيء قدير.

(١) الآية ٣٧ من سورة القلم.

(٢) الآية ٣٩ من سورة القلم.

٩
الضبط اللغوي والتفقير

يحتاج التفسير للقرآن الكريم إلى وسائل علمية متقنة، تيسّر فهم المراد من أسباب النزول والقراءات ودلالات المفردات ضمن النص والمعاني العامة للآيات والأحكام والمقاصد الخاصّة والعامّة للنص القرآني العظيم. ومن هذه الوسائل ما هو خاص بضبط المفردات والتوزيع الفني للفقرات والنص كله:

١ - الضبط اللغوي:

بعد مراعاة الأوضاع العامّة والخاصّة في كتابات النُّسّاخ، نستطيع أن نقف أمام الضبط في عمليات التحقيق لنرى أنه تابع لمحتوى النص وموافق لِما في مجموعه من العبارات المتشابهة، وللسياق الذي ترد فيه المفردات، ولمستوى القُرّاء المخاطَبين به. والحُكم العامّ هنا أن يكون ضبط الحروف قليلًا ما أمكن يلبّي حاجة الفهم خلافًا لِما ألفه المستشرقون بجهلهم نقلًا عن حروف لغاتهم العجماء، لئلّا تُثقَل العبارات بما هو فائض من الحركات والسكونات المجهدة للكاتب والطابع والقارئ من دون جدوى أو فائدة. فالحركة والسكون كل منهما يشبه الحرف فيما يقتضيه من الجهود المبذولة لدى كل هؤلاء الثلاثة معًا.

وإنّ حضور العنصر الواحد ممّا ذكرتُه الآن يتطلّب من الكاتب بذل جهود متعدّدة ومعقّدة: عصبية وحركية وعقلية وبصرية، تضاف إلى ما يقتضيه الحرف الذي يُضبط. وهذا يعني ازدواج العمليات وتراكُبها في إثبات الحرف مع الضبط، فيكون النص الواحد ضِعفَه أو كالضِّعف، من حيث استهلاك الطاقة النفسية والجسدية، عدا التكاليف المادّية والزمانية المعروفة. والأمر نفسه يتكرّر عند راصف حروف الطباعة والقارئ لها، هذين اللذين ابتُلِيا بتزيّدات أرباع المحقّقين وجهَلة الناشرين. فكل من الراصف والقارئ يبذل

طاقاته ويبذّر قدراته في تتبع تلك الصور الفائضة من الضبط غير اللازم، ليدرك لفظها وما في دلالتها من فائدة.

وإلّا فما جَدوى تكرار السكونِ فوق الألِفات آلاف المرات، والفتحةِ قبلها وقبل تاء التأنيث المربوطة في الاسم، وإثباتِ فتحة الهمزة فوق الألف أيضًا وكسرتها تحتها، ورسمِ همزة الوصل فوق الألف أيًّا كانت حركتها، وحشد الحركات في الأماكن المعروفة بداهة، والسكوناتِ الكثيرة المعلومة لدى أبسط القرّاء، ولا سيما إذا كانت فوق لام التعريف وفي أوساط الكلمات المألوفة من النصوص التراثية الثقيلة؟ بل ما قيمة ضبط المفردات كلِّ المفردات، في مثل هذه الأسطر والصفحات التي بين يديك الآن؟ حسْبُنا في النصّ العسير أن نضبط ما يلزمه ذلك من الأحرف المُشكِلة والمفردات الغريبة، ونترك الباقي عُطلًا من أثقال التقحّمات المفتعلة، والتزيّدات المُرهِقة لكلِّ من له صلة بالتراث عامّة وكتب التفسير خاصّة. وهذا المطلوب بإلحاح هو ما تراه ماثلًا هنا في الأسطر والصفحات المتوالية.

ثم إن تلك التقحُّمات والتزيّدات التعسّفية، لاختلاطها بأشكال الحروف مرة ومحاصرتها إياها غالبًا، تكون مادّة لأوهام الأطراف الثلاثة المذكورة قبلُ في اتصالها بالنص التراثي المنشور. فكلّ من هؤلاء، إذا كان يخطئ بنسبة ٥٪ مما يتناول، تحصّل عنده احتمال تضاعف النسبة في متابعة الضبط الكامل بالعناصر كلها. ذلك لأنّ تراكُب الحروف والضبط يعقّد العمليات اللازمة ويعرقل السير في سبيل وعر متعدّد العثرات والمتاريس والمزالق والمنعطفات.

وهذا يعني أنه ستكون النسبة أكثر من ١٠٪ على أقل تقدير، فيتحصل عدد وافر من الخطأ والتصويب، على حين أنّ التخفّف من تلك الأثقال الفائضة يزيل تفاقم الاحتمالات ويهوّن على الناس إنجاز الأعمال بأحسن ما يكون من الدقّة والسلامة والوفاء، مع إزالةِ الترهيب من التراث وتوفيرٍ للتكلفة من إهدار الزمن والمال والقدرات الإنسانية.

ثم إن إغراق النصّ بالضبط التامّ الكامل، كما هو ظاهر في كثير من الاستشراقيات والمنشورات التراثية التجارية، يحمل في ضمنه احتقارًا للقارئ واستخفافًا له. لكأنّك تستصغره - أيُّها الناشر الغبي - أن يكون على اقتدار لمعرفة ما هو مبتذل ميسور، فتضع له حركات وهمَزات وصل وسكونات عائمة، هو يستحضرها في قراءته ويتقن ملاحظة مواضعها ووظائفها على الرغم من غياب صورها الخطية.

ففي هذا، بالإضافة إلى الإرهاق وإزهاق القدرات، احتقار له وإشعار بأنه صغير جاهل عاجز عن السير بلا عَكاكيز تحيطه بها في كل خطوة ونأمة ونفَس. بل إن في ذلك أيضًا احتقار الكاتب أو الناشر لنفسه، إذ يبدي أنه جاهل بقُدرات من يخاطب، وهو بعينه أيضًا يحتاج إلى تلك العَكاكيز فيظنّ في الناس ما هو فيه من قصور وعجز، أو هو غبيّ غافل عمّا يكفي من الضبط الإيجابي اليسير ولا يُحسن اختيار ما هو لازم فعلًا، فيلقي بالأثقال فوق الأثقال على المظلومين من الناس والقُرّاء.

فالتبسُّط في الضبط هو حُكم النصوص المعروفة في كلام العلماء والأدباء والفلاسفة. ثم يكون اهتمام خاصّ بالمفردات الغريبة والأسماء الأعلام المُشكِلة ونصوص القرآن الكريم والأحاديث الشريفة والشعر والنثر القديمين، لِما قد يُتوقَّع من الوهم والسهو في قراءة ذلك وفهم مقاصده بدقة وكمال. فيحسن هنا أن يكون الضبط أظهر وأوفى، مع إغفال ما ذكرناه قبل من الفتحات والكسرات والهمَزات والسكونات التي هي بديهية حاضرة في ذهن أبسط القُرّاء والعلماء والدارسين والباحثين والمحقِّقين. ولكنّنا نرى كثيرًا من كتب التفسير المنشورة إمّا أن تُضبط الآيات الكريمة فيها بفائض من الأشكال والرموز، كما غُذِّي الكبتار «الكمبيوتر»، وإمّا أن يُهمل فيها الضبط تمامًا، وتُلقى أمام القُرّاء غُفلًا من كلّ عون أو بيان. وفي الأمرين إجحاف وخلاف لأصول النشر التراثي، كما ذكرنا منذ قليل. بل إنّ الإهمال الكامل للضبط يوقع القارئ في الأوهام، إذ يقرأ الآية على ما حفظ، أو على ما يقدّمه

النص المُصحفي المرافق للتفسير، مع أن المفسِّر قد يكون له قراءة تخالف ذلك. وفي هذا الإغفال تضليل وإفساد وتشويه لحقائق الكتاب المنشور.

ولقد ضاق قارئ العربية بهذه المتاهات من الإهانة والاحتقار أو الإهمال والاعتباطية عند أجيال عصر الانحطاط العلوي، واستقرّ عنده أن اضطراب الكُتّاب والناشرين في مستويات الضبط وأنماطه المختلفة قد أخلّ بمقاصد التوضيح والبيان، وأفسد عليه ما كان يبتغيه من العون والتوجيه. ولذلك أعرض عن تتبُّع رموزه ودلالاتها، واعتاد أن يقرأ النصوص بما تيسّر له من الفهم، ليخفّف عن نفسه عناء التدقيق والتكهّن والهداية المعمّاة. هذا ما اعترف لي به القرّاء أنفسهم، فكان ردًّا لإهانة الناشرين وتضييعًا لجهودهم الغبية سُدًى بالعودة إلى النصوص صُمًّا بُكمًا عُميًا. ولكي نتجنب هذه المهازل الخطيرة، فلا بدّ من مراعاة ما ذكرنا من الأُصول في الضبط، لنعطي كلّ نص حقّه من النقل والأداء.

وبذلك تُنقل النصوص التفسيرية للتحقيق، في بساطةٍ ودقة واحترام للذات وتقديرٍ وعون للآخَرين، فيكون كلّ منها مُشرق الوجه ودودًا محبَّبًا للنفس خالِصًا من شوائب التعالم والتفاصح والإتاوات المفروضة على رُوّاد تراثنا الكريم. ولا شك أن النجاح في تلك العمليات الكتابية يقتضي الإلمام بكثير من العلوم العربية. ومن ذلك معرفة تامّة بألفاظ المفردات ودلالاتها في الوضع والمجاز والفنّ والاصطلاح والتفرّد والخصوص. وهذه المعرفة تجعل النَّسخ والضبط في طريق مأمون بعيد عن الشطط والتكهّن والضلال، إذ يُقرأ النصّ كما أراده له مؤلّفه، ويُنقل كما وضعه ناسخه الأمين.

٢ - التوزيع الفني (التفقير):

يضاف إلى هذا أنّ نقل النص المذكور يتطلب توزيعًا يناسب موضوعه مع مراعاة نهج صاحبه. فالواجب يحتّم علينا احترام التقسيمات التي وضعها المؤلف لكتابه من أبواب وفصول وفروع وأشكال ورسوم وجداول وحقول

ورموز... ومعنى هذا ألّا نتدخل في هيكلية النص، مادام الأمر يسير بوضوح وبيان وانتظام، وإذا حصل اقتضاء للتدخل كان خفيفًا يساهم في حركة الفكر، ولا يعرقل مراحل المتابعة والاسترسال.

وخير ما نذكره هنا تلك الجهود الكريمة التي قدمها علماؤنا الأجلّاء، لجمع القرآن العظيم في مصاحف. فقد حافظوا على تنسيقه كما جاء في المصاحف العثمانية الشريفة مفصولًا بين السور بذكر اسم كل منها قبل بدئها، ثم وضعوا أرقامًا لها متتابعة فكانت في ١١٤ سورة، مع أرقام داخلية خاصّة لعدد الآيات في كل منها، ثم أضافوا إلى ذلك تقسيم النصّ القرآني إلى أحزاب وأجزاء وأرباع وأعشار وأخماس، بإشارات وعلامات في الهامش أو المتن، لا تُخلّ بالنسق الرباني الكريم، حتى إنه ليكاد القارئ لا يشعر بها.

وقد يَضطَرُّك النص إلى التدخّل في التقسيم، لتُقحِم بعض عناوين أساسية أو فرعية داخلية قليلة ضمن أقواس معقوفة، تفصل الأقسام المتباينة الكبرى بعضها عن بعض. وهذا ما يقدّمه لك أمثال كتاب « الوافي في العروض والقوافي »، من فصل بعباراتِ عنونةٍ بين كل من: العِلمين، وعيوب الشعر، وما تجب معرفته من صنعة الشعر، وبين كل من: الدوائر العروضية، وأبواب البحور، وألقاب العروض.

وقد يتطلب توزيعُ النص وضع عناوين قليلة أيضًا تبيّن أقسامه وتفرعاته، إذا كان المصنّف قد أغفل ذلك، وتدفّقت موضوعاته كثيرة الصفحات متلاحقات الأجناس والأنواع والأصناف والتفرّعات. وفي هذه الحال، نضيف ما يفرضه علينا العمل من عبارات، بين أقواس معقوفة تميّزها من مضمون الكتاب. وهذا ما تراه في مثل كتاب « الممتع الكبير » من عناوين فرعية، لأنّ موضوع الصفحات وما حولها مديد جدًّا، تتقطع أنفاس من يتابعه وتتعذّر الإحاطة به دُفعة واحدة، ولا بدّ من مَحطّات ذهنية يلتقط فيها القارئ أنفاسه قبل المتابعة والاتصال.

على أن ذلك يقتضي أن تُجعل للعناوين درجات، في اختيار المواضع والحروف المناسبة لـمكانتـها من التوزيع الـهيكلي للنص. وهذا يعني تدرُّجًا في صغر الحروف وكثافتها، وفي توضُّع العبارات وتوزُّعها. فللعناوين الرئيسية وسط الصفحة حرف غليظ، وللفرعية حرف أصغر في يمين الصفحات، ولتفرعاتها ما هو أدق موصولًا بما بعده، مع مراعاة أن يكون للنصّ نفسه حرف يناسب تلك الدرجات ويتميّز عنها، في نثره وشعره وآياته وأحاديثه واقتباساته أيضًا.

ولا يَغِب عن ذهنك أنّ كل نص أو مؤلَّـف له ما يناسبه، من التوزيع بين الصفحات في فقر وسطور وعبارات. فقد يكون ذا سور ونصوص قرآنية أو نبوية، أو وجوه وجُـمـل أو أبواب وفصول أو قـصائـد ومقطّعات، أو تراجم ومعلـومـات أو أخـبـار وروايات أو تعريف بالبلدان والأماكن والألفاظ والتراكيب، أو عبارات مفسَّرة ومعلَّق عليها، أو موضوعات متسلسلة أو متفرّقة في الفنون والعلوم والفلسفة. ولا مفرّ من مراعاة طبيعة هذه المواد التراثية المختلفة في توزيع التقسيمات والفقرات والعبارات.

أمّا كتاب التفسير فيوزَّع نصّه تبعًا لسُوَره، ثم يكون توزيع المضمون لكل سورة بحسب ارتباط آياتها في موضوعات فرعية متمايزة، ليشعر القارئ بوحدة الجزئيات المكوّنة لكل موضوع منها وبتسلسل الفرعيات ضمن الموضوع العامّ الجامع لها. غير أنك إذا تصفحتَ ما نشره الزملاء الكرام من طبعات غفيرة لـ « تفسير الجلالين » مثلًا وقفتَ فيها على العجب العُجاب. فالنص التفسيري لديهم يكون له ضربان من التقسيم:

إمّا أن يوزَّع مِـزَقًا متفرّقة قُربَ كل آية تفسيرُها على حدة مع ختمه بنقطة، كأنّ القرآن العظيم هو مجموعة آيات لا صلة بينها في النظم الكريم، وإمّا أن تُورد صفحات الكتاب كلّه في فِقرة واحدة، لا يفصل بينها إلّا أسماء السور وما يلحق بها، مع تقحّمات من الأقواس المختلفة والتعليقات والحواشي

المتقطّعة التي لا صلة لها بعبارات المتن في الصفحات نفسها. وفي كلتا الحالين إجحاف واعتساف وتضليل.

ثم إن الكتاب الذي يقوم على أبواب، وكل منها يسير في نسق تعبيري متميّز متصل، توزّع أبوابه توزيعًا داخليًّا تحت أرقام تشمل الكتاب كله، دون أن يُخلّ ذلك بترابط أجزاء الكلام أو يجعله مِـزَقًا وأشلاء مبعثرة وعبارات متمايزة متباعدة. وإنك لترى خلافَ ما يقرّره النهج القويم كثيرَ الشيوع في النصوص التراثية، من أمثال مطبوعة « الرسالة » للإمام الشافعي بدار الفكر، و « طبقات فحول الشعراء » لابن سلّام.

وكذلك شأن الـمصنَّف على المجالس والأقسام والأبواب والفصول والقصائد والمقطعات والأبيات والتراجم، يجب أن يميَّز بعضها من بعض في النقل للتحقيق، ويُعطَى كلٌّ منها أرقامًا متسلسلة تبيّن نسقَها ومكانتها في سياق الكتاب. وهذا تلقى بعضه في نحو: كتاب الألفاظ، والـجُمل في الـنحـو، والـجنـى الداني، وإصلاح الـمنطـق، وشرح اختيارات المفضل، وشعر الأخطل، وشرح شعر زهير، وشرح المعلقات العشر، وشرح الملوكي في التصريف، والإيضاح في شرح سقط الزند وضوئه.

ولنا أسوة حسنة فيما جاء عن أجدادنا العلماء، إذ كان بعضهم يسجل أرقامًا قليلة مـحـدودة لضبط النصوص. فالخطيب التبريزي (ت ٥٠٢) مثلًا يـُحـصي أبيات القصائد المفضّليات في القرن الخامس، ويثبت بقلمه في آخر أكثرها عداد أبياتها. فهذه خمسة وأربعون بيتًا، وتي سبعة وثلاثون بيتًا، وتيك أحد عشر بيتًا، وتلك خمسة وتسعون بيتًا. ترى هذا في النسخة التي وصلت إلينا بخطه، ثم انتقل ذلك إلى النسخ التي نقلت عنها أيضًا.

ولو رجعتَ إلى « الأمالي الشجرية » لرأيت صاحبها ابن الشـجري هـبـة الله ابن علي (ت ٥٤٢) قد وزّعها على مجالس مرقّمة، فيها: الأول والثاني والثالث والرابع والخامس... والموفي على العشرين.. والموفي على الثلاثين...

والتاسع والسبعون. وقد يكون في أول المجلس تعيين للتاريخ الذي كان فيه، ومن ذلك: المجلس العاشر، وهو مجلس يوم السبت الثاني والعشرين من جُمادى الأُولى سنة أربع وعشرين وخمسِمِائَـة. والمجلس السابع والعشرون، وهو مجلس يوم الثلاثاء سابع رجب سنة ست وعشرين وخمسِمِائَـة.

وإذا تصفحتَ الأوراق الأخيرة من نسخة « تهذيب إصلاح المنطق »، وعليها خط التبريزي نفسه، وجدت أبواب الكتاب متوالية في فهرس دقيق، سُردت فيه عناوين الأبواب، وبجانب كل منها رقمه الذي يكون له في التسلسل المقرر.

أما عبد القادر البغدادي فقد التزم ذلك الترقيم فيما صنّف من شروح على الشواهد الشعرية لكتب النحو. فهو يضع لشواهد كل كتاب أرقامًا متسلسلة، فيذكر قبل البيت رقمه، ثم إذا تكرّر وروده بعدُ أحال عليه بذكر رقمه المخصّص، ليربط الكلام بعضه ببعض، ويصل ما بين أجزاء الكتاب أيضًا. تجد هذه العمليات الإحصائية في: خزانة الأدب، وشرح شواهد شرح الشافية، وشرح أبيات مغني اللبيب... وقد تبلغ الأرقام هذه في الكتاب الواحد حَوالَيِ الألف عددًا.

ثم إن مراحل التوزيع والتقسيم قد تتفرّع في الموضوع الواحد، فيكون لدينا أنواع من الترقيم والتفريع. وأوّل ذلك يكون بالأرقام المعهودة: ١ و٢ و٣ و٤... ويلي ذلك ما كان داخل هذه الأقسام مفرَّعًا تُعطى فروعُه حروفَ الأبجدية: أ، ب، جـ، د... فإن حصل تفريع ثالث ضمنيّ أيضًا وُزِّع تحت: أوّلًا و ثانيًا و ثالثًا. ولا بدّ من مراعاة التسلسل بين هذه التوزيعات، حتى لا يختلط بعضها ببعض وتضيع معالم التفكير والتعبير.

ولكنك ترى مع هذا أنّ المستشرق بروخ نشر سنة ١٨٥٩ كتاب « المفصّل » للزمخشري كلَّه في ٢٠٠ صفحة متلاحقة من دون تقسيم أو تفريع أو بيان، إلّا أرقامًا جانبية لمجموع الفصول والأبواب وفواصلَ ونجومًا وفراغات بالمئات مبعثرة على غير وعي أو قصد، مع تداخل النثر والشعر والآيات

الكريمة بلا تميّز أو وضوح.

يضاف إلى تلك الأساليب المنهجية في التوزيع الفني والتنسيق والترقيم أنّ النصّ قد يحوي متنًا وشرحًا له. وهذا غالبًا ما يتميزان فيه فينفصل كل منهما عن الآخر في التعبير والسياق، وقد يُستخدم في ذلك حرف « ص» لنص المتن وحرف « ش» للشرح، أو « قال الشيخ » أو « قال صاحب الكتاب » و « قال الشارح » وما أشبه ذلك. وقد يكون المجموع ممزوجًا في تعبير واحد متساوق متصل.

وفي الحالين يحسن تمييز المتن بحرف أظهر من الشرح. نحو ما تراه في: المفصَّل في تفسير القرآن الكريم، وكتاب الاختيارين، وشعر زهير، وشرح قواعد الإعراب. غير أنه قد يكون المزج شديدًا، يـُخفِي المصنِّف فيه معالم الفصل بين المتن وشرحه، فلا يتسنّى لك التمييز بينهما في اختيار الحروف كالذي في: تهذيب إصلاح المنطق، وتهذيب الألفاظ.

وإذا ضم الكتابُ حاشية على المتن وجب جعلهما في حقلين أُفقيَّين، وقد يكون معهما شرح أيضًا. مثال ذلك تقف عليه في كتاب « مُبرِز القواعد الإعرابية من القصيدة المِجرادية » للرسموكي الجزولي (ت ١٠٤٩)، إذ هو شرح لقصيدة ابن المِجرادي (ت ٧٧٨)، وعلّق عليه العمراني الوزّاني (ت ١٣٤٢) حاشية تفسر المتن والشرح معًا. ولذا كان للقصيدة وشرحها حقل، وللحاشية آخر، وللتعليق عليهما آخر أيضًا، مع درجات متوالية في حجم الحروف المناسبة لكل منها، وربط الحقول الثلاثة فيما بينها بتسلسل النصوص وتساوق المعاني وتعاونها للعطاء والبيان.

والقاعدة الأصولية بشكل عام أنّ كل نص يقتضي في التنسيق والتوزيع صورة تناسب محتواه والعلومَ والمعلومات التي يتضمنها، مع الحفاظ على نهج المؤلف الذي أعطاه الشكل الأخير. ثم يتحكّم نسَق المضامين والتفكير والتعبير في تفصيل الفِقرات والحقول والرسوم والأشكال والرموز واختيار

الحروف شكلًا ونوعًا ولونًا.

٣ - الترقيم التعبيري:

هو استخدام إشارات كتابية بين التراكيب والجمل والمفردات تساعد على تعيين المقاصد الدقيقة وتنغيم الكلام عند القراءة ممّا لا يُفصح عنه التسجيل بالخط. والحقُّ أنّ كلّ متكلّم واعٍ يستخدم في خطابه وحواره ما يعبّر عن دلالات هذا الترقيم، بشكل تلقائيّ ملحوظ ودقيق مفهوم،[١] من التباطؤ والتوقّف والتلبّث والمدّ والتفخيم والنبر والتنغيم، للإشعار بما يريد من قَطع واستئناف وتفصيل واعتراض وخبر وإنشاء ومبالغة وتفخيم...

فهو يصل ما يجب وصله، ويتلبّث قليلًا في موضع الفصل، ويبدي تباطؤًا وتخفيضًا للصوت أكثرَ ليقفَ بعدَما يتمّ لديه معنًى في فكرة ما، ثم يستأنف الكلام بخلاف ما كان من تباطؤ وتخفيض مُشعِرًا بابتداء فكرة جديدة لها صلة بما مضى. وإذا أقحم ما يعترض بين عباراته تلبّث برهةً في أوّله وثانيةً في آخِره، وقد يعبِّر عن ذلك باللفظ قائلًا: (بين قوسين) أو ما يشبه ذلك. وفي خلال هذا كله يلوّن تعبيره بالمقاصد الخبرية والإنشائية، هادئًا مسترسلًا فيما هو تقرير ووصف وتحليل، ومنغِّمًا العبارات بتوتّرات النداء والإنكار والزجر والتوبيخ والتهكم والاستبعاد والنهي والأمر والتعجّب والاستفهام والمبالغة في المعنى المراد ...

وكان في القديم بُـزُرجُمهُر يقول:[٢] « إذا مدحتَ رجلًا وهجوتَ آخَر فاجعل بين القولين فصلًا حتى يُعرف المدح من الهجاء، كما تفعل في كتبك إذا استأنفت القول، وأكملت ما سلف من اللفظ ». وفي هذا بيان لتمييز الفِقرات الكلامية والكتابية بعضها من بعض. أمّا الحارث بن أبي شَمِر الغساني فقد جاء عنه في القديم أيضًا وجوبُ تمييز العبارات أو الجُمل

---

(١) انظر مشكلة العامل النحوي ص١٨٠ - ١٨٦.

(٢) كتاب الصناعتين ص٤٤٠.

بفاصلٍ مّا يكون فيه وضوح معبّر، إذ كان يقول للشاعر المرقِّش: « إذا نَزع بك الكَلام إلى الابتداء بمعنًى غيرِ ما أنت فيه فافصل بينه وبين تبيعتِه من الألفاظ. فإنك إن مذقتَ ألفاظك بغير ما يَحسن أن تُـمذَق به نـفَّرتَ القلوب عن وعيها، وملَّته الأسماع واستثقلَته الرُّواة ».

هـذا قـبـل الإســلام، ثم ازداد الأمر وضوحًا بـتعـاليم الإيمـان والتبليغ والـدعـوة والإصلاح وكثرة الاهتمام بالبيان في الخَطابة والإرشاد، فظهرت تجارب جديدة تُزوّد القواعد تفصيلًا وتبيانًا. قالت السيدة عائشة رضي الله عنها[١]: « ما كان رسول اللّه ﷺ يَسرد سردَكم هذا، ولكنّه كان يتكلّم بكلام، يُـبينُه فصلٌ، يَحفظه مَن جلس إليه ». وكان عبد اللّه بن عُمر رضي الله عنه يقول: « لقد عِشنا بُرهة من دهرنا وأحدُنا يؤتَى الإيمانَ قبل القُرآن، وتنزل السورة على محمّد ﷺ فنتعلّم حلالَها وحرامها وآمِرَها وزاجِرَها، وما ينبغي أن يوقف عنده منها وما يُدرَى من أمره وزَجره ».[٢]

ذلك ما أنشأه الرسول الأعظم من سُنّته المشرّفة في ميادين العِلم والعمل وتيسير نشرهما بين الناس لتكوين أُمّة ناهضة بالمعرفة والخير والصلاح . وقال معاوية بن أبي سُفيان رضي الله عنه لكاتبه الأشدق: « لِيكنِ التفقُّد لمقاطع الكلام منك على بال. فإنّي شهدتُ رسول اللّه ﷺ أملى على عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه كتابًا، وكان يتفقّد مقاطع الكلام كتفـقُّد الـمُصرِم صَرِيـمـتَـهُ ».[٣] وأنت ترى في هذا اهتمامًا دقيقًا، بفصول واضحة لتمييز التراكيب والعبارات، وتمييزًا عامًّـا يشمل جميع أشكال التعبير.

وقال الأحنف بن قيس: « ما رأيتُ رجلًا تكلّم فأحسن الوقوف عند مَقاطع

---

(١) سنن الترمذي ٩ : ٢٥٧. وانظر صحيح البخاري ص١٣٠٧ - ١٣٠٨ وصحيح مسلم ص١٩٤٠.

(٢) الحديث ٦٠٢٧ في مصنف عبد الرزاق ٣ : ٣٨٠ وسنن البيهقي الكبرى ٣ :١٢٠ والبرهان في علوم القرآن ١ : ٣٤٢ والإتقان ١ : ١٨٠ وعلامات الترقيم في اللغة العربية ص٢٢.

(٣) كتاب الصناعتين ص٤٣٩. والمصرم: من تلِفتْ إبله فبقي عنده منها قطعة صغيرة.

الكلام ولا عرَف حدوده إلّا عَمرَو بن العاصِي ﷺ، كان إذا تكلّم تفقّد مقاطع الكلام، وأعطى حقَّ المَقام... حتى كان يقف عند المقطع وقوفًا، يحول بينه وبين تبيعتِه من الألفاظ ».[١] وقد أضافت هذه المقولة تمايز الناس في ذلك مع مراعاة حق المَقام، وما يكون فيه من أساليب الخبر والإنشاء.

هذا في الخطاب الكلامي ترى بين أجزائه محطّات لطيفة، تساعد الألفاظ والتراكيب والجمل على أبعد ما يمكن من البيان. وكذلك كان شأن الكتابة من الاهتمام بالمحطّات التعبيرية. فقد رُوي عن أكثم بن صيفي أنه كان إذا كاتبَ ملوك الجاهلية يقول لكُتّابه: افصلوا بين كل معنًى مُنقضٍ، وصلوا الكلام معجونًا بعضُه ببعض.

ولذا صار أمر الإتقان لأساليب التمييز بين التراكيب مقرّرًا بين الكُتّاب، يراعون شأنه وأصوله ويعطونها حقوقها في الثقافة المِهنية. حتى إنّ عبد الحميد الكاتب كان يمتحن المرشّح للعمل بين يديه، فإذا كتب: « خبرُك، وحالُك وسلامتُك »، ففصل بين هذه الكلمات كما هنا، يقول عما فعَلَ: « قد استكمل كلُّ حرف منه آلته، ووقع الفصل عليه ».[٢] وقد ذكروا أيضًا، من مظاهر الفصل الواجب، ما كان بـمثل: إنّ و حتَّى و بل و بلى و ليس... مع إشارات خاصة تميّز نهاية الجملة أو العبارت أو الفقرة.

ونقلُ مثل هذه الأخبار في مصادر التراث يعني أنها حاضرة في الأذهان والألسنة والأقلام، تقتضي المراعاة بما يناسب المَقال والمَقام. ولذلك فقد لاحظ علماء القُرآن أهمّية هذه الوسائل الدلالية، وهم يستخدمونها في القراءات عمليًّا، فوضعوا لها تقاليد معيَّنة تساعد على الأداء، ومصطلحات محدَّدة لتمييز بعضها من بعض، ورموزًا مخصوصة ضابطة ميسِّرة. وإليك ما كان لديهم من رموز تقابل المصطلح أو الحُكم في القراءة:

---

(١) كتاب الصناعتين ص٤٣٨.

(٢) كتاب الصناعتين ص٤٤٠ - ٤٤١.

الوقف الممنوع = **لا**

الوقف اللازم = **مـ**

الوقف الجائز = **ج**

الوقف الجائز والوصل أولى منه = **صلى**

الوقف الجائز وهو أولى من الوصل = **قلى**

تعانُق الوقفين بحيث يوقف على أحدهما ويجب وصل الآخر = ∴ ∴

يضاف إلى ذلك ما يشار به إلى نهاية الآية بدائرة مرقومة، تفيد الوقف أحيانًا. وفي مجموع هذا وغيره كما ترى بعضُ ما لا يعرفه الترقيم المُعاصِر، وهو السكتة اللطيفة والوقف الممنوع وتعانُق الوقفين وما كان فيه الوصل أو الوقف أولى، ثم ما جدّ من حروف ونَقط وخطوط لأنواع الوقف على: السكون والروم والإشمام والتضعيف، وما ميّزوا فيه الإمالة والتفخيم والترقيق، وكلًّا من: الاستثباتي والإنكاري والتذكُّري والترنُّمي.[1]

وللعلماء والقُـرّاء أبحاث وإجراءات عملية، تبيّن تحرّي الدلالات المعنوية في الوقف والوصل لبيان المقاصد والمراد،[2] مع التزام التنغيم المعبِّر عن أساليب القول والبيان. وكان عبد الله بن عُمر ﷺ قد أوضح ذلك قديمًا بنصّ أوردناه فيما مضى،[3] ذكر فيه أن الصحابة يتعلّمون ما ينبغي أن يوقف عليه علمًا وعملًا من النص القرآني، وما يكون في ذلك من أمر وزجر... وهذا يعني، بالإضافة إلى أحكام الوصل والوقف والابتداء، وجوبَ مراعاة النبر والتفخيم والتلبّث لبيان مقاصد الخطاب.

فقد كان لأجدادنا القدماء أيادٍ ناصعة ورموز محدّدة في هذا الميدان،

(١) الترقيم وعلاماته ص١٠. وأغرَبُ ذلك جعل الضمة مقلوبة للدلالة على الإشمام. انظر إصلاح المنطق ص٤٢٠.

(٢) جمال القراء ص٦٦٧ - ٧٣٠ والبرهان في علوم القرآن ١ : ٣٤٢ - ٣٧٥ والإتقان في علوم القرآن ١ : ١٨٠ـ ١٩٤ ومصنفات الوقف والابتداء والتجويد من نحو: القول المفيد في علم التجويد.

(٣) انظر الإتقان ١ : ١٨٠ والبرهان ١ : ٣٤٢.

يتجاهلها المستشرقون وتلاميذهم من العرب والمسلمين،[١] ليزعموا أنّ ما نستعمله نحن اليوم هو من إنجازات الغرب ورجالات الاستشراق، وأنّ أول من تنبّه لذلك هو أرسطوفان من علماء القِسطنطينية في القرن الثاني قبل الميلاد،[٢] ثم تراهم حين يعبثون بتراثنا زاعمين التحقيق يضطربون بين التكثّر من الرموز المتشعّبة والإهمال الكامل لكل علامة مفيدة بدون ضابط منهجي أو أسلوب عملي نافع. ولمّا كثر الخلاف في ذلك طلب ناظر المعارف المصرية من أحمد زكي باشا (ت ١٣٥٣) إحياء أساليب الترقيم العربية عند علماء القراءات والمحدّثين والنُّسّاخ،[٣] فكان أن استنبط أحمد زكي طريقة لوضع علامات تناسب العصر.

ثم عدّل ذلك بعض المتأخّرين لضبط الكتابة والقراءة والفهم، فتحصّل أن وُضعتْ لتلك المقولات النظرية والعملية رموز تختصر الدلالة، وتعبّر عن المفهوم الاصطلاحي. ونحن مُلزَمون باستخدامها في التحقيق والنشر، لتيسير الاستفادة من النص التراثي على كل قاصد أو قارئ. فهي توضّح معالم النصوص وارتباط بعضها ببعض، وتبيّـن توزيع المعلومات الرئيسية والفرعية، والتراكيب المتواصلة والمتمايزة ودلالات أساليب الخطاب، وما هو من المؤلِّف أو منقول عن الغير[٤] وما سقط أو أُقحم في التعبير...

ولكنك إذا تتبعتَ ما نُشر من النصوص التراثية، لترصد أنماط التوظيف لهذه الرموز، أخذك العجب والدهشة والدُّوار لِـما تراه من تخبّط واعتباطية واضطراب. ذلك لأنك لا ترى صفحتين من كتاب واحد لناشر مفرد تتفقان في توزُّع علامات الترقيم. بله أن تتصفّح كتابين لهذا المفرد الكريم. فما

(١) انظر المساعد على بحث التخرج ص٧٨ – ٩٠.

(٢) الترقيم وعلاماته في اللغة العربية ص٤ – ٦.

(٣) الترقيم وعلاماته ص٦ – ٧.

(٤) لا مانع من دخول « أل » على « غير » خلافًا لمن زعم المنع. انظر تهذيب الأسماء واللغات ٢: ٦٥ – ٦٦.

قولك في النصوص ينشرها المتطفّلون في الشرق والغرب؟

ولقد فُجع القُرّاء لهذا التراث الكريم في آمالهم ومقاصدهم، لكثرة ما اصطدموا به من الفوضى والعشوائية والتناقص في توضّع علامات الترقيم. حتى إنهم ضاعت بين أعينهم وخبرتهم ومفاهيمهم بما لقوا من الاضطراب دلالاتُ تلك الرموز، وأصبحوا يتجاهلون وجودها بين التراكيب والمفردات، يقرؤون النصّ على أنه مجرّد منها ولا علاقة له بها.

هذا ما اعترف لي به بعض أصدقائي الكرام، وهو أمر عجيب عجيب أن تفقد علامات الترقيم وظيفتها، وتصبح ضربًا من الزخرفة الاعتباطية والزينة الشخصية، يقحمها الكاتب والناشر وراصف الأحرف. ومن ثَمّ يعود القارئ المفجوع إلى التكهُّن والظن في فهم النصوص، وهي كالأغفال من كل مَعلمة أو منارة. ونحن هنا نعيد إلى الأذهان مفاهيم العلامات الدقيقة، ونقدّم إليك أشهر هذه الرموز الفنية في الكتابة العربية، ويجب الأخذ بها في كتب التفسير:

١ - البدء في كل فِقرة بفراغ مقدار كلمة قبل كتابة أوّلها، إشعارًا بفكرة جديدة أو فرعية في الموضوع كالذي تراه في صفحات هذا الكتاب.

٢ - الفاصلة أو الفصلة أو الشَّولة (،) بين الجمل والتفريعات المتعاطفة، والتراكيب الكبيرة في الجملة المديدة، وبين المنادَى وجواب النداء، والقسم وجوابه، ولا يجوز أن تقع بين المتلازمين، كالفعل والفاعل، والمبتدأ والخبر، والشرط وجوابه. إلّا أنه إذا طال ما بين العنصرين من هذه المتلازمات في التعبير وجبت إذ ذاك فاصلتان تميّزان ما هو مطوّل، ليعود اتصالهما في التعبير والتفكير.

٣ - النقطة (.) في ختام الكلام الذي يتم به المعنى وفي ختام الفِقرة، ولا تكون في الشعر أو في آخر البيت، إلّا إذا كرِّرت متوالية فتكون ثلاثًا للتعبير عن سقط أو نقص في البيت.

٤ - النقطتان (:) بعد قول أو ما يشبهه أو إجمال، يليه المَقول والمحكيّ

والتفصيل والتفسير والتمثيل، وتقعان كثيرًا في التحليل النحوي بين جزأيِ المعادَلة منه.[١]

٥ - الشرطتان أي: خطّا الاعتراض (- -) تُحصر بهما الجملة الاعتراضية فقط، ويحسن ألّا يكونا في الشعر.

٦ - الاستفهام (؟) يكون بعد تمام العبارة الاستفهامية فحسب.

٧ - التعجّب (!) يقع في ختام العبارة التعجّبية فقط.[٢]

٨ - النجم (*) يكون إشارة للتهميش في عناوين الموضوعات، وقد يقع بين اثنين منه الشطرُ المفرد من الشعر في وسط السطر، وتكون ثلاثة منه فاصلًا بين الموضوعات المتباينة، ولا يجوز وضعه في وسط البيت الشعري.

٩ - القوسان المعقوفتان [ ] لِما يزيده المحقِّق عنوانًا مساعدًا أو تكملة للعبارة، أو نقلًا من النسخ المساعدة والردائف.

١٠ - النقاط الثلاث (...) للتعبير عن بياض أو خرم في النصّ.

١١ - الخط المائل (/) لتحديد بدء كلّ ورقة من ورقات الأصل، وقد يقع هذا أيضًا بين الأرقام التاريخية: تاريخ اليوم والشهر والسنة.

١٢ - الهلالان المزهّران ﴿ ﴾ غير المُصلَّبَين، ويقال لهما: الهلالان العزيزيّان أو القوسان العزيزيّتان، لحصر الآيات الكريمة.

١٣ - الهلالان المزدوجان، أي: الأهلّة أو القُوَيسات. وهي علامات الاقتباس والتنصيص « »، للمحكيّ من العبارات وللكلام المنقول، كالحديث الشريف وأقوال العلماء والأدباء والأمثال والعبارات المأثورة والحِكَم،

---

(١) التعبير في التحليل النحوي هو في الحقيقة معادلات رياضية، كقولك في إعراب الجامعةُ جديدةُ البناء: « الجامعة: مبتدأ مرفوع. وجديدةُ: خبر مرفوع ومضاف. والبناء: مضاف إليه مجرور، جمل ثلاثَ كل منها معادَلة لها طرفان بينهما علامة المساواة. انظر كتابنا: تكوين المهارات النحوية.

(٢) ما يذكر في هذا المقام من الانفعال عند بعض المستغربين هو رجم بالغيب وليس له علامة في الترقيم العربي.

ولبعض أسماء الكتب إذا لم تكن كثيرة في مكان واحد.

١٤ - الهلالان، أي: القوسان الكبيرتان ()، ويحصر بهما ما هو محكي من المفردات والتركيب، إذا وقع في نص ضمن الهلالين المزدوجين، والموادُّ المعجمية التي يحال عليها في المتن أو الهامش.

١٥ - الخط الأفقي الصغير (-) يكون بعد الأرقام التي يكون فيها تعداد لعناصر فكرة واحدة، وهو يفصل بين الرقم والكلام.

١٦ - الخطان الأفقيان الصغيران (=) يقعان مرتين متواليتين: في آخر هامش الصفحة إذا لم يستوعب التعليقةَ الأخيرة، ثم في أول هامش الصفحة التالية للدلالة على اتصال التعليقة في الصفحتين.

وعلى هذا فخلال الإجراءات التحقيقية المختلفة، وأنت تسجّل النص وتراعي ما فيه من المقتضَيات العامّة والخاصّة من الضبط، يجب عليك أن تُلحق به علامات الترقيم التعبيري المناسبة بدقّة وخفّة في المتن أو التعليقات، تيسّران للقارئ متابعة تسلسله وما بين عباراته وجمله ومفرداته من علاقات دلالية ونحوية ومعنوية. وقد تُضطرّ إلى مخالفة بعض ذلك حين تطول العبارات جدًّا، أو تجتمع علامات مختلفة أو متماثلة، أو تتداخل في أمكنة متقاربة من العبارة. إنك مطالَب بما ذكرنا في عمليات الضبط، ولو كان النص آيات قرآنية. بل إنه ليجوز لك وضعه في المصاحف الشريفة وهي بالرسم العثماني التوقيفي المعروف.

فقد طُرح هذا الموضوع على لجنة الفتوى في الجامع الأزهر الشريف منذ ثمانين سنة، حين كان للأزهر رجال يتكلّمون من قلوبهم عن تقوى وصلاح وجهاد، فصدر عنها الجواب أنّ اللجنة لا ترى مانعًا منه، شريطة ألّا يسبِّب لَبسًا على القارئ، واحتجَّتْ لذلك بما أُضيف إلى المصاحف من علامات التجويد والإعراب والإعجام والوقف والتعشير، وبقول الزيلعيّ من علماء الحنفية في مثل ذلك: هو وإن كان مُحدَثًا فمُستحسَن، وكم من شيء يختلف

باختلاف الزمان والمكان![1]

ثم لا تنس أن الإكثار من وضع هذه العلامات[2] يسبب عرقلة التفكير والفهم ويشوّه النصوص بزخرفات اعتباطية، وأن توظيف هذه الرموز يتوقف عليه الاستيعاب الدقيق لِما في النصّ من معلومات ومفاهيم وأحكام واحتجاج واستدلال ونتائج علمية أو فنية، توحّد بين ما يستفيده القُرّاء الذين هم متساوون في الثقافة والمعرفة والخبرة والذكاء.

وقد بدا لي أن علامات الترقيم هذه تُشبه في كثير من دلالاتها إشاراتِ المرور وما يرافقها في إنشاء المدن والشوارع والأرصفة وتوزيع مرافق الحياة، واستخدامُها بنجاح كفيل بالعطاء الجزيل والخدمة الوفية لمقاصد

---

(١) مجلة الرسالة المصرية تحت الرقم ٢١٦ في ٢٣ آب عام ١٩٣٧ وعلامات الترقيم في اللغة العربية ص٧٠.

(٢) انظر مشكلة العامل النحوي ص١٨٧ - ١٨٩. ويستحسن عدم وقوع: الأقواس والأهلة في أول الفقرة، والفاصلة والنقطة والنقطتين وعلامتي الاستفهام والتعجب في أول السطر، ونقاط الحذف في آخر ما بين قوسين. ويجب إغفال الفاصلة المنقوطة بواحدة أو اثنتين، والخط الصغير مع نقطتين عموديتين ، وكثرة النجوم في المتن، وورود النقطة في البيت الشعري أو آخره، وخط الاعتراض في الشعر أو بين ركني الجملة المديدة وفي أوائل الفقرات، والبدء بفقرة جديدة بعد الشعر فيما ليس بانقطاع، والأشكال الهندسية من مثلث ومربع وأسهم وخطوط مائلة وشاقولية وأفقية وزوايا وبقاع سود، والتفنن في توزيع العلامات على غير هدى ولا سيما علامة التعجب والفاصلة، لكثرة الخلاف في ذلك بين التنظير والتطبيق. وكذلك ما يقترحه بعض الزملاء من أنواع الأقواس للأرقام وأسماء المصادر والمؤلفين، والرموز الكثيرة المعقدة المبعثرة التي تُزيغ الأبصار والبصائر.

أما بعض المستشرقين فيرون أن استخدام هذه الرموز غير مناسب في الكتب العربية، ويرون أنها غير معروفة الدلالة، ثم يقترحون أقواسًا مزوّاة لحصر الزيادات وترقيمات وتقطيعات متعددة أيضًا. ومنهم من نشر كتابًا كاملًا في ٢٠٠ صفحة من دون فِقر أو علامات عدا الفاصلة والنجم والفراغ.

انظر قواعد تحقيق المخطوطات العربية وترجمتها ص٥٠ - ٥٤ وقواعد نقد النصوص ص١٠٤ - ١٠٥ وقواعد تحقيق المخطوطات ص٢٣ - والترقيم وعلاماته في اللغة العربية مطبوعة ١٩١٢ وحروف التاج وعلامات الترقيم ومواضع استعمـالـها مطبوعة ١٩٣١ ومناهج تحقيق التراث بين القدامى والمحدثين ص١٩٧ - ٢١١ والمساعد على بحث التخرج ص٨٣ - ٩٠ وكيف تكتب بحثًا ص١٦١ - ١٦٦، والمفصل للزمخشري في المطبوعة الاستشراقية.

المؤلفين والعلماء والأدباء ويمنع اصطدام الأفكار وتنازعها في النصوص. فالنقطة مثلًا تعني عِدّة جُمَل: قف قليلًا وانتهت العبارة وسترد عبارة مستأنفة، أو قف طويلًا انتهت الفكرة والفِقرة وسيأتي ما بعدهما، أو لن يأتي شيء بعدُ لانتهاء الباب أو الفصل أو الكتاب. والعجيب حقًّا أنّ النقطة هذه تستطيع أداء تلك المقاصد الدلالية المختلفة، وهي صورة وهمية لأنها في الحقيقة لدى العلماء مكانُ التقاء خطّين متقاطعين وليس لها طول ولا عرض ولا مِساحة إلّا في الذهن والخيال.

وأعجب منها في الدلالة هذا الفراغُ الذي خلّفناه الآن هنا في أول السطر ويكون في كل فِقرة. إنه صورة سلبية صمّاء عجماء، تقدّم للقارئ بِصمْتها معلومة واضحة دقيقة، هي أن الفكرة التالية متميّزة واردة ضمن البحث أو الباب أو الفصل. وقد يكون قبلها تمام فكرة أيضًا أو اتصال جانبي بها أو فراغ كبير يعني أنك في أول البحث المقصود.

فقد استطاعت هذه الصورة الرمزية الخفيّة أن تزوّد القارئ بمعانٍ كما رأيتَ، تحتاج للتعبير عنها إلى كلام حقيقي يستغرق سطرًا أو أكثر. ومع هذا كله فقد أصبح بعض المستغربين يتجاهلون تفرّغ ما هو أول الفقرة، ليخلطوا الحابل بالنابل، ويفسدوا على الناس التفكير الواعي المنتظم. فليس لك بعد هذا أن تستخفّ الأمر، وتتّخذ علامات الترقيم زُخرفًا اعتباطيًّا لا ضابط له ولا مَرام، أو أن تقلّد أساليب الشرق والغرب في متاهاتها المتراكبة والمتشعّبة.

* * *
* *
*

١٠
نظرات في كتب التفسير

كانت مصنّفات التفسير تتوالى مع الأيام والسنوات والعقود، بأعداد وافرة ومعطيات مأثورة أو متجدّدة، تناسب العصور التي تملؤها، والمستويات الجماهيرية المختلفة التي تخاطبها، والمذاهب الدينية والعلمية والسياسية، والمشارب والتوجّهات التي تحيط بها. وعندما دخل القرن الأخير منتصفه أصبح في الساحة القرآنية نماذج غفيرة تستعصي على الحصر، وكل منها يقدم خِدمات متنوعة لهذا النص السماوي العظيم، تمثّل الثقافات والحضارات والعلوم والتجارب التي مرّ بها المفسِّر العالم، ولامسَ منجزاتها وأصداءها وتفاعل وإياها في ميادين الحياة.[١]

نضّر الله وجوه الذين فتحوا لنا هذه الميادين الفِساح، ونوّر أرواحهم بالفيض من نعيم الجنة، وأكرم أيديهم ونفوسهم التي شقّت لنا سبل التفهّم للوحي العظيم. فلولا ما قدّموا من المساعي والجهود الطيّبة الجنى، وفتّقوا من الظلال القرآنية الوارفة الغنى، لما كان لنا أن نسير في هُدى الحق المبين وندركَ بعض المعاني والدلالات المباركة من هذا الكتاب الكريم. فقد تكفّل الله - تعالى - بتجنيد من يقوم بهذه المُهمّات العظام، وحقّق وعده بقوله: ﴿ ثُمَّ إِنَّ علَينا بَيانَهُ ﴾.[٢]

ومع كل هذا من الاستغراق في تفتيق الظلال القرآنية، فإن في ميادينها مجالات فساحًا ومنابع ثرّة تقدّم للخلف ما يضيفونه من لمَسات في التفسير والبيان. وستبقى الآيات الكريمة بحارًا فيّاضة زاخرة بالدلالات الوارفة، تغني ما قدّمة الأسلاف العظام من معالم مباركة، تغنيه بالفتوحات الربانية المستمرة إلى الأبد، كالذي جلّاه الله - تعالى - لصاحب « في ظلال القرآن » رحمه الله.

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص٧٩٣ - ٧٩٥.

(٢) الآية ١٩ من سورة القيامة.

فلنا أن نتابع تلك الأنوار الآن، ونرتع مع آبائنا في مسالك الومَضات الكريمة لنذكر ما يلي:

١ - أضواء على الآفاق الفياضة:

ما يزال الباحث المدقّق في الوحي الكريم يجد سعة من العطاء الرباني، يفتّح له منافذ من الوعي والتفهّم، تتسع بها آفاق الآيات المباركة. ومن ذلك أن قول الله ﷻ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَومٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنفُسِهِم، وإذا أرادَ اللَّهُ بِقَومٍ سُوءًا فلا مَرَدَّ لَهُ ﴾[1] يفسَّر تبعًا للتركيب الشرطي فيه بإجماع المفسّرين «على أنّ المراد: لا يغيّر ما هم فيه من النِّعم بإنزال النِّقم، إلّا بأن يكون منهم المَعاصي والفساد».[2] وهو بيان جيّد لتهديد الأمم بالبلاء، إن كان منهم فسوق أو عصيان واستمراء للفساد.

ولكنك عندما تتبصّر معي في أبعاد الدلالات الإيجابية للنص المبارك مستعينًا بمدلولَي المنطوق والمفهوم، يظهر لك أنّ المراد هو أعمّ من ذلك،[3] أي: عكسُ هذا المذكورِ وما بينهما أيضًا، أعني: لا يُبدِّلُ بحالهم، أيًّا كانت من خير أو شر أو متوسّط بينهما، حالًا مغايرة إلّا حين يبدّلون ما في قلوبهم من النيّات والمقاصد. ففيه البشارة بالإنعام والإكرام أيضًا إلى جانب الترهيب، وبإمكان التنقل بين الخير والشر وما يتوسّطهما كذلك. وإنما توجّهَ المفسّرون إلى معنى الانتقام لأنّ سياق النصّ الكريم مَقامه التهديد والترهيب، وليس لك أن تقف معهم في هذا التوجُّه السلبي الواحد، بل عليك أن تفتح أبواب الخير والصلاح لمن كان في شيء من البؤس والشقاء، إذا أصلح ما في نفسه وجدّد العزم على قصد الفلاح.

ومقابل ذلك التوجُّه السلبي ترى عكسَه في تفسير القول الكريم: ﴿ فإنَّ مَعَ

(١) الآية ١١ من سورة الرعد.
(٢) التفسير الكبير ٧ : ٢٠.
(٣) المفصل ص٩٠٦.

العُسْرِ يُسْرًا، إنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا ﴾[١]، إذ يقتصر الجمهور على اتخاذ البشارة باليُسر، ويجعلونه آتيًا بعد العُسر. ولك أن تقول:[٢] إنّ اليُسر هنا يُجاري العُسر في الزمان دائمًا وليس بعده فقط، وإن كان الناس قد لا يشعرون بهذه المُجاراة لاستغراقهم في الهمّ. ولذلك غالبًا ما تنفرج الشدائد بذلك اليُسر مفاجئة لهم. وقد يطول مثل هذه المُجاراة سنين وقرونًا في حياة الجماعة والأُمّة، ثمّ لا بدّ أن ينتهي بالانفراج. وخلال ذلك يكون يسرٌ خفيّ هو تخفيف وقع البلاء بلطف اللّٰه وعونه، ونعمٌ كثيرة تشمل المخلوق من حيث لا يعلم.

بل ربما تبيّنَ وتحقّقَ بعدُ للناس أنّ العُسر نفسَه كان يُسرًا بالنسبة إلى ما كان يُحتمل حدوثه من البلاء حينذاك، إذ قد يكون من لازم المُصيبة التي هو فيها ما لا يُطاق من العواقب الوخيمة، نجّاه اللّٰه منه برحمته ومعافاته. وفي هذا كان يقول عُروة بن الزُّبير ﷺ، وهو في المِحَن صابرًا محتسبًا، يخاطب اللّٰه تعالى: « لَيمُنُـكَ لئنِ ابتلَيتَ لقد عافَيتَ ». فهو يبشّر نفسه وغيره بأنّ الابتلاء الذي يأتي دائمًا يكون قبله في الماضي ومعه في الحاضر معافاة مؤكَّدة محقَّقة مرارًا بالقسَم واللام وقد.

وهذا كله لا يمنع أن يكون في مدلول النصّ الكريم مع أسباب اليُسر عواملُ للعُسر أيضًا، تُجاريها ثمّ تتغلّب عليها. إلّا أن الآية مبشِّرة تَذكُر جهة الخير، وتترك جهة الشر لِما يُفهم من لازم المعنى. ولا يُعترض على هذه المجاراة الدائمة بامتناع اجتماع الضدّين،[٣] لأنها مصاحَبة في الزمان لا في المحلّ، وهي ترد دون قيد أو شرط بخلاف ما يقال في المتنافِـيَين.

وإذا احتُجّ للمفسّرين بقول اللّٰه تعالى: ﴿ وإن تَعاسَرتُم فَستُرضِعُ لَهُ أُخرَى. لِـيُـنفِـقْ ذُو سَعةٍ مِن سَعتِـهِ، ومَن قُدِرَعلَيـهِ رِزقُهُ فلْيُنفِـقْ مِمّا آتاهُ اللّٰهُ. لا

---

(١) الآيتان ٥ و ٦ من سورة الشرح.

(٢) المفصل ص٢١٣٣ وتفسير الجلالين الميسر ص٥٩٧.

(٣) انظر التفسير الكبير ١١ : ٢٠٩ والكليات ٣ : ١٣٩ - ١٤٠.

يُكَلِّفُ اللّٰهُ نَفْسًا إِلّا ما آتاها. سَيَجعَلُ اللّٰهُ بَعدَ عُسرٍ يُسرًا ﴾[١] قيل: إنّ هذا النصّ الكريم مقيّد بالتعاسُر بين طرفَي الزوجية في الخلاف، فيكون تأخّر اليُسر بحسَب ذلك التعاسُر المفتعل، والقياس مع الفارق لا يُعتمد، وهذا فيه غير ما يكون من العُسر واليُسر معًا في وقت واحد.

والجزاء الذي ورد في الآية الكريمة: ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا، يَغفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرجُونَ أَيّامَ اللّٰهِ، لِيَجزِيَ قَومًا بِما كانُوا يَكسِبُونَ ﴾،[٢] يقصره المفسِّرون على إحسان اللّٰه إلى المؤمنين لِما عاملوا به الكافرين من تسامح وملاطفة، مع أنه يشمل أيضًا عقاب الكافرين لِما جنَوا من العدوان والبلاء على المسلمين. فذِكرُ الجانبين في التفسير واجب بدليل ما جاء في الآية التالية لتلك. وهي قول اللّٰه جلّ وعلا: ﴿ مَن عَمِلَ صالِحًا فلِنَفْسِهِ، ومَن أساءَ فعلَيها، ثُمَّ إلَى رَبِّكُم تُرجَعُونَ ﴾.

وتزيين الشهوات في قول اللّٰه ﷻ[٣]: ﴿ زُيِّنَ لِلنّاسِ حُبُّ الشَّهَواتِ، مِنَ النِّساءِ والبَنِينَ والقَناطِيرِ المُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ والفِضَّةِ والخَيلِ المُسَوَّمَةِ والأنعامِ والحَرْثِ. ذلِكَ مَتاعُ الحَياةِ الدُّنيا، واللّٰهُ عِندَهُ حُسنُ المآبِ ﴾ ترى فيه ذِكر النساء بين الشهوات قد أوهم المفسرين أنّ المزيَّن لهم هنا هم الرجال فقط، فتبسّطوا في بيان تخصيص الرجال بذلك واستغراقهم فيه، حتى قصروا تفسير « أزواجٌ مُطَهَّرةٌ » من الآية التالية على الزوجات المطهّرة في الجنّة من الحيض والنِّفاس وسوء الخُلق. ومن ثَمّ قلّ أن يتنبّه المفسّرون للتعميم في النصّ القرآني، إذ « النّاس » في الآية الكريمة هم البشر، وأل: جنسية للاستغراق الحقيقي، و« أزواج » أيضًا فيهم الذكور المطهَّرون من المَعايب والمفاسد في الجنان. فالمراد هو الرجال والنساء معًا في تلك الأمور على حد سواء.

---

(١) الآيتان ٦ و ٧ من سورة الطلاق.

(٢) الآية ١٤ من سورة الجاثية.

(٣) الآية ١٤ من سورة آل عمران.

وإنّما ذُكر في الآية الكريمة الأولى من المتاع ما يخصّ الرجال، مع أنّ النساءَ أشدّ وأظهر في تشهّي حيازته من بنين ورجال وقناطير وأنعام وحرث، ليكون شمولهنّ من باب الأَولى.[١] فالحقّ أن النساء أكثر رغبة وانسياقًا مع تلك الشهوات، وتهافتًا على الوصول إلى تحقيقها والاعتزاز والتفاخر بها، ولكنّ الأدب القرآني أغفل التصريحَ بذلك أو الإشارةَ إليه، مع أهمّيّته وأغلبيّته في واقع الحياة، احترامًا لشعور المرآة أن تُبسط نقائصها في هذه المجالات، وأدبًا وتلطّفًا وترغيبًا لها في التنزُّه والانصراف إلى ما هو أولى بالاهتمام والحيازة من متاع الحياة الدنيا.

وعِلم الله ﷻ حين يوجَّه إلى اختيار مواطن رسالات الهدى للبشر في القول الكريم[٢]: ﴿ اللّهُ أعلَمُ حَيثُ يَجعَلُ رِسالتَهُ ﴾، يُفسَّر باختيار النبيّ الذي هو أهل لذلك. ولو تأمّلتَ معي ببصيرتك مُطلق الدلالة للنصّ العظيم لتبيّن لك أنه يشمل الأُمّة التي تتلقّى الرسالة، والمكان الذي يناسب الدعوة، واللغة التي تحمل مضامينها ومراميها، والزمن الذي يلائم بمستواه الفكري والحضاري تلقِّيَ الرسالة ويحمل مسؤولياتها وتبعاتها. فلو نزل القرآن الكريم على غير العرب في وضعهم الراهن حينذاك لما كان له ما كان. والحمد لله رب العالمين.

والفضل الكبير الذي يتحصّل عن المواجهة بالحُسنى لمن هو ظالم، في قول الله تعالى: ﴿ ولا تَستوِي الحَسَنةُ ولا السَّيِّئةُ. ادفَعْ بِالَّتِي هِيَ أحسَنُ، فإذا الَّذِي بَينَكَ وبَينَهُ عَداوةٌ كأنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ. وما يُلَقّاها إلّا الَّذِينَ صَبَرُوا، وما يُلَقّاها إلّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾،[٣] هذا الفضل الذي عُبّر عنه بالضمير « ها » في « يلقّاها » جعله بعض المفسّرين خاصًّا لمقابلة الإساءة بالإحسان، وآخرون جعلوه للجنّة. والراجح أنّ هذا الضمير يعود على الحالَين قبله، وهما: التي

---

(١) تفسير الجلالين الميسر ص٥١ والمفصل ص١٧٠.

(٢) الآية ١٢٤ من سورة الأنعام.

(٣) الآيتان ٣٤ و ٣٥ من سورة فصلت.

هي أحسن من المعاملات، وصيرورةُ المعتدي وليًّا حميمًا لِما يقابَل به من الإحسان.

فليس الإحسان يسيرًا على كل إنسان، ولا بمصلِح نفسَ ذي العداوة إلّا إذا كان فيه استعداد لذلك، أي: إذا كان كالمُحسن من الذين صبروا وذا حظّ عظيم أيضًا. فالذي بينك وبينه عداوة مّا يسيرٌ إصلاحه بالمواجهة الكريمة، وهو غير العدوّ المتجبّر المصرّ على البطش والاستكبار. إنّ هذا ليزداد تكبّـرًا وعتوًّا كلّما رأى منك لطفًا وإحسانًا، لأنه يظن ذلك تذلّلًا له وانكسارًا، كالحُبّ من طرف واحد يكون فيه الذِّلّةُ للمُحب والتجبّرُ من المحبوب.[1] ولهذا وجب عليك أن تكون دائمًا في استعداد بالقوّة، لمقاومة عدوان المتجبّرين بالسلاح الرادع، فتردَّ عليهم ما بدؤوا به وتكيل لهم الصاع صاعين. وإلّا عشت في ذلة وصغار.

كذلك علّمنا النبي ﷺ حين أعلن على رؤوس الأشهاد مقولته الخالدة: « جُعِلَ رِزقِي تَحتَ ظِلِّ رُمحِي، وجُعِلَ الذِّلّةُ والصَّغارُ علَى مَن خالَفَ أمرِي »[2]، أي: على من رغب عن سُنّتي هذه في إعداد القوّة ورباط الخيل، وخالف شأني الذي أنا عليه من استعداد بالسلاح والعتاد لجهاد المعتدين من الكافرين وردع من تسوّل له نفسه الغدر أو العدوان أو الخيانة. وبذلك كان لي رزق طيّب بوطنٍ إسلامي فيه الكرامة والهناءة والخير العظيم تحت ظلّ رمحي، لا بسِنانه وعدوانه. ومَن خالف ذلك بالضعف والتمتع والاستجداء انصبّت عليه مصيبتا المذلّة والاستخزاء.[3]

وهاتـان المصيبتـان الفاجعتـان هما خفيّتـان غير مَرئيّتَيـن، وليستـا في العِيان كالكوارث والأمراض والجوع والفقر والزلازل والبراكين والرجفة

---

(١) انظر المفصل ص١٦٩٧ - ١٦٩٨.

(٢) صحيح البخاري ص١٠٦٧، في باب ما قيل في الرماح من كتاب الجهاد والسير. وظل الرمح هيبته والرهبة له.

(٣) انظر ص٧٤ من كتابنا: ولا يزالون يقاتلونكم... في ميدان التعليم والبحث العلمي وعروبة اللسان.

والحِجارة من سجِّيل والأعاصير والريح الصرصر والخسف والأوبئة والجائحات والعاهات والحروب والفتن، والناس قلّما يُحسّون بهما، وقد يجهلون أو يتجاهلون أمرهما لِما يكون فيهم من بهارج الحياة وأوهام الأُبّهة والترف والملذّات. وقد كان في الماضي كثير من هذه النماذج المستغرقة في الشهوات ومتاع الدنيا، حدّثنا الله ﷻ عن بعضها في قوله الكريم: ﴿ فلَمّا نَسُوا ما ذُكِّروا بِهِ فَتَحنا علَيهِم أبوابَ كُلِّ شيءٍ. حَتَّى إذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا أخَذناهُم بَغتةً، فإذا هُم مُبلِسُونَ، فقُطِعَ دابِرُ القَومِ الَّذِينَ ظَلَمُوا. والحَمدُ لِلّهِ رَبِّ العالَمِينَ ﴾.(١)

وإني لأعوذ بالله - جل ذِكره - أن نكون نحن - المسلمين من قادة أو شعوب - في مثل هذه الحال، أكثرنا مفتون بمظاهر الغِنى والترف والأُبّهة ومنجزات الحضارة التي هي كالمخدّرات تنعكس مرابحها على إغناءِ العدوّ وبيعِه الأوطان والأعراض والدماء والأموال والأرواح والزعماء والدين وثروات البلاد، وتَشغلنا عن الشعور بما يكون من ذِلّة وصغار أمامه، وتدفعُنا إلى الانقياد له وتقبّل سلطانه وجبروته في بحار الاستمتاع والتنعم والبغي والبِغاء والمحرّمات والمفاخرة بما لدينا من الاستغراق في الثراء الفاحش واللذائذ الطاغية، وتصرفُنا عن التخلّصِ من تراكم الذِّلة والصَّغار، التخلّصِ بإعداد القوة شعبًا مجاهدًا والرباط في سبيل الله سلاحًا حاميًا وكافيًا للجهاد، ومحاربة الفواحش والمنكرات والطغيان والمفاسد، ونصرة المجاهدين والمستضعفين وإغاثة المحتاجين إلى العون من شعوبنا الإسلامية المنكوبة بالرأسماليّين والاشتراكيّين والوثنيين والباطنيّين الإماميّين والمرتزقة.

ثم إن الحِفاظ الذي أمَّنه الله - جلّ اسمه - للقرآن الكريم في قوله المبارك:(٢) ﴿ إنّـا نَحنُ نَزَّلْنا الذِّكرَ، وإنّـا لَه لَحافِظُونَ ﴾ يتناوله المفسّرون من

---

(١) الآيتان ٤٤ و٤٥ من سورة الأنعام.

(٢) الآية ٩ من سورة الحجر.

زاوية واحدة للتبشير بحفظ القرآن الكريم إلى الأبد من كلّ خلل أو نقص أو زيادة أو تحريف أو تبديل. ولو وجّهت بصيرتك إلى هذا النصّ العظيم لرأيت أنّ البشارة الربانية هنا تحمل في طيّاتها بشائر بدلالات كثيرة، لم يعرض لها العلماء. ومن الدلالات الواضحة أن الآية العظيمة تتضمّن أيضًا حفظ اللغة العربية والعرب والإسلام والمسلمين،[1] وهذه بشارات بتأمين السلامة والخلود للعناصر المذكورة، مسجّلا في أُمّ الكتاب واللوح المحفوظ، قبل أن يُنقل إلى المصاحف الكريمة.

وقد وجبت تلك الدلالات، لأنّ حفظ القرآن المجيد لا يتحصّل في الفراغ أو في نفوس الجنّ أو الملائكة. إنّ اللغة العربية هي الوعاء الذي يحمل نصوص النظم الكريم، والعربَ والمسلمين هم حملة عروبة اللسان، والإسلامَ هو الدين الذي يشتمل على القرآن الكريم ويبلّغ رسالته، والمسلمين أيضًا هم المؤمنون بذلك والحاملون له فهمًا واعتقادًا وعملًا وتبليغًا وجهادًا في سبيله.

وعلى هذا تكون العناصر الخمسة: القرآن والعربية والعرب والإسلام والمسلمون، في مسيرة واحدة من الحفظ والصيانة أبدًا، لأنها تشكل مزيجًا متناصرًا متكاملًا، مصيرُ كل منها مرتبط بمصاير الجميع، وما يصيب كلًّا منها تنعكس آثاره على الجميع أيضًا. فلا حاجة إذًا إلى ما ينادي به بعض الغيورين على العربية، من نحو: الحفظ والحماية والدفاع، لأنه مؤمَّن بكفالة اللّه ﷻ والمحفوظُ بأمر المولى العظيم غنيّ عن جهود المخلوقات. وحسبنا تنمية اللغة واستعمالها في ميادين الحياة وعَوربة العالَم الإسلاميّ مع الحفاظ على اللغات الوطنية للمسلمين، بعيدين عن العامّيات والأجنبيات.

وأخيرًا تجد في هذه السورة الكريمة: ﴿ قُلْ: أعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ، مِن شَرِّ ما خَلَقَ، ومِن شَرِّ غاسِقٍ إذا وَقَبَ، ومِن شَرِّ النَّفّاثاتِ في العُقَدِ، ومِن شَرِّ حاسِدٍ

(١) انظر المفصل ص٩٥٣.

إذا حَسَدَ ﴾[١] تجد جمهور المفسّرين على أن النفّاثات هي السواحر، تبعًا لما ذُكر من سبب النزول. بل لقد جعَلَ بعضهم المراد بها النساء لأنها تثبّط همم الرجال عن عزائمهم في الخير، أو تفتنهم بإثارة الشهوات الباطلة، أو تكيد بنشر الخلاف والشقاق والفتن. ومع هذا فالتعميم هنا هو الأصل، ليصحّ لك أن توسِّع دائرة المعنى بما يحمله من ظلال أوفى، إذ العِبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.[٢]

فالمراد بالنفّاثات هو أيضًا شياطينُ الجنّ والإنس والنفوسُ الخبيثة في كلّ مجال، كالحُلفاء رُعاة الأمم والدول والمحرّضين على الغزو العدواني والمحتلّين لبلاد المسلمين لاستعباد أهلها وسلب ثرواتها وشراء ضمائر طواغيت الحُكّام وسماسرة القِيَم. أعني وُلاة أُمور المسلمين من العباد. فهولاء وأولئك المستعمرون قد يعقّدون الأهوال فيوقدون الحروب والفتن والخلافات، ويفسدون العقائد والأخلاق والقيم، ويبلبلون التفكير والميول واللغات طاعة للغُزاة، ويحرّضون على ترسيخ الخلافات المذهبية والطائفية والسياسية وتكفير الغير ومواجهة آرائه ومعلوماته بالرفض والتسفيه كما تواجَه مقولات الأطفال والأغرار، ويثيرون الفتن وينفخون فيما تعقّد منها بكل وسيلة ليتسنّى لهم الاستبداد والطغيان وتفريق الأمة وابتزاز الأموال والقدرات واشتراء الضمائر وبيع السلاح والذخائر والممنوعات.

وكذلك شأنُ الوحوش والحشرات والجراثيم المؤذية، وسماسرة الاحتكار والرشوة والتهريب والنصب والاحتيال في الطبّ والصيدلة والقضاء المستورَد برجالاته من قُضاة ومحامين وسُعاة وشهود زُور، وتجّار الجرائم والمخدّرات والسلاح والإفساد في الزراعة والصناعة والتجارة والمعاملات المالية ومناهج التربية والمقرّرات والبرامج والامتحانات والمنشورات وأساليب التعليم الديني والمدني والفني والعسكري.

---

(١) الآيات ١ - ٥ من سورة الفلق.

(٢) انظر الميسر ص٦٠٤ والمفصل ص٢١٦٩ - ٢١٧٠.

ولا تنسَ هنا حالَ المسيئين إلى التوحيد والشريعة والنبي ﷺ والصحابة ﵃ والتاريخ الإسلامي في التواصل (الإنترنيت) والصفحة (فسبك) ووسائل الإعلام، وحالَ الخائضين في مستنقعات الفنون الرخيصة، يحبُّون أن تشيع مباذل الكفر والفواحش في الذين آمنوا، فيثيرون الطائفية الخبيثة والنزوات الوحشية ويهيّجون دنيء الشهوات إلى الإباحية والبغي والبغاء، وحال عصابات علوم العدوان والارتزاق باسم الحضارة والاستعمار والوصاية والحماية والضروب الوثنية، أي: الديمقراطية والحرية والرأسمالية والاشتراكية والمَلَكية الوراثية والرئاسية البرلمانية والوطنية بدون الشريعة الحنيفة. وكذلك حال القومية الوثنية، وحال السُّعاة بين الناس بالغيبة والنميمة والحروب والغزو، وحال أكثر ولاة الشؤون العامّة في كلّ ميدان إداري أو عملي أو مالي أو تعليمي أو تربوي، يصطادون في الماء العكر منها، ويهمّهم أن تبقى الأمور في عَكَر دائم ليتسنّى لهم ما يطلبون.

ثمّ نضع في الواجهة هؤلاء الأغبياء من الناشرين والباحثين والمؤلّفين والكاتبين والشعراء والمتأدّبين والمترجمين في ميادين التراث والعلوم الإسلامية والعربية، وهم ممن أفرزتهم مناهج التعليم المدَبلجة المبَرمجة في الوطن الإسلامي وعصر الانحطاط العلويّ، يشوّهون نصوص القرآن الكريم والحديث الشريف والآثار الكريمة، ويفسدون التفكير والتنظير والعَرض والمعلومات والمفاهيم والأساليب والتجارب والتوجيهات، ويوزّعون علينا تفاهات الإنتاج من الكتب والمصنّفات والمنشورات والرسائل الجامعية، بما فيها من غباء فكر غثّ وعرض مهلهل وتعبير سقيم ونهج عقيم وفهم لئيم، ويشيعون التسيّب في التفكير والتعبير والتصوير والمقاصد والبيان.

وأظهرُ ذلك النفثِ في العُقد تراه لدى المشرفين على كثير من وسائل الإعلام في العالم وفي الخليج العربيّ، يريدون أن تنفجر الحروب والفتن والأوبئة والجوائح والخلافات المذهبية والطائفية، وهم يضخّمون أحداثها

ويعظّمون شأنها بالأنباء المصطنعة والمشاهد الفظيعة والمجادلات المثيرة والمحرّضة والمثبّطة والندوات المحتدمة بالتكفير والتضليل وأغبياء المحلّلين للسياسة والتربية والاقتصاد والمجتمع والفتن والحروب، لتشجيع المعتدين والمستبدّين بالحُكم وإيقاظ الخصومات النائمة والبلايا المدمّرة وتثبيط المؤمنين والمظلومين والمنكوبين، فيكونُ لديهم مجالات واسعة من تجهيز أخبار وندوات ومؤتمرات وتعليقات وتحليلات ومسرحيات ومسلسلات وأفلام وأباطيل وتُـرّهات. وهذا هو في الأصل واجب الكافرين المحاربين، أمّا التلفزات والإذاعات التي تفعل ذلك في بلاد المسلمين وهي عامّة بيننا وخاصة كما ذكرتُ فلا شكّ أن المشرفين عليها هم من المنافقين السمّاعين للكذب والسمّاعين لقوم آخرين.

٢ - تشريف مقام النبوات الكريمة:

كلنا يعلم أنّ الله - تعالى - قد اختار الرسل لتبليغ الدعوة والعمل بها، وإصلاح أحوال الأُمم في الدنيا والآخرة، وفضّلهم على العالَمِين، وجعلهم معصومين مما يمسّ طُهر الرسالة والاستقامة والفلاح، مع خلاف يسير بين العلماء في تحديد مدى هذه العِصمة ومستوياتها. ولكن بعض المفسّرين ينسَون هذه الخاصّية المباركة، وينساقون مع الأخبار الضعيفة والدسائس الإسرائيلية، لينسبوا إلى الرسل الكِرامِ ما لا يليق بمُهمّاتهم من أعمال، تطعن في العقيدة أو الخلق النبيل. وقد تناولوا بذلك جمهور الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - من آدم إلى محمد ﷺ.

فالآيتان المباركتان: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِن نَفْسٍ واحِدةٍ، وجَعَلَ مِنها زَوجَها لِيَسكُنَ إلَيها، فلَمّا تَغشّاها حَمَلَت حَملاً خَفِيفًا، فمَرَّتْ بِهِ، فلَمّا أثقَلَتْ دَعَوَا اللّهَ رَبَّهُما: « لَئِنْ آتَيتَنا صالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشّاكِرِينَ »، فلَمّا آتاهُما صالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكاءَ فِيما آتاهُما. فتَعالَى اللّهُ عَمّا يُشرِكُونَ ﴾[1]، هاتان

(١) الآيتان ١٨٩ و١٩٠ من سورة الأعراف.

الآيتان الكريمتان رَوى بعض المفسّرين أنّ النبيّ ﷺ قال: « لَمّا وَلَـدَتْ حَوّاءُ طافَ بِها إبلِيسُ - وكانَ لا يَعِيشُ لَها وَلَدٌ - فقالَ: « سَمِّيهِ عَبدَ الحارثِ. فإنّهُ يَعِيشُ »، فسَمّتْه فعاشَ، فكانَ ذلِكَ مِن وَحيِ الشَّيطانِ وأمرِهِ، وذُكر في تسويغ هذا التفسير كثير من التأويلات المجازية الواهية.

وقد ردّه آخرون جملةً وتفصيلًا، وذكر الرازي في تفسيره لفساده عدّة أوجُه،[١] وقال القُرطبي عن قصة الوسوسة في تفسيره[٢]: « ونحوُ هذا مذكور من ضعيف الحديث في الترمذي وغيره، وفي الإسرائيليات كثير ليس لها[٣] ثبات فلا يعوِّل عليها مَن له قلبٌ ». ذلك لأنّ ضمير الاثنين ليس لآدم وحواء، إذ هما متبرِّئان ممّا نُسب إليهما، وهو في الحقيقة مَثَل لآخَرِينَ بيانًا لحال بعض الكافرينَ، ممّن ينسى نِعم اللّٰه ﷻ ويشرك به، كما قال الحسن البصري وجماعة منهم عكرمة والأصمّ وابن كَيسانَ والقفّال وآخرون.

وكذلك الشأن فيما نُسب إلى الأنبياء من مَعاص لم تكن منهم، نحو ما ذَكره بعض المفسّرين عن يوسف وموسى وداود وسليمان عليهم السلام ثم ما قيل في قصّة زواج زيد بن حارثة من زينب رضي الله عنها. فقد ورد ذكر ذلك في تفسير قول اللّٰه، جل وعلا: ﴿ وإذ تَقُولُ لِلَّذِي أنعَمَ اللّٰهُ علَيهِ، وأنعَمتَ علَيهِ: « أمسِكْ علَيكَ زَوجَكَ واتَّقِ اللّٰهَ »، وتُخفِي في نَفسِكَ ما اللّٰهُ مُبدِيهِ، وتَخشَى النّاسَ. واللّٰهُ أحَقُّ أن تَخشاهُ. فلَمّا قَضَى زَيدٌ مِنها وَطَرًا زَوَّجْناكَها، لِكَيلا يَكُونَ علَى المُؤمِنِينَ حَرَجٌ في أزواجِ أدعِيائِهِم، إذا قَضَوا مِنهُنَّ وَطَرًا. وكانَ أمرُ اللّٰهِ مَفعُولًا. ما كانَ علَى النَّبِيِّ مِن حَرَجٍ فِيما فَرَضَ اللّٰهُ لَهُ. سُنّةَ اللّٰهِ في الّذِينَ خَلَـوا مِن قَبـلُ، وكانَ أمرُ اللّٰهِ قَـدَرًا مَقدُورًا ﴾[٤].

---

(١) التفسير الكبير ٥ : ٤٣٠ -٤٣٧.

(٢) في ٧ : ٣٣٨. وانظر المفصل ص٦٢٥ وتفسير أبي السعود ٣ : ٣٠٣ - ٣٠٥ والمحرّر ٢ : ٤٨٦ - ٤٨٨ ومجمع البيان ٤ : ٣١٥ - ٣١٦ وفتح القدير ٢ : ٣٨٨ - ٣٨٩ والبحر ٤ : ٤٣٨ - ٤٣٩ وتفسيري البغوي ٢ : ٢٢١ - ٢٢٢ وابن كثير ٢ : ٢٦٣ والدر المنثور ٣ : ١٥٢.

(٣) كذا.

(٤) الآيتان ٣٧ و ٣٨ من سورة الأحزاب.

فقد افترى المُسمَّى يُوحنَّى الدمشقي ووضّاعو الأباطيلِ، للطعن في عصمة النبي ﷺ، قصة إسرائيلية أوردها بعض المفسّرين طلبًا للتكثّر والغرابة، فقال عنها المحقّقون من العلماء: « إنها ضعيفة مردودة، ساقطةُ الأسانيدِ »، وذكر الكثيرون من العلماء أنهم أعرضوا عن سردها لعدم صحّتها. وقد جاء الخبر نفسه في كتب الصحاح خاليًا من تلك القصّة والتفصيلات المكذوبة.[1] وقال ابن حَجَر عن تلك الأخبار التي وضعها المفسدون: « نقلها كثير من المفسّرين، لا ينبغي التشاغُل بها »،[2] ثم ذكر أنّ ما أورده من « الصحاح » هو المعتمد.

فالحق ما رُوي عن علي بن الحسين رضي الله عنهما، وهو أنّ الله أوحَى إلى النبيّ ﷺ ما سيكون من طلاق زيد لزينب، ووجوبِ تزوُّجه إيّاها لإبطال ما تعارفه الجاهليون من حُرمة تزوّج الرجل مطلَّقةَ ابنِه الدعيّ. فلمّا شكا زيد رضي الله عنه إلى النبي ﷺ نشوزها عليه ورغبته في طلاقها أمره بالإمساك والتقوى على طريق الوصية، وهو يعلم أنه سيطلّقها، كراهة أن يقال: وافقه على الطلاق ليتزوّجها هو.

ذلك هو الذي أخفاه في نفسه ﷺ ممّا أعلمه الله إيّاه، وكان العِتاب على الإخفاءِ مخافةَ كلام المنافقين وإظهارِ ما ينافي إضماره لا على الإخفاء المطلق، كما يتّضح في الآية الثانية، لأنه لم يؤمر بتبليغ ما يعلمه من ذلك. وذكر الشيخ محمد عبده أنه لولا ما أدخله المدلّسون في تلك الرواية لما

(١) انظر الأحاديث : ٤٥٠٩ في البخاري و١٤٢٨ في مسلم و٣٢٠٥ – ٣٢١٢ في الترمذي ومجمع الزوائد ٧ : ٩١ وتفسير ابن كثير ٣ : ٤٧٢ وأحكام القرآن ص١٥٤٣ – ١٥٤٤ والمحرّر ٤ : ٣٨٦ – ٣٨٧ وتفسير القرطبي ١٤ : ١٨٩ – ١٩٢ والشفا ٢ : ١٦٦ – ١٦٨ والبحر ٧ : ٢٣٤ والفتوحات الإلَهية ٣ : ٤٣٨ – ٤٤٠ وتفسير القاسمي ص٤٨٦٤ – ٤٨٧٨ وقرّة العينين ص٥٥٥ والإسرائيليات في التفسير ص١٥ و١٠٤ و١٠٥ و١٢٠ – ١٢١ وإعراب القرآن الكريم وبيانه ٨ : ٢٠ – ٢٥ ومجلة لواء الإسلام ٢ : ٥٠٢ لعام ١٣٧١ والإسرائيليات وأثرها ص١٣٠ وتنبيهات مهمة على قرّة العينين ص٤٤ – ٤٦ والميسّر ص٤٢٢.

(٢) فتح الباري ٨ :٦٧٢.

خطر ببال مطّلع على الآيتين شيء ممّا يرمون إليه. فنصّ الآيتين الكريمتين واضح بأنّ العتاب للتمهّل في التنفيذ، وأنّ ما يُخفي هو الحكم الإلـهي بهدم عادة جاهلية سيُظهره اللّٰه بقضائه، ليحق الحق ويبطل الباطل.

وأخيرًا نقف عند قول اللّٰه تعالى[١]: ﴿ يا نِساءَ النَّبِيِّ، لَستُنَّ كأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ، إنِ اتَّقَيتُنَّ، فلا تَخضَعنَ بالقَولِ، فيَطمَعَ الَّذي في قَلبِهِ مَرَضٌ، وقُلنَ قَولًا مَعرُوفًا وقَرْنَ في بُيُوتِكُنَّ، ولا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجاهِلِيّةِ الأُولَى، وأَقِمْنَ الصَّلاةَ وآتِينَ الزَّكاةَ، وأطِعْنَ اللّٰهَ ورَسُولَهُ - إنَّما يُرِيدُ اللّٰهُ لِيُذهِبَ عَنكُمُ الرِّجسَ - أهلَ البَيتِ - ويُطَهِّرَكُم تَطهِيرًا - واذكُرْنَ ما يُتلَى في بُيُوتِكُنَّ مِن آياتِ اللّٰهِ والحِكْمَةِ. إنَّ اللّٰهَ كانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾. فالمفسّرون يشرحون منه معاني المفردات والتراكيب بخلافات كثيرة وتفصيلات متباينة، ثم يتجاوز جمهورهم - سامحَهم اللّٰه - الفعل « يُذهِب » مع ما بعده من المتعلِّقات به، ولا يذكرون ما يُراد به في القول الكريم، مع أنه مُشكِل قد يُثير الشُّبُهات.

نعم هو كذلك، أيًّا كان معنى الرِّجس. فلوِ استَعرضتَ ما ذكروه من ذلك لكان بين يديك أنه: الإثم والشّكّ والشّيطان والشِّرك والمَعصية والذُّنوب والمَعاصي والعمَل الخَبيث والآثامُ والعمَل القَبيح... ثمّ ما هو المراد هنا بالفعل « يُذهِب » مع « عن »؟ لَكأنّهم يَكِلون الأمر إلى المعنى العامّ، أي: يُزيل، فيكون معنى الجملة[٢]: يُزيل عنكمُ الذُّنوب ويُخلِّصكُم مِن دَنَس المَعاصي، كما ورد في التأويل والتعليل، أي: لإذهاب الإثم وتَصوُّنِكُم بالتقوى، وإذهابِ الرِّجسِ عنكُم، والتّطهيرِ عنِ العقائد الباطنة. وفي هذا ما لا يليق ذِكره أو نِسبتُه إلى أهل البيت المشرَّف عامّةً ونِساء النّبي خاصّةً، ولو بالإشارة دُون العبارة.

وإنّما يجب أن يكون للفعل هنا معنًى مَجازيٌّ يناسب المَقام المشرَّف نحو:

---

(١) الآيات ٣٢ و ٣٣ و ٣٤ من سورة الأحزاب.

(٢) تفسير الرازي ٢٥ : ١٨١.

يَمنع أو يَحجب أو يَصون أو يحفظ أو يحمي أو يجنّب، لتكون التبرئة المُطلقةُ ممّا ذُكر، فيكونَ المَعنى كما ذكر الآلوسي[١]: « يَصونُكم منَ المَعاصي صونًا بَليغًا فيما أمَرَ ونَهى ». فقد أصاب هذا المفسِّر الكريم المَحَزَّ وطَبَّقَ المَفصِل هنا لأنه في بيئة مَشحونة بالباطنية والرّوافض الذين يصطادون في الماء العكِر، ويريدون أن ينالوا من الصحابة الكرام وآل النبي ﷺ، مع زعمهم أنهم متشيِّعون مُتفانون في المحبّة والتقديس والإكرام لآل البيت ﷺ. وقد هداني الله ﷻ إلى الصواب وألهمَني ما يَليق بالمَقام الرفيع المشرَّف، حين فسّرتُ ذلك بالقول[٢]: يُذهِبَ عنكم أي: يُجنِّبَكم ويَقيَكم ويُبعِدَ عنكم. والرِّجس: الأذى والسُّوء والشرّ والإثم وما يكون من سببه.

وبهذا يمكنك أن تفهم ما روَته أُمُّ سَلَمة رضي الله عنها حين قالت[٣]: نزلتْ هذه الآيةُ في بَيتِي، فدَعا رسُولُ اللّه ﷺ عليًّا وفاطمة وحَسَنًا وحُسَينًا ﷺ، وجاءته فاطِمةُ غُدَيّةً بِبُرمة قد صنعتْ له فيها عَصِيدة، تَحمِلُها في طَبَق لها، حتّى وضعتْها بين يدَيه، فقالَ لها: « أينَ ابنُ عَمِّكِ »؟ قالت: هو في البيت. قال: « فاذهَبِي فادْعِيهِ، وائتِنِي[٤] بابنَيهِ ». قالت: فجاءت تَقُود ابنَيها كلُّ واحدٍ منهُما بيَدٍ، وعليٌّ رضي الله عنه يمشي في إثرِهما حتّى دخلوا على رسول اللّه ﷺ، فأجلَسَهُما في حِجرِهِ، وجلس عليٌّ عن يَمينه، وجلستْ فاطمةُ عن يساره.

قالت أُمُّ سَلَمة رضي الله عنها: فاجتَبَذَ مِن تَحتِي كِساءً خَيبَرِيًّا، كانَ بِساطًا لنا على المَنامة في المَدِينةِ، فلَفَّهُ النَّبيُّ ﷺ عليهم جَمِيعًا، فأخذ بشِمالِهِ طَرَفي الكِساءِ وألوَى بيَدِهِ اليُمنَى إلى رَبِّهِ ﷻ قالَ: « اللّهُمَّ، أهلِي، أذهِبْ عنهُمُ الرِّجسَ وطَهِّرْهُم تَطهِيرًا، اللّهُمَّ أهلُ بَيتِي، أذهِبْ عنهُمُ الرِّجسَ وطَهِّرْهُم تَطهِيرًا، اللّهُمَّ أهلُ بَيتِي، أذهِبْ عنهُمُ الرِّجسَ وطَهِّرهُم تَطهِيرًا ». قلتُ:

---

(١) روح المعاني ١١ : ١٩٣.
(٢) التفسير الوافي المفيد وتفسير الجلالين الميسر ص٤٢٢ والمفصل في تفسير القرآن الكريم ص١٥١٨.
(٣) مسند أحمد ٤٤ : ١٧٣. وانظر الجواهر الحسان في تفسير القرآن ٤ : ٣٤٦.
(٤) كذا بحذف ياء المخاطَبة في مطبوعتَي المسند، والرواية المشهورة: فائتِينِي.

يا رَسُولَ اللّهِ، أَلَستُ مِن أهلِكَ؟ قالَ: « بَلَى. فادخُلِي في الكِساءِ ». قالتْ: فدخلتُ في الكِساءِ بعدَما قضَى دُعاءهُ لابنِ عَمِّهِ عليٍّ وابنَيهِ وابنتِهِ فاطِمةَ ﷺ.

٣ - تكذيب الأوهام الخيالية الباطلة:

ما ذكرناه عن الإسرائيليات فيما مضى له حضور كبير في كثير من كتب التفسير. وقد كان له حكم شرعي يقتضي المراعاة في جميع أقوال المسلمين وأعمالهم، يعرف تفصيله العلماء. وأنت تجد أماكن كثيرة من التفاسير ترد فيها أخبار خيالية وهمية من الإسرائيليات، لتوضيح بعض المعاني وبيان أبعادها. ومن ذلك ما جاء في تفسير قول العزيز الجبار: ﴿ فأوحَينا إلَى مُوسَى: أنِ اضرِبْ بِعَصاكَ البَحرَ. فانفَلَقَ فكانَ كُلُّ فِرْقٍ كالطَّودِ العَظِيم، وأزلَفْنا ثَمَّ الآخَرِينَ، وأنجَينا مُوسَى ومَن مَعَهُ أجمَعِينَ، ثُمَّ أغرَقْنا الآخَرِينَ ﴾.[١] فالنص القرآني ليس فيه بيان لعدد الأطواد في ذلك الانفلاق، ولكن المفسّرين أضافوا في مصنفاتهم أخبارًا يهودية تحدّد ذلك بالعدد ١٢، ليكون وَفق عدد أسباط بني إسرائيل، مع أوهام تعظِّم شأنهم في المعجزات.[٢]

والعدد نفسه لا إشكال فيه، وإن كان تزيُّدًا على ما جاء في النصوص الشرعية المعتمدة، وإنما الغريب حقًّا أن يتابع بعض المفسّرين أوهام اليهود في تفصيلات ذلك ليذكروا أن ما صار في البحر من أطواد وانفلاق هو « الفجّ بين الجبلين... وصار فيه طاقات ينظر بعضهم إلى بعض، وقام الماء على حَيله كالحيطان ».[٣] وقد شاع هذا التفسير بين الناس، مع أنه مردود من وجوه:

أولها: أن اثني عشر طودًا من الماء المرتفِع يكون بينها أحدَ عشَرَ طريقًا لا اثنا عشَرَ. فأين مَسلك السِّبط الثاني عشر؟ ثم إنّ الفِرْق المذكور هو الطريق

---

(١) الآيات ٦٣ - ٦٦ من سورة الشعراء.

(٢) انظر كتب التفسير المنشورة، وصحيح قصص الأنبياء لابن كثير ص٢٧٤.

(٣) تفسير ابن كثير ٣ : ٣٢٥. وانظر تفسير البغوي ٣ : ٣٨٩ وابن عطية ٤: ٢٣٣ والقرطبي ١٣ : ١٠٧ والإصحاح ١٤ من سفر الخروج وتفسير الجلالين الميسر ص٣٧٠.

كما قال ابن عبّاس، مرتفِعًا كالطود العظيم لا منخفِضًا بين مرتفَعات الماء. وهذا يعني أنه انشقّ عنه الماء وانحسر بانخفاض، ييسِّر ظهور المسالك المذكورة أو ارتفاعها كالجُزُر. ومن ثَمّ يكون عدد الطرق اثني عشَرَ بعدد الأسباط. حتّى إذا مرّ بنو إسرائيل وصار فرعون ومَن معه في تلك الجُزُر ارتفع الماء فغمرها ليُغرق الكافرين.[1]

والثاني: أن بني إسرائيل كانوا في ذلك الوقت حديثِي إيمان تفتنهم الوثنية المعاصرة لهم كما هو معلوم، وسيعبدون العِجل أيضًا بعد قليل، فلا يمكن أن يمرّوا بطرق تحفّها المياه العالية كالجبال، وهم يرونها عِيانًا، وقد تنطبق عليهم بلمحة عين. أما إذا كانت الطرق مرتفعة عن الماء فهي آمن عندهم من الأمواج العالية.

والثالث: أنه إذا خاطر بنو إسرائيل بدخول الطرق بين المياه المرتفعة هربًا من خطر فرعون وجنوده فإنّ هؤلاء الكافرين لا يمكن أن يدخلوا هذه المداخل، وليسوا مضطرّين إلى لحاق الهاربين الناجين من القتل، بل إنّ فرعون نفسه أبعد الناس عن ذلك، لِما يعتقده من صحّة دعوة موسى ﷺ، وقد صرّح باعتقاده هذا عندما أدركه الغرق.

ومن تلك الأوهام الشائعة أنّ العداوة بين بني إسرائيل وفرعون في أيّامه الأخيرة أدّت به إلى العزم على تحقيق وعيده، وقد بسطها اللّٰه - جلّ اسمه - مع بيان نهايتها في قوله الكريم عن فرعون: ﴿ فأرادَ أن يَستَفِزَّهُم مِنَ الأرضِ، فأغرَقْناهُ ومَن مَعَهُ جَمِيعًا، وقُلْنا مِن بَعدِهِ لِبَنِي إسرائيلَ: اسكُنُوا الأرضَ ﴾.[2] وعندما وقف جمهور المفسّرين عليها للبيان ذكروا أنّ المراد بالأرض في الآية الأولى هو « مصر » وفي الثانيَة هو مصر والشام، وأنّ فرعون أراد إخراجهم من مصر، فأهلكه اللّٰه ومَن معه، وأورثهم إيّاها مع الشام ليُقيموا

(١) المفصل في تفسير القرآن الكريم ص١٣٥٤.

(٢) الآيتان ١٠٣ و١٠٤ من سورة الإسراء.

فيها.[١]. وهذا من الدسائس الإسرائيلية التي أُقحِمت بين مقولات التفسير لإقرار أباطيلهم في التسلّط على مصر والشام بأمر من اللّٰه. وتعالى اللّٰه عن ذلك علوًّا كبيرًا. وقد ذكر أبوحيّان أنّهم لم يعودوا إلى مصر، ولم يُروَ في مشهور التواريخ أنّ بني إسرائيل رجعوا إلى مصر في شيء من ذلك الزمان، ولا ملكوها قطُّ.[٢]

إن تفسير الاستفزاز بإرادة فرعون إخراجَهم من مصر مردود بما جاء في أول قصة موسى ﷺ معه، إذ كان هو قد طلب من فرعون السماح بذهابهم منها في قوله: ﴿ فأرسِلْ مَعِي بَنِي إسرائيلَ ﴾،[٣] فجاء إنكار الملأ ذلك وزعمُهم أنه تهجير منها لا يقرّونه، وهم يريدون أن يبقى بنو إسرائيل بينهم للاستعباد والاستخدام. ولذلك استقبل فرعون استعدادهم للهرب بحشد قواه للقضاء عليهم وإفنائهم على بكرة أبيهم.

وإنما يصح تفسير الاستفزاز من الأرض بما جاء في قول اللّٰه - سبحانه - على لسان فرعون وقومه: ﴿ اقتُلُوا أبناءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ، واستَحْيُوا نِساءَهُم ﴾.[٤] وهذا يعني أن المراد هو اقتلاعهم من الأرض كلها بإبادة الرجال، وبقاء النساء في أسواق النِّخاسة والفجور.[٥] وقد عبّر عن احتمال ذلك بعض المفسّرين، إذ تراهم يقولون بعد ذكر الإخراج من مصر: « أو الأرضِ مطلقًا بالقتل والاستئصال »، ويفسّرون ما في الآية الثانية بأنّ المراد

(١) في تنوير المقباس: ٣ : ١٦٠ على هامش الدر المنثور: « أرض الأردن وفلسطين ». وفي صحيح قصص الأنبياء لابن كثير ص٢٧٩ : « وأورث بني إسرائيل جميع أموالهم وأملاكهم »، أي: أموال فرعون وجنوده وأملاكهم ». وذكر بعض مفسّري الآية الأولى أن المراد هو القتل أو الجلاء. انظر البحر المحيط ٦ : ٨٦.

(٢) البحر المحيط ٥ : ١٥٥و٨ : ٢٨.

(٣) الآية ١٠٥ من سورة الأعراف. وانظر الآية ١٧ من سورة الشعراء.

(٤) الآية ٢٥ من سورة غافر.

(٥) انظر التفسير الوافي المفيد ص٢٩٢ والبحر المحيط ص٨ و١٤١و١٦٧ و٢٥٦ و٢٨٣ و٢٩٢ و٣٨٥ - ٣٨٦ والأسباب الشرعية للمغازي ص٢٨٣ - ٢٨٥ و٣٢٣.

« اسكنُوا الأرض التي أراد فرعون أن يستفزّكم منها »،[١] فترى أن المقصود أيضًا هو الأرض مطلقًا لا مكان معيّن منها.

وقد نجّاهم الله ﷻ بإغراق فرعون ومَن معه، وقضى عليهم أن يصير لهم تحكُّم في أمور من نوع سلطانه، لا في سلطانه نفسه، لزمن محدود أيّامَ مشهورِ أنبيائهم عليهم السلام ثم يُلعنوا على لسان داود وعيسى عليهما السلام لينتشروا في المعمورة شياطين للبشر من سلالة إبليس، كما وصفهم السيد المسيح فيما نُـقل إلينا من مصادر أهل الكتاب،[٢] يثيرون الفتن والشرور والمفاسد. وليس في التاريخ أنهم رجعوا جماعةً أو دولة إلى مصر، فما قيل في التفسير من إسكناهم إيّاها مردود أيضًا، وتوريثهم للكنوز والمقام هو للنوع لا للذات.[٣]

وأخيرًا سيجمعهم الله في فلسطين محارِبين للمسلمين، وينتهي تاريخهم كله على أيدي المجاهدين المؤمنين بنصر المولى تعالى. هذا ما بشرتْنا به نصوص القرآن الكريم والحديث الشريف، وهو ما يعتقده كثير من اليهود الآن، وينكرون على إخوانهم الهجرة إلى فلسطين، لأنها تعني عندهم تجديد « مَلحَمة بَنِي إسرائيل »، وما زال حاخاماتهم يَـرَون في انتقال أبناء اليهود إلى فلسطين مخالفة لأمر الله الذي قضى فيه أن يسكنوا الأرض مشتَّتين عقابًا لهم، ويعتقدون أنّ هلاكهم في تجمّعهم هذا.[٤]

ولذلك فهم يفرّقون بين اليهود الراضين بمشيئة الله في التشرّد والصهاينة الداعين إلى إقامة دولة لهم في فلسطين، ثم يطالبون بانتزاع اليهودية من أيدي الصِّهيَونية العِلمانية. بل إنهم ليُصَلّون مع جميع اليهود الأرثُوذُكس من غير

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ١ : ٢٩٣ والكشاف ٢ : ٦٩٨ وتفسير النسفي ٢ : ٣٢٩ - ٣٣٠.

(٢) الإصحاح ٨ من إنجيل يوحنا ص٥٢ - ٥٣.

(٣) انظر: في ظلال القرآن ٥ : ٣٤٩ وأنوار التنزيل ص٣٧٠ والكشاف ٣ : ٣١٥ والبحر المحيط ٧ : ١٩ والتفسير الوافي المفيد ص٣٦٩.

(٤) ومضات: مقالات في الفكر والأدب لمحمد كلزية ص٤٩ - ٥١.

الصهاينة، داعين أن تزول الدولة التي هي من عمل الشيطان، لئلّا ينزل على الجميع غضب اللّٰه، ويتمنون أن تتغيّر سياسة الدول الاستعمارية المرتزقة وتتخلّى عن دعم الغُزاة، حتى تتلاشى قواهم وتذهب ريحهم.

ثم إن قصة العِجل الذي صاغه السامري لبني إسرائيل، وزعَمَ أنه إلٰـههم فعبدوه، جاءت على لسانه فيها أنه ﴿ قالَ: بَصُرتُ بِما لَم يَبصُرُوا بِهِ، فقَبَضتُ قَبْضةً مِن أَثَرِ الرَّسُولِ، فنَبَذتُها. وكَذلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفسِي ﴾.[1] وقد أقحم المفسّرون بين عباراته بالقبض والنبذ كلمات حتى صارت كما يلي: فقَبضتُ قَبضةً من تُرابِ أَثَرِ وطءِ حافرِ فرسِ الرَّسُولِ جِبريلَ، فألقيتُها في صورة العِجل المصوغ. وهي مرويّة عن المفسّر مجاهد[2] في مصنَّفاتهم.

كذا بجعل بني إسرائيل يعظّمون جبريلَ وترابَ أثرِ وطءِ حافرِ فرسِه، وإقحامُ الفرس هنا مردود كذلك، لأنّ الملائكة مخلوقات نورانية غيرُ مجسّمة وذوات أجنحةٍ مَثنَى وثُلاثَ ورُباعَ، لا تحتاج إلى خيل تركبها في تأدية واجبات الرسالة، خلافًا لِما يكون حين تثبيت المؤمنين في الحرب. ثمّ مِن أين للسامري أن يرى فرسًا لجبريل؟ وهل يكون لحافر فرسه أثر وطء في تراب؟ وكيف يستجيب بنو إسرائيل إلى ترابِ وطءِ حافرِ فرسِ جبريلَ، وهم يكفرون بجبريلَ نفسِه، ولا يرضَون أن يكون مبلّغ رسالة، كما جاء في الآية ٩٧ من سورة البقرة؟ ومَن حقّق أنه كان لجبريل فرس في عهد موسى؟

إنها الأباطيل الخيالية المختلَقة، فيها عناصر تكذيبها والفساد. والصواب أن الرسول هنا هو موسى عليه السلام[3] خاطبه السامري بذلك للتعظيم والتقدير، كما يخاطب الإنسان من يكرمه فيَذكره بالاحترام كالغائب فيقول: هذا كتاب أمير المؤمنين، وأصلح اللّٰه الأمير، وما هو رأي الشيخ الكريم؟ وما يقول

(١) الآية ٩٦ من سورة طه.

(٢) انظر الدر المنثور في التفسير بالمأثور ٤ : ٣٠٧.

(٣) انظر الآية ٦٤ من سورة النساء والبحر المحيط ٦ : ٢٧٤.

الأستاذ في كذا؟[١] فقد زعم السامري إذًا أنه قبض القبضة من أثر النبي موسى عليه السلام ليوهمَ بني إسرائيل أنه ترك إلـٰـهه ومضى للمناجاة، فيُقبِلَ القوم على عبادة العِجل برضا واطمئنان.

وكذلك ما في الجمع بين القتيل الذي تدافعوا تُهمة قتلِه وبين ذبح البقرة من الأباطيل والكذب والفساد، مع أنّ كلًّا منهما في القرآن الكريم واضح الدلالة متميّز عن الآخر. فقد ذكر الله ﷻ لبني إسرائيل في عِداد ما منّ عليهم من المُعجزات بإحياء الموتى قصةَ قتيلٍ تبادلوا التُّهم فيه ولم يصلوا إلى معرفة المجرم مع الظنّ ببعض المجرمين، فأمرهم الله أن يُضرب كلُّ واحد من هؤلاء المجرمين المتهمين بجزءٍ من الجثّة متّصلٍ بها كيَدِهِ مثلًا. وعندما يلامس ذلك الجزء جسم القاتل من المتهمين يُحيي اللّٰهُ القتيلَ، ويذكر أنّ الذي لامسه هو القاتل.

كان هذا في القول الكريم: ﴿ وإذ قَتَلتُم نَفْسًا فادّارأْتُم فِيها – واللّٰهُ مُخْرِجٌ ما كُنتُم تكتُمُونَ – فقُلنا: اضرِبُوهُ بِبَعضِها. كَذلِكَ يُحيِي اللّٰهُ المَوتَى ويُرِيكُم آياتِهِ، لَعَلَّكُم تَعقِلُونَ ﴾[٢]. لكن الدسائس الإسرائيلية وصلت ما بين هذه المُعجزة وقصّة ذبح البقرة قبلها، لتُخفي تعنّتهم في عبادة العِجل ومراجعة موسى قبل الذبح، فيصيرَ الضرب بجزء منها لِـ « نفسًا » أي: النفسِ المقتولة، كما نقلَ جمهور المفسرين بدون احتراس. وهي قصّة مطوّلة لا صلة لها بالقتيل، امتحنهم الله بها ليمحق من نفوسهم عبادة العجل الممزوجة بقلوبهم كما قال: ﴿ وأُشرِبُوا في قُلُوبِهِمُ العِجلَ بِكُفرِهِم ﴾.[٣] وإنما يُنكَر هذا الوصلُ بين الموضوعين لعدة أسباب منها:[٤]

---

(١) تفسير الجلالين الميسر ص٣١٨ والمفصل ص١١٧٣ - ١١٧٥.

(٢) الآيتان ٧٢ و٧٣ من سورة البقرة.

(٣) الآية ٩٣ من سورة البقرة. وبنو إسرائيل في هذا يحنّون إلى ما كانوا عليه من عبادة العِجل مع أقباط مصر. انظر قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار ص٢١٨.

(٤) انظر المفصل في تفسير القرآن الكريم ص٣٤ وص٢٩ من خطبة التحقيق.

أ - أنّ الرواية الإسرائيلية تجعل الموضوع الثاني من الآيات بعد الأوّل في الترتيب، وبينهما آية اعتراضية فيها اعتراض أيضًا، وهذا خلاف النظم الكريم في التسلسل مع الاعتراضين.

ب - وأنّ ضمير المؤنث في « بعضها » يعود في روايتهم على شيء بعيد جدًّا والقريبُ إليه هو « نفسًا »، وضمير المذكّر في « اضربوه » يعود على مؤنث في روايتهم أيضًا ضمن اعتراض مما لا يجوز عود ضمير عليه.

جـ - وأنّ مُدة تعنّت بني إسرائيل قبل ذبح البقرة كانت على ما ذكروا طويلة جدًّا لا تُبقي للجثّة المذكورة أثرًا.

د - وأنّ البقرة اشتُريتْ بمِلء جلدها ذهبًا، كما قالوا. ومَن يضمن أن يدفع اليهود ذلك ولمّا يُعلم قدره؟

هـ - وأنّ نسَق ما جاء بعد « إذ » في الآيات المحيطة بالقصة - وهو ١٤ مرة - يقتضي تمايُزَ كلٍّ من ذلك عمّا سواه دون تداخل لأنه معطوف بالواو. فهو موضوع خاص، معدود من إكرام اللّٰه لهم واستغراقهم في الجحود.

و - وأن في تلك الرواية محاولةً لإخفاء ما كان عليه اليهود من عبادة العِجل، كما جاء في الآية ٩٣ من السورة نفسها.

فالفصل بين القصّتين فصلًا تامًّا يحفظ للنظم الكريم سياقه المُحكَم، ويبيِّن وجه الحق في أكاذيب الإسرائيليات حين جعلتْهما قصة واحدة. وقد اضطرب المفسرون في إيرادها، مع أنها من الأخبار التي لم تصحّ وهي محشوّة بالتفصيلات المتكاذبة الغريبة لم يَرِد بها نص شرعي، وبنَوا عليها تقديمًا وتأخيرًا غير جائزين في الآيات ٦٧ - ٧٣، وقال عنها ابن كثير: « الظاهر أنها مأخوذة من كتب بني إسرائيل... فلهذا لا يُعتمد عليها إلّا ما وافق الحقَّ عندنا ».(١)

وأخيرًا فإن وصف الجبّارينَ العماليقِ تجد فيه ما هو وهمي لا يُعقل.

---

(١) تفسير ابن كثير ١: ١٠٥. وينظر البحر المحيط ١: ٢٥٨ - ٢٥٩.

وقد ذكر اللّٰه - تعالى - على لسان بني إسرائيل أنهم ﴿ قالُوا: يا مُوسَى، إنَّ فِيها قَومًا جَبّارِينَ، وإنّا لَن نَدخُلَها حَتَّى يَخرُجُوا مِنها. فإنْ يَخرُجُوا مِنها فإنّا داخِلُونَ ﴾.[١] وقد أورد كثير من المفسّرين ههنا أخبارًا من وضع تخرُّصات اليهود، في عَظَمة خلق هؤلاء الجبّارين، وأنه كان فيهم عَوج بن عُنق بنتِ آدم عليه السلام وأنّ طوله ثلاثةُ آلاف ذراعٍ وثلاثُمِائَةٍ وثلاثةٌ وثلاثون ذراعًا وثلثُ ذراع.[٢] كذا بتفصيل الطول وتحديده.

وأخرج ابن أبي حاتم عن أنس بن مالك أنه أخذ عصًا فذرع فيها شيئًا، ثم قاس في الأرض خمسين أو خمسًا وخمسين، ثم قال: « هكذا أطولُ العماليق ». فإذا كان المقياس بذراعنا نحن فهو مردود لأنه صح في الحديث الشريف أن بني آدم تقاصَرَ خلقُهم مع الزمن، وهؤلاء كانوا في عهد موسى بعد عشرات القرون والعشرات من آدم، وإذا كان المقياس بذراع العِمليق نفسه فهو وصف أبعد ممّا يتجاوزه الخيال، لأنه لو كان الإنسان كذلك لكان مشوّهًا مضحك المنظر يده قصيرة في جنب طول جسده جدًّا، ويلزم منه قبح الصورة وعدم اعتدالها، وأن يكون عديم المنافع المعدّة لها اليدان.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال: أُمِر موسى أن يَدخل مدينة الجبّارين، فسار بمَن معه حتى نزل قريبًا من المدينة وهي أريحاء، فبعث إليهم اثني عشر نقيبًا من كلّ سِبطٍ منهم عينٌ ليأتوه بخبر القوم، فدخلوا المدينة فرأوا أمرًا عظيمًا من هيبتهم وجسمهم وعِظَمهم، فدخلوا حائطًا أي: بستانًا لبعضهم، فجاء صاحب الحائط ليَجني من حائطه، فجعل يحشّ الثمار ونظر إلى آثارهم فتبعهم، فكلّما أصاب واحدًا منهم أخذه فجعله في كمّه مع الفاكهة حتى لقط الاثنَي عشَرَ، وذهب إلى ملكهم فنثرهم بين يديه، فقال لهم الملك: قد رأيتم شأننا وأمرنا، اذهبوا فأخبِروا صاحبكم. وقد تناقلت كتب

---

(١) الآية ٢٢ من سورة المائدة.

(٢) تفسير ابن كثير ٢ : ٣٦ - ٣٧ والدر المنثور ٣ : ٣٥١.

التفسير كثيرًا من هذه الأخبار، وعلّق ابن كثير على بعضها بقوله: « وهذا شيء يُستحيَى من ذِكره ».

* * *

وهكذا نكون قد رأينا الجهود المباركة التي بذلها العلماء المُخلِصون الأوفياء في خدمة القرآن الكريم، للتفسير وتوجيه المعاني والإعراب والبيان بحسَب المشارب المنهجية والمذهبية واللغوية والنحوية والبيانية، مما يُشكرون عليه وتُحمد أعمالهم فيه، ثم جمعنا باقاتٍ من الحديقة القدسية ونفحاتٍ من الأجواء العليا وقبَساتٍ من الأنوار الربّانية، لمسنا بها بعض التوجّهات التي انطلق إليها المفسّرون فيما يقتضي منّا التأمّل والتبصّر والاعتبار، للإعجاب بفضلهم وتقدير عظمة الإخلاص والوفاء أو التأمّل لمضمون بعض آثارهم التي هي في حاجة إلى النظر والاختبار لمعرفة منزلتها من الصواب أو الخيال أو الأوهام.

وأغربُ ما يُذكر من الخيال والأوهام وأعجبُه أن يكونَ تفسير القرآن الكريم في المساجد باللهجات العامّية، بدعوى أنّ المسلمين العرب لا يفهمونه إلّا بهذه اللهجات، ثم يَسترسلَ بعض المفسِّرين في ذلك سنوات بلهجاتهم المحلّية، تتناقل رَطاناتِهم مختلِفُ الإذاعات والقنوات الفضائية ومجالس العلم والعلماء، بل يُنشر بعض ذلك بألفاظه وعباراته المفسِدة للّغة والفكر واللسان. فإن سئلوا عن تجنّب العربية الصحيحة أو الفصيحة في هذا اتهموا الناس بالجهل وعدم الفهم للتفسير العربي الفصيح.

كذا يدّعون مع أنّ هؤلاء الناس الطيّبين المحبِّين للغة القرآن العظيم يسمعون كثيرًا من الموضوعات الإذاعية والتلفازية بهذه اللغة الكريمة، ويتابعون من ذلك ما يترجَم بالعربية عن اللغات الأجنبية باهتمام وإدراك، بل إنّ أطفالهم الصغار يشاهدون ما يترجَم أو يدبلَج من تلك الإصدارات الأجنبية، ويحفظون عباراته ويتناقلونها بينهم بكل يسر وطلاقة. أفيكون

هؤلاء الأطفال أقدر من آبائهم على ذلك، أم في الأمر جهل بقدرات الناس واستصغار لها وتعميق لاستبعادِ اللغة القرآنية وإشاعةِ الطُّمطمانيات؟

تلك هي المسيرة الكريمة في رياض التفاسير، نستضيء بها في متابعة العمل، مميّزين الطيب من الخبيث، لننمي ثمار الأوّل وأزهاره، ونكتم أنفاس الثاني ومَهازل أخباره. وآخر دعوانا أنِ الحمد لله رب العالمين.

* * *
* *
*

الفهرس

* * *
* *
*

رقم الإيداع
2018 /17480
الترقيم الدولي **I. S. B. N**
978 - 977 - 717 - 385 - 8



(من أجل تواصلٍ بنَّاء بيـن الناشر والقارئ)

عزيزي القارئ الكريم.. السلام عليكم ورحمة اللّـه وبركاته..

نشكر لك اقتناءك كتابنا: « أبحاث عليا معاصرة في كتب التفاسير » ورغبة منا في تواصل بنَّاء بين الناشر والقارئ، وباعتبار أن رأيك مهمٌّ بالنسبة لنا، فيسعدنا أن ترسل إلينا دائمًا بملاحظاتك؛ لكي ندفع بمسيرتنا سويًّا إلى الأمام.

*** فهيَّا مارس دورك في توجيه دفة النشر باستيفائك للبيانات التالية:**

الاســم كاملًا: .... **الوظيفة:** ....

المؤهل الدراسي: .... **السن:** .... **الـدولة:** ....

المدينة: .... **حي:** .... **شارع:** .... **ص.ب:** ....

هاتف: ☐☐☐☐☐☐ / ☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐ e-mail:

- من أين عرفت هذا الكتاب؟

☐ أثناء زيارة المكتبة ☐ ترشيح من صديق ☐ مقرر ☐ إعلان ☐ معرض

- من أين اشتريت الكتاب؟

اسم المكتبة أو المعرض: .... المدينة: .... العنوان: ....

- ما رأيك في أسلوب الكتاب؟

☐ ممتاز ☐ جيد ☐ عادي (لطفًا وضِّح لِـمَ؟) ....

- ما رأيك في إخراج الكتاب؟

☐ عادي ☐ جيد ☐ متميز (لطفًا وضِّح لِـمَ؟) ....

- ما رأيك في سعر الكتاب؟ ☐ رخيص ☐ معقول ☐ مرتفع

(لطفًا اذكر سعر الشراء) .... العملة ....

عزيزي، انطلاقًا من أن ملاحظاتك واقتراحاتك سبيلنا للتطـوير وباعتـبارك من قرائنا فنحن نُرحِّب بملاحظاتك النافعة... فلا تتوانَ ودَوِّن ما يجول في خاطرك:

....

....

....

....

دعوة: نحن نرحب بكل عمل جادّ يخدم العربية وعلومها والتراث وما يتفرّع منه، والكتب المترجمة عن العربية للغات العالمية - الرئيسة منها خاصة - وكذلك كتب الأطفال.

عزيـزي القـارئ أعـد إلينا هـذا الحوار المكتوب على e-mail:info@daralsalam.com

ويمكنك إضافة ملاحظاتك عبر موقعنا: www.daralsalam.com في رابط من أجل تواصل بنَّاء

أو: ص.ب ١٦١ الغورية - القاهرة - جمهورية مصر العربية

لنراسلك ونزوِّدك ببيان الجديد من إصداراتنا

(من أجل تواصل بنَّاء بين الناشر والقارئ)



عزيزي القارئ الكريم:

نشكرك على اقتنائك كتابنا هذا، الذي بذلنا فيه جهدًا نحسبه ممتازًا، كي نخرجه على الصورة التي نرضاها لكتبنا؛ فدائمًا نحاول جهدنا في إخراج كتبنا بنهج دقيق متقن، وفي مراجعة الكتاب مراجعة دقيقة على ثلاث مراجعات قبل دفعه للطباعة. ويشاء العلي القدير الكامل أن يثبت للإنسان عجزه وضعفه أمام قدرته مهما أوتي الإنسان من العلم والخبرة والدقة تصديقًا لقوله تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٢٨].

فأخي العزيز إن ظهر لك خطأ طباعي أثناء قراءتك للكتاب فلا تتوانَ في أن تسجله في هذا النموذج وترسله لنا فنتداركه في الطبعات اللاحقة، وبهذا تكون قد شاركت معنا بجهد مشكور يتضافر مع جهدنا جميعًا في سيرنا نحو الأفضل.

الخطأ	رقم الصفحة	السطر
....	....	....
....	....	....
....	....	....
....	....	....
....	....	....
....	....	....
....	....	....
....	....	....
....	....	....
....	....	....
....	....	....
....	....	....

شاكرين لكم حسن تعاونكم ..،

(من أجل تواصل بنّاء بين الناشر والقارئ)

هَذا الكِتَابُ

لمسات لطيفة في تفسير القرآن، تُعالج ما كان من جهود المفسرين العظيمة بالترميم والتتميم والبيان. موضوعات نتناولها بالبحث وعرض الأباطيل والشُّبهات، ونُناقشها لكشف عواويرها بالأدلة العلمية المعتبرة، بعيدًا عن المذهبية ودسائس الثقافات الغربية.

ومن هذه الموضوعات: الفوارق العُظمى بين الدستور القرآني والدساتير الوضعية، وتاريخ الرسم العثماني للقرآن الكريم، والتوءمة بين القرآن واللغة العربية، وأن اللغة العربية هي الوحيدة في القرآن الكريم... وهذه خلاصة تجارب طويلة وخبرات عظيمة في حقول العلوم العربية والإسلامية، نُقدِّمها لك ليُستضاء بها في متابعة العمل، وتمييز الطيب من الخبيث، لتنمية ثمار الأوّل وأزهاره، وكتمان أنفاس الثاني ومَهازل أخباره.





الناشر

دَارُ السَّلَامِ لِلطِّبَاعَةِ وَالنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ وَالتَّرْجَمَةِ

القاهرة - مصر - ١٢٠ شارع الأزهر - ص.ب ١٦١ الغورية
هاتف: ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ - ٢٥٩٣٢٨٢٠ - ٢٠٨٠٢٨٧٦
فاكس: ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢+)
الإسكندرية - هاتف: ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس: ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣+)
www.daralsalam.com info@daralsalam.com

